سمر يزبك

تقاطع نيران

من يوميات الانتفاضة السورية

سمر يزبك

تقاطع نيران

(من يوميّات الانتفاضة السوريّة)

دار الآداب ـ بيروت

تقاطع نيران

تقاطع نيران

(من يوميّات الانتفاضة السوريّة)

سمر يزبك/ روائيّة سوريّة

الطبعة الأولى عام 2012
ISBN 978-9953-89-236-8

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: يوسف عبدلكي

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
rana.adab@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

«تقاطع نيران» Crossfire هو الموقع الذي يكون فيه شخص أو مجموعة قتاليّة أو سياسيّة، في مرمى نيران متعدّدة، من العدوّ ومن الصديق.

هذه اليوميّات ليست توثيقًا مباشرًا للشهور الأربعة الأولى في الانتفاضة السوريّة

إنّها مجرّد أوراق استعنت بها في أيّامي على مواجهة الخوف والذعر، وكذلك مراودة الأمل. لكنّها كتابة حقيقيّة، واقعيّة، ولا تمتّ للخيال بصلة.

تغيب، للأسف، وقائع مدن كان لها دور بارز في الحراك الشعبي، مثل دير الزور والقامشلي، وذلك لتعذّر سفري إليها، كما لم يحالفني الحظّ بلقاء بعض ناشطيها في دمشق، وتسجيل شهاداتهم عن إسهامات أهلها في الانتفاضة.

أشير إلى النشطاء الذين ما زالوا على قيد الحياة بالأحرف

الأولى من أسمائهم، وفي الغالب هي أحرف وهميّة عن سابق عمد.

وأمّا أسماء الأطبّاء فقد أبقيتها سرّيّة، رغم أنّ بعضهم استُشهد، والبعض الآخر ما يزال مفقودًا، وهناك غموض يكتنف مصير آخرين.

٢٠١١/٣/٢٥

ليس صحيحًا أنّ الموت عندما يأتي ستكون له عيناك!

ليس صحيحًا أبدًا أنّ الرغبة في الحبّ تشبه الرغبة في الموت. ليست تلك اللحظة ذاتها، ربّما تتساويان بالعدم نفسه من حيث إنّهما سابحتان في التبدّد. في الحبّ؛ التماهي مع الآخر. في الموت؛ التماهي بالوجود والتحوّل من الماديّ المحسوس إلى فكرة. دائمًا كانت الأفكار عند البشر أكثر نبلاً من وجودهم نفسه، وإلّا ما معنى تلك القدسيّة لأمواتنا، قد يكون الواحد منهم بيننا قبل لحظات، وعندما يختفي، يصير التماعة!

لن أقول إنّي هادئة الآن. أنا صامتة فعلاً. أسمع دقّات قلبي مثل دويّ انفجارٍ بعيد، وهو أكثر وضوحًا من أصوات الرصاص، ومن صياح الصبيان، ومن عويل الأمّهات. أكثر وضوحًا من رجفة صوت أمّي وهي تستغيث بي، عدم الخروج إلى الشارع: القتلة في كلّ مكان. الموت في كلّ مكان. في القرية. في المدينة. على الشاطئ. القتلة يستبيحون

المكان، يروّعون الناس، ينتشرون أمام بيوت الجيران، ويشيرون إليهم أنّنا سنقتلهم، ثم يأتون إلينا، ويصرخون: سيقتلكم هؤلاء.

أنا الزائرة الطارئة على هذا المكان. أنا الطارئة على الحياة. لا أنتمي لبيئة العيش، مثل حيوان برّي كنت أسبح في العدم. أتخبّط فارغة إلّا من حرّيّة وجودي. هنا ومنذ أن بدأت حركة الاحتجاجات، أنظر من النوافذ وأراقب. صوتي لا يخرج، أردت الانتهاء بسرعة من هذا الوجود. لم أعرف، في غمرة التفاصيل، أنّ هذه اللامبالاة ستجعلني امرأة شديدة الصرامة وشديدة الهشاشة! وأنّي سأتمسّك بالحياة إلى هذا الحدّ من الخوف. الخوف من ماذا؟ كيف يخاف الناس هنا؟ الناس لا يعرفون أنّهم يعيشون الخوف، مثل شهقات التنفّس يعيشون الخوف. منذ أن عشت في العاصمة أنا وابنتي، قبل خمسة عشر عامًا، أحتفظ بسكّين لا يفارق حقيبتي، أحمله أينما تحرّكت. سكّين حادّ صغير وجاهز للدفاع عن النفس. قبل سنوات مضت كنت أقول إنّي سأغرسه في جسد من يحاول إهانتي لأنّي امرأة تعيش وحدها. لم أستخدمه كثيرًا، مرّات قليلة، شهرته في وجه رجال مذهولين، لكنّي مؤخّرًا صرت أقول: إنّي سأغرس هذا السكّين في قلبي قبل أن أسمح بإهانة كرامتي.

ماذا يعني كلّ ما أقوله الآن وسط حفلة الموت هذه! أيّ خروج للشارع يعني فرصة للموت، داعبتني هذه الفكرة، أن تمشي في شارع، وتشعر أنّ هناك من سيقتلك في أيّة لحظة. فكرة مجنونة، لكنّها غريبة، أن تخرج مع الأصدقاء للتظاهر، وتعرف أنّ هناك رجالاً من الأمن، قد يقنصونك في أيّة لحظة. رجال الأمن الذين يدوسون رقاب الناس منذ عقود، يعتقلونهم، يقتلونهم، ثم يمشون في الشوارع بدم بارد.

كيف يتحوّل الجسد البشري إلى آلة قتل فتّاكة؛ الأيادي، العيون، الشعر، الرأس. كلّ هذه الأعضاء التي تشبه أعضاءك، كيف تتحوّل إلى

مجسّات ضخمة، وأنياب طويلة؟ هكذا بلمح بصر، يتحوّل الواقع إلى خيال. الواقع أكثر وحشيّة من الخيال، يقولون إنّ كتابة الرواية تحتاج إلى خيال، وأنا أقول تحتاج إلى واقع؛ أوّلاً وثانيًا وثالثًا، وما نكتبه في رواياتنا هو أقلّ وحشيّة ممّا يحدث على أرض الواقع.

تخرج بُثينة شعبان على شاشات التلفزة. أمّي تقول اسمعوا: تتحدّث عن خونة وفتنة طائفيّة يا ويلنا، أغلقوا النوافذ. تعود صور الأطفال المعذّبين والشباب الذين قُتلوا. وجه الطفل الذي حملته في ساحة المرجة، وهو يرى عائلته تُضرب وتُعتقل، أسمع رجلاً يتحدّث من التلفزيون عن دم الشهداء في درعا، يطالب بالثأر، ثم يقول: لن نردّ على هذه المرأة (يقصد بُثينة شعبان) ونحن لا نردّ على نساء، هل نصغي إلى امرأة؟ كلّ ما يحدث لا يشبهني؛ تصفيق عائلتي للسيّدة، وتصفيق أصدقائي لدم الشهداء. أخجل من دم الشهداء.

يا ربّ السماوات إن حدث خطأ بشري، واتّضح أنّك فعلاً تجلس هناك، ولا تريد النزول لترى ما يحدث، فسأمدّ يدي إليك، وأطالك من سماواتك السبع، لتسمع وترى!

أخرج إلى الشرفة، أشجار الليمون تنعشني. المكان هنا هادئ للحظات، ثم تشتعل النيران. الكلّ يعرف أنّ هذه المدينة كانت هادئة، ليس الهدوء الطبيعي، فسطوة الأجهزة الأمنيّة عالية، ولا أحد يستطيع افتعال أيّ مشكلة. رجال الأمن دائمًا في الشارع. فجأة تتحوّل شوارع المدينة إلى كرنفالات رعب. فجأة تحلّ الفوضى. عناصر الأمن تتفرّج على الناس، يهربون أحيانًا، وأحيانًا تتمّ تصفيتهم بطريقة غير مفهومة! العصابات التي طلعت من الأرض نبتت مثل أيّ شيء يحدث هنا، من الفراغ، دون منطق ودون سبب! كيف خرج الرجال المسلّحون وقتلوا الناس؟ كيف حدث كلّ هذا؟ أنا المنفيّة من المدينة ومن القرية ومن

هواء البحر. أتلقّى النظرات الحادّة من الجميع. من كلّ الأطراف. أنا أعرف الوجهين. أعرف وجوه الحياة الأخرى في دمشق، هناك حيث تحوّلت المدينة إلى قرية من نوع آخر.

ما الذي أفعله هنا؟ أنتظر الموت؟ تعود السجالات من جديد: المخرّبون، المندسّون. أتكوّر على نفسي؛ أنا مندسّة الآن بين أهلي. مندسّة في سريري. أنا الآن أدسّ نفسي في كلّ شيء، وأنا لا شيء. أنا كتلة اللحم التي تتكوّر تحت اللحاف، أندسّ حتى في عروق الإسفلت في الشارع! أندسّ في حزن كلّ سوري يمرّ أمام ناظري. وأسمع أصوات الرصاص والدعاء. أنا كتلة اللحم التي تمشي في الصباح من بيت إلى بيت، تحاول أن تجد ورقة أخيرة للخلاص، والادّعاء أنّها تفعل شيئًا يعينها على اعتقادها بفكرة التمارين على العدالة، ولكن ماذا يساوي هذا الآن؟ لا شيء! كلّ الشعارات وكلّ الآلام وكلّ الكراهية المحرّضة على القتل والموت لا تعني الآن شيئًا أمام هذا الواقع؛ الشوارع خالية، مدينة أشباح. الآليّات العسكريّة تنتشر في كلّ مكان، ولا وجود للجيش. أين اختفى الجيش؟ من يصدّق هذه الترّهات الآن! الجيش يترك العصابات تقتل الناس وتروّعهم، ولا يتدخّل، رجال الأمن الذين كانوا يروّعون الناس، فجأة تحوّلوا إلى مستضعفين أمام هذه العصابات!

ما هذا الجنون؟ إنّه الموت، الكائن المتحرّك الذي يمشي على قدمين الآن، وأسمع صوته، وأحدّق فيه. أنا التي تعرف طعمه، أنا التي تعرف طعم السكّين على الرقبة، وطعم الأحذية على الرقبة. عرفته منذ زمن بعيد، منذ لحظة هروبي الأوّل من هذا العالم الضيّق، ومن هروبي الثاني والثالث. أنا جريمة خيانة في مجتمعي وطائفتي، لم أعد أخاف، ليس لأنّي شجاعة، فأنا هشّة جدًّا، لكنّها العادة!

اليوم في جمعة العزّة. المدن السوريّة تخرج للتظاهر. أكثر من مائتي ألف متظاهر يشيّعون قتلاهم في مدينة درعا. قرى درعا تزحف بالكامل نحو المقبرة الجنوبيّة، وخمسة عشر قتيلاً يسقطون. في مدينة حمص ثلاثة قتلى، وفي اللاذقيّة قتلى وجرحى، وسط العاصمة دمشق داخل حيّ الميدان يخرج متظاهرون، ويقع جرحى ويتمّ نقلهم إلى مشفى المجتهد، وقوّات الجيش محيطة بدرعا وتطلق النار على كلّ كائن متحرّك، وفي الصنمين يقوم الأمن العسكري بمجزرة ويقتل عشرين من أهلها.

لم أعد أخاف الموت! نحن نتنفّس الموت. أنتظره مع سيجارتي وقهوتي بهدوء. أفكّر أنّي أستطيع التحديق في عين قنّاص على سطح بناء. أحدّق فيه دون أن يرفّ لي جفن. أخرج إلى الشوارع وأحدّق في أسطح الأبنية، بهدوء أمشي. أتجاوز الأرصفة وساحة المدينة، وأفكّر أين يمكن أن يكون القنّاص الآن؟ أفكّر أنّي سأكتب رواية عن قنّاص يراقب امرأة تمشي بهدوء في شارع. أفكّر بهما كبطلين وحيدين في مدينة أشباح. مشاهد تشبه شوارع (ساراماغو) في رواية «العمى».

أعود إلى العاصمة، وأعرف أنّ هذا المكان لن يعود كما كان. لم يعد الخوف يشبه التنفّس! الحياة هنا تغيّرت دفعة واحدة إلى الأبد.

أعود، وأعرف أنّي لن أيأس من تكرار تمارين العدالة، حتى لو فتحت صدري للموت، كما قلت: إنّها العادة، لا أقلّ ولا أكثر، أنا في انتظاره، ولا أحمل الزهور إلى قبري.

٢٠١١/٤/٥

سأندسّ في نوم القتلة؛ أسألهم: هل حدّقتم في عيون القتلى حين اقترب الرصاص من صدروهم؟ لمحتم ثقب الحياة؟ حدّقوا قليلاً في الثقوب الحمراء حول جباههم وبطونهم، حيث تستقرّ نوافذ أعيننا.

هنا في دمشق، حيث تنام عيون القتلة بعد قليل، ونبقى حرّاس القلق.

الموت ليس سؤالاً الآن. الموت نافذة نفتحها على الأسئلة.

دمشق مثل كلّ المدن تصبح أكثر جمالاً في الليل، مثل امرأة بعد الحبّ.

من يقتل وراء الأسطح والأبنية؟ قاتل جبان هو؟ القاتل جبان، وكيف يمكن أن يكون شجاعًا، فهو مجرّد من شرطه الأخلاقي سلفًا.

أغادر البيت، باتّجاه ساحات المدينة، باتّجاه الجوامع. الآن في منتصف الظهيرة، يجب أن أعرف شوارع المدينة، شارعًا شارعًا، وساحة ساحة، لا أصدّق إلّا عيني. ساحات المدينة خالية من ناسها،

ربّما لأنّ اليوم عطلة، لكنّ الجميع يختبئ في خوفه اليوم.

دوريّات الأمن تنتشر بكثافة في الشوراع، في كلّ مكان أذهب إليه، سيّارات تروح وتجيء. سيّارات مسرعة وبطيئة، حافلات ضخمة تعجّ بعناصر أمن، وبرجال يرتدون خوذاتهم وثيابهم العسكريّة، تنتشر في الأسواق والساحات وعلى مفترق الطرقات العريضة وفي بعض الأماكن التي تصلح للتظاهر.

اجتمع الرجال بلباس مدني، لكنّ ثقل حضورهم يكشفهم، كيف صرت أفرّق بين رجل أمن، ورجل عادي في دمشق؟ حقيقة من الصعب التكهّن متى بدأت لعبتي هذه، ومتى صارت فراستي تسبق السؤال والكلام. أعرفهم من عيونهم، من طريقة ارتداء ملابسهم. من أحذيتهم. رجال الأمن اليوم أكثر من الناس في شوارع المدينة، في الأزقّة، وأمام الأكشاك، في الساحات، وأمام المدارس، في كلّ مكان أذهب إليه ينتشر رجال الأمن.

دوريّات الأمن تنتشر قرب مدخل الحميديّة، وقرب ساحة باب توما، يوقفون بعض الرجال، يحقّقون معهم، يأخذون هويّاتهم. لم أتوقّف كثيرًا لأعرف إن كانوا سيحتفظون بهويّاتهم، تسارعت خطواتي. تجاوزتهم، وأنا أنظر بطرف عيني، ثم دخلت الأزقّة. بالكاد هنا بشر، لكن حول الجامع الأموي، كان الأمن ينتشر بكثافة، والكثير من حشود البشر يرفعون الأعلام وصور رئيس البلاد.

الجامع مغلق، لم يتسنّ لي الدخول. قالوا إنّ هناك مصلّين في الداخل، وبقيت جالسة أدخّن بهدوء أراقب، ومن ثم انصرفت. كانت الحشود الحاملة لصور الرئيس كبيرة، ورجال الأمن يزرعون المكان، وكأنّ هؤلاء الناس نبعوا من الأرض.

فجأة صرت أرى في الشوارع أشكالاً غريبة لم ألمحها من قبل. رجال ضخام، صدورهم عريضة منفوخة، يرتدون ثيابًا سوداء بأكمام قصيرة تكشف عن العضلات المفتولة بالوشوم فوقها، وبرؤوس حليقة، ويحدّقون في كلّ شيء. يحدّقون ويمشون وأيديهم تهتزّ على الجانبين ويحرّكون هواء ثقيلاً. أشكال تبعث على الرعب، أين كان هؤلاء من هذه المدينة قبلاً؟ أين عاشوا؟ وكيف ظهروا اليوم؟

أخرج باتّجاه سوق الحميديّة، شبه الفارغ إلّا من بيّاعي البسطات. المحلّات مغلقة. عناصر الأمن هم فقط من يجوب المكان، وفي نهاية السوق حافلات أخرى تعجّ برجال مسلّحين. أصبحت أعرف الآن معنى الهدوء الحذر، كنت أسمع هذا المصطلح وأقول إنّه مصطلح إنشائي غير بليغ، هذه الأيّام، في دمشق، أعرف معنى الهدوء الحذر في عيون الناس وفي حركاتهم. أتجاوز الحميديّة باتّجاه ساحة المرجة، وكنت قرّرت عدم المرور من هذا المكان، بعد ما حصل منذ عدّة أسابيع أمام وزارة الداخليّة.

ساحة المرجة فارغة، إلّا من رجال الأمن، يصطفّون بكثافة ملفتة. الكثير منهم يتوزّعون في الساحة، وغير بعيد عنهم أيضًا حافلة مدجّجة بالرجال والأسلحة. ساحة المرجة تبدو مع فنادقها البائسة أكثر وضوحًا عندما يختفي البشر، وتكون محلّاتها التجاريّة مغلقة. لا تشبه ذلك اليوم في ١٦ آذار عندما اجتمع العشرات من أهالي المعتقلين أمام مقرّ وزارة الداخليّة، في الواقع لم يجتمعوا، بالكاد تجمّعوا! وقفوا بهدوء. كان منظرهم غريبًا. وقفوا بأناقة، يحملون صور ذويهم المعتقلين السياسيّين. كنت أقف معهم إلى جانب زوج معتقلة وطفليها. فجأة انشقّت الأرض عن رجال الأمن والشبّيحة، وبدأوا يضربون الناس. المجموعة الصغيرة هلعت، وصرخت: «خاين اللي بيقتل شعبو»، وكنت أنظر في وجوههم.

لم يفعلوا شيئًا، يتلقّون الضرب والإهانات ويختفون واحدًا إثر واحد. يأخذهم الرجال الذين ولدتهم الشوارع فجأة. رجال بخواتم ضخمة وعضلات منتفخة وعيون مجهدة وجلود متشقّقة، يصنعون سدًّا بشريًا يرمون أنفسهم على المتظاهرين ويضربونهم، يوقعونهم أرضًا ويدوسونهم. رجال آخرون يلتقطون الناس ويأخذونهم بعيدًا. يخفونهم، رأيتهم يفتحون أحد المحلّات التجاريّة، يرمون امرأة في داخله، ثم يغلقون بابه الحديدي خلفها ويتّجهون نحو امرأة أخرى.

المجموعة التي حاولت التماسك انفرطت، وزوج المعتقلة اختفى وأودعني ابنه الصغير ذا السنوات الأربع. عدّة رجال يمسكون بالأب وبابنه ذي السنوات العشر. أنا واقفة مثل تمثال مثلوم. أشدّ الصغير إلى صدري، وكأنّني داخل مشهد سينمائي، كيف يكون الفرق بين الواقع والخيال. ما هو الخطّ الذي يفصل بينهما، كنت أرتجف، فجأة انتبهت إلى أنّه ينظر إلى والده وأخيه وهما يُضربان، ويراهما لحظة حشرهما داخل حافلة، وجه الأخ ذي السنوات العشر جامد وكأنّه تعرّض لصعق كهربائي، قبضة قويّة تتوجّه إلى رأسه الصغير؛ طاااااخ. يتدلّى رأسه، وبعد ثانية، تركله الأرجل مع والده إلى داخل الحافلة. انكمشت وأدرت وجه الطفل الصغير، حتى لا يتابع ما يحدث، أشحت به، ثم ركضت. خرجت صديقة بالقرب منّي، كانت وصلت ساحة المرجة لتوّها، انقضّ عليها ثلاثة رجال، وأنا صرخت: وأمسكت بذراعها بقوّة، لا تأخذوها! رموني مع الطفل، الذي ترنّح في حضني، وأخذوها بعيدًا، ركضت أكثر، وقفت قرب محلّ تجاري، صرخ صاحب المحلّ: انقلعوا من هون بدنا نسترزق! ركضت هاربة، رافقني أحد الشباب المتظاهرين، ليساعدني على حملِ الطفل ومشينا بسرعة. لمَ كنت أركض؟ الصغير يطلب منّي أن أبقى معه، سينتظر والده، يقول إنّه خائف لأنّ أباه وأخاه

تركاه وإنّه سيضرب الشرطة التي ضربت أخاه. يسأل إن كانا قد ذهبا إلى السجن مثل أمّه، وأنا صامتة عاجزة. أقول له: ستذهب معي الآن.

في الواقع لم تكن الشرطة هي التي ضربت والده، الشرطة وقفت تتفرّج على الناس الذين يُضربون ويُركلون ويُهانون ويُعتقلون، وقف رجال الشرطة صامتين، وخرجت مجموعة تهتف وهي تحمل صور الرئيس والأعلام، وكانوا هم أنفسهم من قام بالضرب، إضافة إلى مجموعة ظهرت فجأة، صاروا يضربون الناس بعصي الأعلام، يتفرّق الناس الذين بالكاد تجمّعوا، ذهول يغطّي وجوههم. مساءً ينتشر الخبر أنّ هناك من اندسّ بين المتظاهرين وأحدث فتنة، وأنّ وزير الداخليّة استقبل شكاوي أهالي المعتقلين، أسمع ذلك في التلفزيون الرسمي السوري، وعيون الطفل الصغير الذي حملته لا تفارقني. تخيّلت، فجأة، أنّه ضاع بين الأقدام المتدافعة، وأنّه غرق في شوارع المدينة وحيدًا يبحث عن أبيه وأخيه.

* * *

الآن أتجاوز ساحة المرجة بعد تلك الحادثة، وأرى تلك الخيالات التي صارت وراء قضبان السجون المتحرّكة، وأركب سيّارة أجرة باتّجاه أحد الجوامع التي سمعت أنّها محاصرة حتى الآن. لا يوجد أيّ تجمّع، قلت ربّما يكون هناك أخطاء وتهويل إعلامي! أراقب المدينة من زجاج السيّارة، في الطريق من ساحة المرجة إلى دوّار كفر سوسة. في السيّارة أقضي الوقت في تصفّح الإنترنت من جوّالي، لا أريد الاعتماد إلّا على نفسي فيما أرى. الأخبار من الإنترنت تقول إنّه محاصر، والمذياع في السيّارة يقول إنّ الهدوء يعمّ المدينة!

عند دوّار كفر سوسة ينتشر الأمن، دوريّات الأمن يعرفها

السوريّون. الغرباء عن المدينة لا يتوقّعون أنّ سيّارات كهذه يمكن أن تنتشر بهذه الكثافة في الساحات. يمنعونني من الدخول: الطريق مقطوع. نتجاوز الساحة وندخل بين الأزقّة، في أحياء أخرى يبدو الوضع هادئًا، هناك أماكن بعيدة عمّا يحدث، وخاصّة الأماكن التي تسكنها الطبقة الثريّة. تركت سيّارة الأجرة ومشيت باتّجاه الجامع، من الصعب الاقتراب منه، درّاجات ناريّة، زعيق أصوات وهتاف. ضبّاط أمن من مستويات عالية وحشود تحمل أعلامًا وصورًا للرئيس، يقولون إنّ هناك صمتًا قاتلاً في الداخل، أسأل عمّا يحدث، ينصحني الجميع بالابتعاد، لا توجد نساء، قال لي أحدهم باستهزاء: ما الذي تفعلينه هنا؟ أدرت له ظهري، وعلت الهتافات مع الأعلام والصور، كان الأمن يحيط بالجامع. الجامع فعلاً محاصر. لا أعرف إن كان بإمكاني الدخول، الطريقة الوحيدة هي الاندساس بين الذين يحملون الصور والأعلام.

من الصعب جدًّا أن يجد المرء نفسه بين رجال بثياب مدنيّة، يظهرون فجأة وهم يضربون فتًى، ويرمونه أرضًا، يأخذون جوّاله، بعضهم يصعد الأبنية المطلّة على الجامع، أسمع أنّهم يريدون التأكّد أن لا أحد يقوم بالتصوير، ولكنّي لا أستطيع التأكّد من أيّ معلومة، سوى أنّ هذا المكان محاصر من رجال الأمن ومن الشرطة والضبّاط، ومن حاملي الأعلام والصور، وهم ورجال الأمن من حال واحد، ومنهم من يخرج ويقوم بضرب المتظاهرين، ومن ثم يعود ويحمل الصور. الناس حول الجامع يتناقلون أخبارًا عن مفاوضات تجري بين أحد الشيوخ في داخل الجامع ورجال الأمن، ليخرجوا بسلام، دون قتل ودماء. سأعرف لاحقًا أنّ الشباب المتظاهرين خرجوا من الجامع إلى السجون مباشرة.

قلبي يدقّ. أسمع دقّات قلبي، وكأنّه إنسان يحدّثني، أعرف الخطر

منه، يدلّني قلبي قبل عقلي. ألمح رجلاً بعينين غاضبتين يحمل صورة الرئيس، يتقدّم نحوي، أركض إلى السيّارة. الرجل يلحق بالسيّارة، وهو يشير إليّ متوعّدًا، أطلب من السائق الإسراع، يعود وينضمّ إلى حَملة الأعلام، يقول السائق: لك يا أختي شو بدّك بالبهدلة هدون ما بيفرّقوا بين مرا ورجّال!

أصمت. تغيم عيناي، وصورة المكان المحاصر ترعبني، ماذا سيحدث؟ أنباء القتل في دوما تصلني، أنباء اعتقالات الأصدقاء. أنباء عن جرحى ومشافٍ تغصّ بهم بعد أن أطلق الجيش النار عليهم، أنباء كثيرة تصل من هنا وهناك. أطلب من السائق أن يجعلني أطلّ على المشهد في دوما، ينتفض الرجل صارخًا: لا والله ما بتروحي.

عزلاء إلّا من ضميري، لا يعنيني إن كانت الفترة القادمة تحمل ملامح إسلام معتدل وما يُقال حول هذا الأمر، لا يعنيني وجه القتلة، ولا حتى كلّ ما يشاع ويكذب، أنا الآن يعنيني أن لا أكون شيطانًا أخرس عندما تصير الدماء لغة بين الناس! يعنيني أنّني أرى بأمّ عيني أناسًا عزّلاً يُضربون ويُعتقلون ويُقتلون فقط لأنّهم يتظاهرون. أرى أبناء شعبي يتساقطون ببساطة كحبّات درّاق لم تنضج بعد!

يتحوّل السائق إلى وصيّ وواعظ، يقول: الطريق مقطوعة إلى دوما، ممنوع الدخول إليها. أقول له: وهل دوما محاصرة أيضًا، يقول: بلا هيك حكي يا أختي أنا ما إلي دخل! من أخبرك؟ أسأله. الجيش هناك، وأصوات إطلاق نار. يقول. أقول: يا عمّ شو رأيك؟ شو عم يصير؟ يقول: ما إلي دخل! أنا يدوب عايش. أقول له: ولكنّ الناس تموت. قال: كلّنا سنموت، والله يرحمهم. قلت له: لو أنّ واحدًا من أولادك قُتل ماذا تفعل؟

صمت قليلاً وهزّ برأسه وقال: الدنيا كلّها ما بتكفيني فيه! قلت له: سمعت أنّ أحد الشباب الذين استشهدوا في درعا وضعوه في البرّاد، وهو حيّ، ولمّا أخرجوا جثّته، وجدوه قد كتب بدمه: وضعوني هنا وأنا حيّ، سلامي لأمّي. صمت وهزّ رأسه. . قلت: أرجو أن يكون هذا غير صحيح. صمت واحمرّت أذناه.

اليوم تخرج مظاهرة في جامعة دمشق، قسم الآداب، وتصادر هواتف الطلّاب، ويعتقلون، وبلدة تلبيسة ما تزال محاصرة، والاتّصالات مقطوعة عنها، ويستلم أهلها جثث أبنائهم من رجال الأمن. وفي المعضميّة القريبة من دمشق، يقوم الأهالي بإنزال صورة كبيرة للرئيس بشّار الأسد، ويُقتل فيها شابّ. وفي اللاذقيّة مات ثمانية سجناء حرقًا في السجن المركزي.

في تلك اللحظة كنّا على أعتاب الوصول إلى بيتي.

أرتجف. أرى الدماء لا تأتي إلّا بالدماء، وأرى ثقبًا كبيرًا للحياة، ثقبًا أكبر من الوجود. ألمحه من صدور الشهداء، من دون وجه القتلة. وأفكّر وأنا في بيتي أنّي سأندسّ في نوم القتلة وأسألهم، إن لمحوا ثقب الحياة وهم يوجّهون رصاصاتهم إلى صدور القتلى العارية العزلاء!

٢٠٠١/٤/١٠

هنا دمشق. الجملة التي اعتدنا سماعها أطفالاً في المذياع. كلّ السوريّين يعرفون رنّة هذه الجملة: طبعًا هنا دمشق. بعد أن هاجر السوريّون من مدنهم الصغيرة وقراهم وبواديهم. صارت دمشق مكانًا وسطًا، مثل تصاريف الحياة اليوميّة لامرأة تعدّ عشاء زوجها دون أن تفكّر برعشة الحبّ معه.

لكنّ دمشق لم تعد هنا الآن!

اليوم الجمعة، رذاذ ناعم يتوقّف بما يكفي ليخرج الناس إلى الشوارع ويتظاهروا في الساحات والجوامع. من يتذكّر أنّ كلّ متظاهر هو مشروع موت!

الموت لعبة غير واضحة الملامح. هذه اليوميّات جعلت من الموت لوحة للتشكيل. لوحة غامضة واهية، لكنّها ماثلة أمامي عبر صدور الشباب العزّل الذين يخرجون للموت. كيف ستغفر هدهدات الأمّهات للقتلة؟ كيف سيتمرّن الدونكيشوتيّون على العدالة وسط هذه الجموع،

وتمارين العدالة لا تأتي إلّا بالقليل منها، والكثير من الظلم؟ لكنّ البطولة ليست مجدًا يشبه أكاليل الغار، هذا وهم إغريقي. البطولة أن تكون في ضفّة الضعفاء حتى يقووا، أو أن أُعيد تدوير الأرض وكتابتها بأصابعي الهشّة وبضع كلمات مهلهلة. هل أفعل كما كتب رامبو في فصول جحيمه: «أرسلت إلى الشيطان أكاليل الشهداء وأنوار الفنون، وكبرياء المبدعين، وتوجّهت إلى الحكمة الأبديّة»؟

يتوقّف الرذاذ. تسطع شمس بخيلة، تعاود حبّات المطر الانزلاق فوق خدّيّ. أشرب قطرات الرذاذ، قبل أن أركب سيّارة الأجرة وأتّجه إلى دوما، أفكّر أنّ هذه اليوميّات تشبه خلاصًا أو زعيقًا، ولكن هي في النهاية مجرّد كلمات، يفترضها من حولي شجاعة، وهم في الحقيقة يرتكبون خطأً، فمنذ اللحظة التي تتّجه السيّارة فيها إلى مكان التظاهر، تنحلّ ركبتاي، ويجفّ حلقي، وأسمع نبضات الخوف.

الخوف حالة إنسانيّة لم يعطها البشر حقّها، هي شرح خفيّ لمعنًى أو حبّ. الخوف يعني أنّك ما زلت بشريًّا وسط هذا الركام.

نقترب من حرستا، وهي الضاحية التي يجب تجاوزها للوصول إلى دوما. السائق شابّ في منتصف العشرينيّات، هادئ، أكتشف لاحقًا أنّه شجاع. يقول لي: إنّ الطريق مقطوعة هنا. أستفيق من شرودي، وألمح خطًّا طويلاً من السيّارات. الصمت مطبق! أوّل مرّة أرى هذا الازدحام والناس هادئة إلى هذا الحدّ. نزلت من السيّارة، وتجاوزت بضع سيّارات لأرى ما يحدث، كانت هناك عدّة حافلات نقل داخلي تابعة للحكومة، بلون أخضر وكراسيّ صفراء. الحافلات تقف وتعطّل حركة السير. داخل الحافلات كان شباب يزدحمون بعضهم فوق بعض، قيامًا وقعودًا. ينزلون ويتوزّعون على جانبي الشارع. حشود كبيرة منهم تنزل، والجميع صامت. بعض الرجال الذين يرتدون ثيابًا كحليّة ورماديّة

موحّدة، كانوا يقودون الشباب. كانت وجوه الشباب قاسية، لكنّها متعبة، وهم في الغالب حليقو الرؤوس، ويبدو الفقر واضحًا عليهم، أقتربُ من أحد الرجال الذين يجمعونهم وأسأله: ماذا يحدث؟ يعبس ويتجاهل سؤالي. لا توجد نساء في الشارع، فقط امرأة لمحتها من بعيد، تضع نقابًا أسود، وتجرّ طفلاً وتركض مذعورة. رجل في السيّارة مدَّ رأسه وقال: «ارجعي يا أختي هدون أمن». قلت: «والشباب الذين ينزلون من الباصات ماذا سيفعلون بهم؟» صمت ولم يجب. لكنّي خمّنت. كانوا بالمئات، وربّما أكثر، وقفنا نصف ساعة حتى نزلوا وانتشروا على الجانبين، وشكّلوا جيشًا صغيرًا، ثم ظهر الرعب على وجوه الناس الذين تراجعوا عن الأرصفة واختفوا.

وقف حاجز عسكري على مدخل دوما. كان هناك الكثير من رجال الأمن يفتّشون الشاحنات، ويدقّقون في الهويّات، وعشرات السيّارات تعود أدراجها، الشباب يقفون جانبًا، ومجموعات من رجال الأمن يقومون باستجوابهم، لم أكن أعرف حينها أنّ دوما محاصرة، وأنّ هناك طوقًا أمنيًّا حول دمشق وضواحيها.

وراء رجال الأمن، وقف الكثير من الرجال بلباس عسكري كامل مع خوذاتهم من الجانبين. أوقفوا السيّارة، وقال لي رجل بصرامة: «لوين رايحة؟» أجبته أنّ لي زيارة هنا. نظر إليّ بالصرامة نفسها، وطلب منّي النزول من السيّارة. نزلت، ثم حدّق بفضول. كان قصيرًا، وربّما أغاظه أن أكون أطول قامة منه، فابتعد قليلاً، وطلب هويّتي: قال بعد أن قلب هويّتي: «مدام، المكان هون فيه زعران، يا ريت ما تدخلي». قلت له: «عندي زيارة لعشر دقايق عند خيّاطة»، ولحسن الحظّ أعرف خيّاطة هنا. أخبرته عن اسمها، وقلت له: «اتّصل بها إذا بدّك؟»، فتح باب السيّارة، وطلب من السائق أن يتابع. تنفّست، ثم أضفت بسذاجة: «شو

في؟» قال: «ولا شي أبدًا ما في شي». قلت: «وليش كلّ هالعسكر والأمن؟». . «ما في شي والله ما في شي»، أضاف. وأنا اطمأننت أنّي أجدت الدور الذي أحبّ لعبه دائمًا، التظاهر بعدم معرفة أيّ شيء، لمعرفة كلّ شيء، والصمت أمام من يحبّون الكلام، والأهمّ بعد ذلك: المراقبة.

انطلقت السيّارة، بالكاد نظرت إلى الأمام، حين رأيت حاجزًا عسكريًّا وأمنيًّا! ما هذا؟ بين الحاجز والحاجز حاجز؟ قلت للسائق: «يجب أن ندخل الأزقّة». قال: «خلّينا نرجع والله أنا خايف عليك». الحاجز الثاني كان كبيرًا. رجال عسكريّون يصطفّون متلاصقين، يشكّلون سدًّا في الطريق، وأمامهم سدّ آخر من رجال الأمن، شعرت أنّي في فيلم عن احتلال بلدة فلسطينيّة! ما هذا الإرهاب البصري؟ في الحقيقة لم يكن بصريًّا فقط، لأنّ ركبتيّ بدأتا تحرقانني وترتجفان. عندما فتح ضابط باب السيّارة، وقال بلهجة صارمة: «انزلي»، ركبتاي انقصفتا. وقفت. رمقني بفضول، وأخذ هويّتي، كان يرتدي ثيابًا مدنيّة، وإلى جانبه رجل، عرفت من لهجته أنّه من منطقة الجزيرة، أمّا الرجل الذي كان يدقّق في هويّتي فكان من أبناء الساحل، ما هذه الحالة! الأمن والجيش إمّا من منطقة الجزيرة السوريّة أو من منطقة الساحل! ربّما هي صدفة اليوم، فقد عرفت العديد من رجال الأمن، حالي حال السوريّين أجمعين، ولكنّ الملاحظة التي جمعت بينهم أنّهم كانوا من الأقلّيّات.

ينظر الرجل الجزرواي ويقول: «أنت مذيعة؟» قلت: «لأ». حدّق بي، وفجأة مدّ يده ونزع نظّارتي الشمسيّة، أمسكني بيدي بقوّة، وقال: «شو جايي تعملي هون؟» الرجل الثاني يقول: «مذيعة؟ إيه بعرف اسمك أنا بشوفك عالتلفزيون»، وقلت له بيأس: «أنت مخطئ، عندي موعد مع الخيّاطة»، تشجّعت قليلاً وصار صوتي أعلى: «وحضرتكن عم تخوّفوا

الناس، شوفي؟ شو صاير؟» قال الرجل الساحلي: «أنت كنت تقدّمي برنامج «ليدز فيرست» عرفتك، مرتي كانت تشوف البرنامج!» وقفز من مكانه وقال للرجل الآخر صارخًا: «سيدي هي من قناة الأورينت»، وخلال ثوان انقلبت الدنيا! أُحطت بعشرات الرجال المسلّحين، والمدنيّين أيضًا، وصرت مثل نقطة وسط خطوط دائرة! لم أعد أرى شيئًا وخنقتني الروائح، قلت: «يا أستاذ أنا كاتبة، وفعلاً من سنتين ولمدّة ثلاثة أشهر قدّمت برنامج على أورينت، وقبله كنت أقدّم برنامج ثقافي على الفضائيّة السوريّة، وإذا بتريد تخلّيني كمّل طريقي». قال واحد منهم: «سيدي ما تكون بدّها تسرّب معلومات لهدون الكلاب تبع الأورينت». واقترب أكثر منّي، وشدّني من كتفي، قلت له: «يا أستاذ ما إلي دخل بأيّ قناة، وإذا حضرتك عرفتني، لازم تكون محترم وتخلّيني أمشي، أنت رجل أمن، وواجبك تحميني مو تخوّفني، بعدين خبّروني شو في على الأقلّ؟»، خرجوا بصوت واحد: «ما في شي ما في شي». قلت: «وليش كلّ هالعسكر ورجال الأمن؟» قالوا: «ما في شي.. ما في شي». قلت للرجل الذي يبدو أنّه كبيرهم: «طيّب خلّيني أطلع من هون عالأقلّ؟»، صمت قليلاً، وهزّ برأسه، وأنا سأختنق من إحاطتهم بي، ويدي صارت في حقيبتي على السكّين. السكّين نفسه الذي أحمله أينما تحرّكت. كانت دقائق طويلة، لكنّه أخيرًا صرخ بي: «انقلعي من هون». فتفرّقوا من حولي، وقبل أن أركب السيّارة قال بلهجة بدويّة: «والله إذا بترجعي لهون لأعمل من جلدك طبل». أغمض عينيّ، وأطبقهما بشدّة حتى لا يلمح دموعي، تخيّلت كيف يصير الجلد البشري طبلاً يُدقّ عليه لتهتزّ الخصور. تجاوزنا الحاجز الثاني. لماذا كلّ هؤلاء الجنود، ورجال الأمن؟ أين ناس البلدة؟ هل هي بلدة أشباح؟ حاولت الاتّصال بصديقتي لأقول لها إنّي في دوما، لا يوجد اتّصالات. إذًا البلدة

محاصرة من الخارج وفي الداخل. كان هناك حاجزان عسكريّان آخران، ولم تختلف الكثير من التفاصيل، وبعد الحاجز الثاني رأيت الباصات الحكوميّة الضخمة نفسها، لكنّها أكثر عددًا، ينزل منها الشباب. هل هم الشباب أنفسهم الذين رأيتهم في حرستا! خمّنت أنّ هذا اليوم لا بدّ أن تكون قد اجتمعت فيه كلّ أجهزة الأمن، لأنّ الجهد واضح وانتشارهم الكثيف يدلّ على أنّهم من عدّة فروع. شعرت بالرثاء لهؤلاء الجوعى الذي ينحشرون في الباصات، حيث يختبئ داخل كلّ منهم وحش صغير. وعدت الضابط في الحاجز الرابع أنّي سأغادر دوما. لكنّي وفي نهاية الشارع العريض حيث تنتهي البلدة، طلبت من السائق الانعطاف، ودخلنا الأزقّة. ولد في العاشرة يركب درّاجة هوائيّة ساعدنا، وطلب منّي اللحاق به ليدلّني إلى ساحة البلديّة قرب الجامع الكبير، درنا حول الأراضي الزراعيّة، هناك أشجار زيتون؛ شجر الزيتون يؤلمني، سمعت من أيّام على شاشة التلفزيون أحد الفلسطينيّين من اللدّ، يتحدّث كيف أجبره الإسرائيليّون على هدم بيته، كان يبكي ويقول: «بيقولوا مين صاحبك؟» ثم يجلس تحت شجرة زيتون أمام بيته المهدّم ويقول: «الزيتون صاحبي».

بيوت صغيرة مترامية، زرائب ماعز، وروائح فقر.

الغالبيّة من الرجال بلحى طويلة، ونساء ملتحفات بالسواد، كلّهنّ بالأسود، لا تبدو سوى عيونهنّ، سأعرف لاحقًا أنّ الأهالي كانوا يجتمعون بالعشرات في الحارات الجانبيّة، لينضمّوا إلى المتظاهرين في الساحة، صرنا في قلب دوما، لذلك توزّعت الحواجز العسكريّة والأمنيّة في كلّ مكان لتمنع وصول المتظاهرين إلى الساحة. الحواجز حتى في الأزقّة! والسيناريو يتكرّر. قلت للسائق: «اتّخذ وضعيّة الضائع معهم، نحن نريد الخروج لأنّنا ضعنا، هكذا نقول لرجال الأمن والعسكر».

قلت للحواجز العسكريّة ورجال الأمن الكلام نفسه، «أنا ضائعة وأريد الخروج من هنا، وما سبب كلّ هذا؟» فيردّون بالجواب نفسه: «ما في شي»، ولمّا كنت أتجاوزهم وأرى رجال البلدة أسألهم عن ساحة البلديّة. أخيرًا وصلنا ساحة البلديّة، وقفت السيّارة إلى جانب سيّارة الهلال الأحمر. الساحة محاطة بالأمن، لم يقتربوا من المتظاهرين على الأقلّ حتى الساعة الثالثة ظهرًا حيث كنت هناك. المتظاهرون لم يتجاوزوا الألفين، والعسكر ورجال الأمن، في كلّ الزوايا، المتظاهرون يرفعون أعلامًا سوريّة، ويافطات بشعارات: «الله سوريّة حرّيّة وبسّ». لافتة أخرى: «لا سنّيّة ولا علويّة، لا دروز ولا إسماعيليّة، نحنا كلّنا سوريّة». وبعض أغصان الزيتون أيضًا، يبدو أنّ الزيتون صاحبهم! النساء غير موجودات، أحاول الاقتراب أكثر، يقترب منّي ثلاثة رجال، يمسكون بي من يدي، ويقولون بهمس: «شو بدّك؟» أقول ببلاهة «عم أتفرّج، ضيّعت طريقي، ليش شو في؟»، يفلتني الرجلان، ويقول أحدهم بلهجة آمرة: «ما في شي ما في شي. يلّا روحي فورًا».

في طريق عودتي، أسأل الأهالي عمّا حدث الجمعة الماضية، كانوا متحفّظين وحزانى، ولكنّهم يروون لي كيف خرجوا للتظاهر بشكل سلمي، وكيف انهمر الرصاص فوق رؤوسهم، وكيف اضطرّوا أن يحرقوا البناء المقابل للساحة، من أجل إنزال القنّاصة الذين كانوا يعتلون الأسطح ويقتلون الشباب، يتحدّثون عن الشهداء وعن خصالهم الحميدة. وأثناء حديثهم، لا ينظرون في وجهي، حتى المرأة التي حدّثتها كانت تنظر بخوف. وعندما اقتربت من أحدهم أسأله، ردّ بهذه الجملة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». كنت مستفزّة، وأعرف ما يعنيه وجود امرأة سافرة الآن، ولكن، ولأنّي كنت بين الفكّين دائمًا، فقد صرت أتجاهل ما يقولونه، وتابعت طريقي بالطريقة نفسها، كنت

ضائعة كما أبدو فعلاً، وأريد الخروج. حواجز تليها حواجز، رجال أمن وعسكر دائمًا! في الحاجز الأخير، شعرت بالإرهاق، وبدأ نفسي يضيق، نظرت ورائي إلى دوما، كانت بلدة محتلّة. وفي جعبتي الكثير من القصص.

في طريق عودتي مرورًا بحرستا كنت أقول: «يوم بلا دماء؟» سيكون هذا رائعًا. لم أكن أعرف أنّ هناك دماء غزيرة سُفحت في مدينة درعا، وأنّ أربعين شهيدًا سقطوا في هذه الجمعة، وأنّ كلّ المدن السوريّة تشهد حركة احتجاجات مماثلة، حتى داخل دمشق هناك احتجاجات وإطلاق نار ورصاص، في حمص إضافة إلى الضرب والاعتقال، أسمع قصّة أحد الضبّاط الذين قُتلوا على يد رجال الأمن، بعد أن أردوه برصاصتين في رأسه، لأنّه رفض إعطاء الأوامر لجنوده بإطلاق النار على المتظاهرين، ولم أعرف أنّ هذه الجمعة التي أطلق المتظاهرون عليها اسم «جمعة الصمود» ستكون منعطفًا في تاريخ سورية، وأنّها ستشكّل أكبر حملة احتجاجات واسعة شهدتها المدن، وأكبر عدد من الشهداء، وسيشارك فيها حتى الأكراد إلى جانب العرب، رغم منحهم الجنسيّة، وأنّ هذا يعني، ببساطة، أنّ ما قاله بشّار الأسد عن الإصلاحات لم يشكّل بالنسبة إليهم سوى أمر واحد: هو رفضها.

ولم أعرف أيضًا حتى لحظتها ونحن ندخل حرستا مغادرين دوما، أنّي بعد قليل سأرى للمرّة الأولى في حياتي وجه قتيل، وظلّ قاتل!

أثناء طريق العودة من حرستا لمحت الشباب الذين نزلوا من الباصات، واختفى الرجال الذين كانوا يوزّعونهم. سيختفي الرجال، ويبقى مئات من رجال الأمن، وهم فقط من سأراهم. قيل لي إنّ أعدادًا أخرى جاءت وهم ينقضّون على المتظاهرين، سيقول لي أحد الرجال إنّ هؤلاء يقولون عن أنفسهم إنّهم مؤيّدون، أحاول الاقتراب، هناك رجال

يحملون بأيديهم عصيًّا يضربون الناس بها، تتعالى أصوات إطلاق النار، وأركض إلى جانب أحد المحلّات التجاريّة، وهناك أرى تلك الوجوه الشابّة التي نزلت من الباصات يهجمون على الناس. عيون المهاجمين بيضاء أو ربّما خُيّل إليّ، رغم أنّ شمسًا مخاتلة كانت تتسرّب أحيانا وتضيء الملامح، إلّا أنّ عيونهم كانت بيضاء فارغة، ومن ثم لمحت ذلك الدم، لم أعرف كيف حدث ما حدث، وأنا أسقط بين الأقدام، وأحاول الابتعاد. حوصرت، ووجدت نفسي فجأة على الأرض. رأيت وجهًا نائمًا، نصف إغماضة للعينين. تقول جدّتي إنّ هذا النوم يسمّى «نوم الغزلان» الناس حول الوجه النائم تتدافع. أنا أقول نوم، لأنّ الموت هو نوم. الفرق بين النوم والموت أنّنا نتحلّل بعد الموت. في النوم، نستعدّ لتحلّل آخر. فرق بسيط. هل سيتحلّل هذا الوجه الشابّ بعد حين؟ كيف ستقبّل أمّه جبينه قبل أن يغمره التراب؟ يصير جلدي حجرًا. أهرب من الناس المتدافعين، ولطمة حارّة تصيب ظهري. أنظر خلفي، فإذا بها تلك العصا الجلديّة التي رأيتها في أيدي رجال الأمن، لا أعرف من أين جاءت الضربة. ألم حارق من أسفل ظهري، ينزل إلى باطن قدمي، وعيون مخيفة تحدّق بي، ركضت بعد أن استطعت الوقوف، لمحت وجه القتيل ثانية، وعلى مقربة منه كلّ وجوه القتلة. من يضرب الرصاص؟ من أين يأتي الرصاص؟ ربّما يكون هناك قنّاصة، رأسي ربّما يكون هدفًا! يصرخ شابّ ويدلّ على رجل في أعلى بناء. أمسكني شابّان وخلّصاني من المجموعة، وقالا: «الله يخلّيكي روحي يا أختي!».

الكلّ هنا ينادي النساء أختي! النساء منقّبات في الغالب والباقيات محجّبات. تذكّرت سعد الله الجابري رئيس الوزراء السوري في سنة ١٩٤٤ وكان شكري القوتلي رئيسًا للدولة، في تلك المرحلة سمحت

بعض العائلات الدمشقيّة لبناتها بالسفور، وأنشئت جمعيّات مختلطة للرجال والنساء، وعندها قامت قيامة رجال الدين وطالبوا بإيقاف هذه الجمعيّات، فذهبوا إلى الجابري وصارت هناك مشاحنات وإطلاق نار، وطلب منهم تشكيل وفد منهم لمحاورته. وفي فندق «الأورينت بالاس» في دمشق، وقف فيهم وردّ على مطلبهم بإيقاف الجمعيّات، بأن طلب منهم، أوّلاً، وقف ممارستهم ضدّ البنات السافرات، حيث كانوا يرمونهنّ بالنار، وقال للشيوخ: «يا شيخي بدّك تلبّس بنتك خيشة ما حدا بقلّك لأ، واللي بدّو يلبّس بنتو سفور ما إلك دخل فيه، مع السلامة».

حاولت أن أجد امرأة واحدة لأحاورها براحتي، لا يوجد نساء في الشارع، لكنّ هناك صراخ نساء وأصوات إطلاق نار من بعيد. عدت إلى السيّارة. كنت في نهاية يومي حينها، أعود من يومي بورق. ورق من لحم ودم وعويل ورصاص ووجه قتلة لا يعرفون إلى أين يسيرون!

شعرت بحاجة لتدخين سيجارة، فتحت نافذة السيّارة، ونفثت دخان صدري. صارت حرستا ودوما ورائي، ألم ظهري والعويل والدم في رأسي، عيون الشابّ الذي ينام نوم الغزلان. فجأة انتبهت إلى هسيس خافت، نظرت في المرآة إلى السائق الشابّ، كانت مفاجأة اليوم الأخيرة؛ رأيت دموع الشابّ، تنزل غزيرة، وهو صامت لا يقوى على قول شيء. عندها فقط سمعت صوت أسناني تسحل.

٢٠١١/٤/١٥

أيّتها الأرض المدوّرة، إنّ قلبي الصغير كقطعة فحم منزلي، أوسع من حدودك. أعرف كم أنّك ضيّقة!

كانت السيّارة تهتزّ، وأنا أفكّر بضيق الأرض، وصدري ينقبض. بالكاد أتنفّس، صور الرجال الذين ظهروا اليوم على شاشات التلفزيون، بعد أن اقتيدوا من منازلهم في قرية البيضا التي ما تزال محاصرة بقوّات الجيش، وأجهزة الأمن. الرجال جُمعوا في الساحة، وبُطحوا على الأرض، ثم رُبطت أيديهم بحبال بلاستيكيّة دقيقة تتحوّل إلى سكاكين في جلودهم. الصورة لا تفارق مخيّلتي، ورؤوسهم مدفونة في الإسفلت وظهورهم للسماء، ذكّرني هذا المشهد بفيلم «كفر قاسم» لبرهان علويّة.

مُنع الرجال من رفع رؤوسهم، ثم رُكلوا وضُربوا بشكل مبرّح، وتمّ تعفيسهم بالأقدام، وأُجبروا على ترديد هتافات مؤيّدة للرئيس، قبل أن يُؤخذوا إلى شاحنات، قادتهم إلى مكان مجهول اختفوا فيه.

الخبر يُظهر في التلفزيون الرسمي أنّهم خونة، وأنّ بحوزتهم

سلاحًا، ثم يقولون بعد ذلك إنّ هذه الصور مفبركة، بعد أن ظهرت كمقطع ڤيديو. سيقول لي صديق من بانياس بعد أيّام، إنّ ما حدث لم يكن كذلك، وإنّ بعض الرجال خرجوا للتظاهر، وردّدوا هتافات سلميّة عن الحرّيّات، بلا أيّ شعارات طائفيّة، ظهرت مجموعات وأطلقت الرصاص، وقتلت العديد منهم، واقتيد الباقي إلى السجون، وحوصرت البلدة.

لم أستطع دخول بانياس، لرؤية ما يحدث على أرض الواقع اليوم. حاولت ذلك من عدّة طرق، كان الأمر مستحيلاً، حتى عندما تجاوزنا بعض المباني لدخول المدينة والسوق القديم. كانت هناك حواجز منعتنا من أجل سلامتنا. اعتمدت على روايات الناس، والأصدقاء وعلى الصور الحقيقيّة التي التقطت، وكانت هذه إحداها، صورة لرجال منبطحين ومكبّلين. رجالٌ مذلّون مهانون: هذا اسم رواية لدوستويفسكي، أعود إلى الروايات كمستقرّي، هي عشقي المطلق.

لم يُعتقل الرجال فقط بهذه الطريقة، بل اقتُحمت البيوت، واقتيد الأطفال بالعشرات أيضًا إلى السجون. الجيش والأمن كانا يقومان بتمشيط البيضا، وهي بلا كهرباء منذ أيّام، وبلا مؤن، ممنوع الدخول إليها، والخروج منها ممنوع، ورجالها اعتُقلوا مع الأطفال، والنساء حسب ما سمعت اليوم، ومن ثم تأكّدت أنّهنّ قمن بالاعتصام مع أطفالهنّ أمام الطريق الدوليّة مطالبات بإطلاق سراح رجالهنّ. نعم هذا أكيد، ولن يستطيع التلفزيون الرسمي تكذيبه، فقد ذهبت وتأكّدت، وكانت الطريق مقطوعة، وتوقّفت الحافلات بالعشرات أمامهنّ. كانت هناك أخبار تصل عن جرحى يتمّ تعطيل إسعافهم، والنساء تصرخ مع الأطفال. ستظهر سيّدة على شاشات التلفزة، بعد ذلك بيوم، وهي تصرخ بقوّة، وتقول: نحن أهل بانياس نحن أهل الحرّيّة، وتصرخ من

ورائها النساء: حرّيّة حرّيّة. النساء كلّهنّ محجّبات، عندما سألت أحد أفراد الجيش عن القصّة، أجاب مؤكّدًا، ولم يعلّق بحرف، وكان يبدو مهمومًا، اقتربت وحاولت معرفة الأخبار منه، كان يبدو منشغلاً بشيء ما. رجل في الأربعين اقترب منّي على الحاجز الذي يصل مدينة بانياس بالقرى الجبليّة، ويتفرّع منه إلى الطريق الدوليّة، سيقول لي بعد حين إنّه ضابط من الشرطة، فعلاً كان يرتدي ثياب الشرطة السوداء، وسيضيف أنّ الناس خائفة من المسلّحين، لم يعلّق بحرف عندما قلت له: أشكّ أنّ رجال قرية البيضا كانوا يحملون كلّ هذا السلاح، وأضفت: واعتقالهم وقتلهم كان وحشيًّا؟ لم يضف، وأشار لي بالانصراف. كانت السيّارة قربي، ففتح الباب وقال بتهذيب شديد: «أرجوك يا ستّ اذهبي من هنا». وأدار ظهره. كان الغضب واضحًا على وجهه، عرفت ذلك لأنّي كنت غاضبة أيضًا. قال لنا رجل يقف على مقربة منه، بأنّ أخا هذا الضابط مات في الحافلة التي استهدفت رجال الجيش من يومين، وقُتل فيها مجموعة من الضبّاط والجنود. قلت للرجل: ولكنّ هناك من قال إنّ الرجال الذين يقتلون الجيش والناس وبعض رجال الأمن، يتحرّكون على شكل عصابات، هم أناس معروفون لأهالي بانياس؟ قال: نعم. ولكن من يردّد ذلك؟ قلت أنا قرأت عن ذلك. فأضاف وكان ذا لحية مشذّبة، قامته طويلة، نحيلاً: الكلّ يعرفهم، ولكنّ الكلّ خائف. قلت: ممّ؟ قال: العلويّون خائفون ممّا يُشاع بينهم، أنا بيتي بين العلويّين وفي حيّ علوي وأخاف أن أعود، هناك بعض الأحياء التي يسكنها العلويّون والسُّنّة معًا، وفي كلّ لحظة ستشتعل النار بينهم. قلت: ولكنّ هناك من يروّع الناس ويشعل الفتنة بينهم. قال: نعم هناك من يروّع، المشكلة أنّهم نجحوا في ذلك، وذكر لي أسماء بعض العائلات من المسلّحين الذين يروّعون الناس ويعملون عند أحد أقرباء الرئيس، وفعلاً قرأت

بعضها على النت، مع صورهم أيضًا، وأضاف اسمين منهم. قال: هؤلاء يعرفهم الجميع، ولكن من يتجرّأ ويشير إليهم. استغربت جرأته أمامي، وعرفت السبب، كان على وشك مغادرة البلد. ظهرت سيّارة بعد قليل، وانتبهت فجأة أنّه يقف إلى جانب حقيبة كبيرة، قلت: شكرًا لك. قال: «ما رح تلاقي حدا يخبّرك شيّ. الناس ما عندها تخبّر أيّ شي إلّا عن الخوف»، ثم إنّ كثيرين يصدّقون قصّة المندسّين والخونة. صمت دقائق، ثم عرّفني بنفسه، كان أستاذ لغة عربيّة، ويسافر من بانياس إلى اليونان. قلت له: الكلّ يعرف هذه القصص على النت، أضاف بيأس شديد: «ومين قلّك إنّو الناس هون كلّها بتشوف النت؟» ثم ركب السيّارة وغاب. عدت إلى السائق المتململ، وقلت له: سنحاول الدخول من مكان آخر، ممكن أن نصل إلى النساء المعتصمات. صرخ بأنّه سيتركني هنا إن لم أذهب، لأنّ القنّاصة يتوزّعون تحت قلعة المرقب وفي كلّ الجهات، وأنّ الكثير من المدنيّين ورجال الأمن ورجال الجيش، قُتلوا برصاصهم. كان الضابط الحزين الغاضب قد ضاق ذرعًا برؤيتي، فاتّجه إلينا، وصرخ: هيّا اذهبي من هنا. قلت: لِمَ تصرخ؟ قال: لأنّ الناس هنا تموت، وقد تتّجه رصاصة إليك الآن. قلت: «مين هدون القنّاصة؟» قال: شو بيعرّفني أنا؟ القنّاصة بيقتلوا الناس ورجال الأمن، والجيش أيضًا، قلت: القنّاصة هم أنفسهم جماعة الشبّيحة؟ قال: أيّ شبيحة؟ قلت: «ومين ما بيعرف الشبّيحة!» ثم غادرت خائفة، وبقي هو واقفًا في مكانه ينظر إليّ، والغضب يملؤه..

عدنا إلى الطريق الدوليّة استعدادًا للعودة إلى مدينة جبلة. كانت بانياس وراءنا.

قبل أربع وعشرين ساعة، كنّا قرب بانياس، وكان الأمر مختلفًا جدًّا، وهذا العبور الأوّل لنا عبر الجبال، علينا الالتفاف على المدينة

لأنّ الطريق مقطوعة، والجيش يحاصرها من الداخل والخارج. دخلنا عبر قرى الجبال، ولم أقتنع بما قاله حاجز الشرطة الذي قال: هناك خطر في عبور الطريق الدوليّة. قلت له: لماذا؟ قال القنّاصة تحت قلعة المرقب والجيش هناك لحماية الناس. قلت: طيّب خلّينا نروح، إذا الجيش هناك ليحمينا. قال: الطريق مقطوع، عودوا إلى الشام، أو اعبروا الجبال.

عبر الجبال، كانت هناك بهجة خجولة تنتظرنا؛ انفجار أخضر في الجبال والوديان، وعندما نتحرّر من الاخضرار تبرز تربة بطبقات متفاوتة الحمرة، قرى يقطنها مسيحيّون وعلويّون، وتحت هذه القرى قرى من الطائفة السُّنِّيّة، أقرب إلى البحر، بعد أن تجاوزنا قرى ضهر صفرا وقرقفتي، كانت قرية «البيضا» تحتنا مباشرة، المحطّة الحراريّة، المصفاة، ووديان عميقة. اللجان الشعبيّة التي يشكّلها قوّاد الفرق الحزبيّة البعثيّة تنتشر مع رجال الأمن والعسكر. صبي في الخامسة، وقف حاملاً عصا خشبيّة على ظهره كبندقيّة، بشرته محروقة، لكنّ عينيه تبرقان، وغرّته العسليّة طويلة تحجب جبينه، كان يبدو كلوحة، ابتسمتُ، وأعطيته هويّتي، نظر إليها بصرامة، ثم ردّها إليّ. وأشار بالمتابعة. قلت مغالبة ابتسامتي: أنت مع مين؟ ردّ: أنا معك! كانت ضحكتي الأولى منذ أيّام طويلة حين بدأ سفك الدم في المدن والقرى، ضحكت بصوت عال، غمزت له بعيني، ومرّت السيّارة.

الحواجز التي تعكس خوف الأهالي لم تكن تشكّل عبئًا بالنسبة لي، فأنا أفهم خوفهم وأصدّق ما رووه لي عن العصابات المسلّحة التي خوّفتهم، وأطلقت النيران في وديانهم وقممهم، لكنّ السؤال: من هي تلك العصابات؟ قلت لأحد القرويّين، وأغلبهم من البسطاء والفقراء والمذعورين: «أنا أظنّ أنّ القصّة ليست كما يُقال». نظر إليّ بعينين

مدهوشتين، وقدّم لي كأسًا من «المتّة» بعد أن تركت السيّارة وجلست معه أمام مصطبة بيته: «لأ يا بنتي إنتي ما بتعرفي، هودي بدهن يقتلونا.. الجيش هون ليحمينا». قلت: «بس إنتو بتحموا حالكن» قال: «معليش الجيش بالخطوط الأماميّة ونحنا بالخطوط الخلفيّة» قلت له: «وين النسوان وليش ما في حركة بالضيعة؟» قال، بعد أن خبط على جنبه بيده المتورّمة العروق: «نحنا منحمي الضيعة هون ومنخاف على نسوانّا». قلت له: «سمعت أنّ من يقتل الناس ويروّعها هم من الشبّيحة»، وصمتّ. سكت وقال: «يكونوا مين ما كانوا، والله ما بيقرّبوا على بيوتنا إلّا على جثثنا».

كان أهالي القرى في حالة استنفار وقلق، ومع وجود حواجز التفتيش. كانت الجبال تبدو كأنّها في حالة حرب، وهذا الأمر لا يبدو واضحًا إلّا في المنطقة التي تُحيط بمدينة بانياس الآن، لكنّ اللجان الشعبيّة في غالبيّة قرى الساحل تسهر في الليل لحماية القرى، خوفًا من المسلّحين. الحواجز التي تتألّف من عدّة أطياف: رجال الأمن، الجنود، الأهالي من البعثيّين. كانت تفتّش الناس بكثير من الاحترام والحذر. قلت لضابط، بعد أن اجتزنا عدّة حواجز، هناك سيّارة وراءنا، رأيت شابًّا فيها يلعب بمسدّس وقد اجتاز عدّة حواجز، فما فائدة كلّ هذا التفتيش؟ طلب الضابط منّي البقاء إلى جانب الطريق، حتى مرّت السيّارة، التي كانت وراءنا منذ بداية طريق الجبال. كان فيها أربعة شباب يلعبون بمسدّساتهم وأشكالهم التي أعرفها والتي بدأت تظهر مؤخّرًا في دمشق؛ وجوه القتلة صرت أعرفها. أوقفهم الضابط، وطلب منهم النزول. السائق لم يستجب في البداية وكاد أن يدهس العسكري، لكنّ الضابط أوقفه، فنزلوا بطريقة استفزازيّة، إنّهم هم! لديّ حاسّة سادسة لا تخطئ في معرفة وجوههم، بعد أن انتشروا في شوارع دمشق

واللاذقيّة: العضلات المنفوخة، الوشوم، الصدور العريضة، ثم نظرة الاستعلاء والموت. تحدّث الضابط معهم، وقامت العناصر بتفتيشهم، رمقني أحدهم بغضب، خفت، فقد أخبرت حاجزين من قبل عنهم، يبدو أنّهم عرفوا بذلك. الضابط سمح لهم بالمتابعة، وأنا فوجئت. صرخت: «أنتم تفتّشون حتى ملفّات كمبيوتري وفي حقائبي وتتركون هؤلاء المسلّحين». قال الضابط بهدوء: «امشي في طريقك مدام، هدون بمهمّة أمنيّة».

سمعت زعيق سيّارتهم، التي تشبه صياحًا، وغيمة غبار رافقت سيّارتهم التي انطلقت بجنون، وتدافع الناس من أمامها حتى لا تصدمهم. صرخت: «هدون مجرمين.. ومعهم ثلاثة مسدّسات» أدار ظهره، وتركني مع عناصره. العنصر الذي كاد يُدهس بسيّارتهم، كان غاضبًا، اقترب منّي وقال: «تيسّري أختي، هي شغلات مالنا نحنا دخل فيها».

كانت البيضا أكثر وضوحًا من قبل. هنا سيذكر التاريخ، بعد أزمان، أنّ بشرًا قُتلت واقتيدت كبهائم إلى السجون، وأنّ نساءً خرجن للدفاع عن أزواجهنّ وأولادهنّ، وأنّ أطفالاً صرخوا وهم يُعتقلون، وأنّ دماءً سُفحت على الطرقات، وتُركت الجثث مشرّعة للهواء.

أنظر بِوَلَه إلى المكان. البيضا تحتنا مباشرة، أستطيع تخيّل ما حدث، بانياس تحجبها البيوت البلاستيكيّة التي تمتدّ على طول الخطّ الساحلي، وتلوّث الهواء والبحر. الناس خائفة مذعورة، لم تعد تفكّر فيما يحدث، صار يهمّها الأمان فقط في العيش، اختلطت الحوادث، صارت هناك قصص وإشاعات تسري بين الناس، الخوف من الذلّ القديم الذي عاشه العلويّون، الخوف من التشرّد والاضطهاد، جعلهم يقتربون من رواية النظام، وجعلهم مدفوعين وراءه بكلّ ما يملكون،

كانوا فقراء، ويصدّقون ما يُقال لهم، ولم يعتادوا منذ عقود طويلة هذا الرعب، القلّة منهم كانت ضدّ ما يحدث من عنف وقتل، وصاروا ينبّهون الناس في بانياس أنّ القصّة لا علاقة لها بالطائفة السُّنّيّة فقط، وإن خرج الإسلاميّون للتظاهر، فقد خرجوا بشكل سلمي، ولم يطلقوا النار على أحد، وهم أنفسهم انضمّوا إليهم، بعض من هؤلاء العلويّين تعرّضوا لاضطهاد مضاعف من أجهزة الأمن التي قامت بتخويفهم، وشوّهت سمعتهم، واعتقلت بعضهم، وهدّدت البعض الآخر بفضائح أخلاقيّة، وكانت المصيبة الكبرى في مقاطعة أبناء طائفتهم لهم، وتخوينهم، واضطرار بعضهم للخروج من بانياس تحت الضغط.

(المسلّحون الذين استدلّ عليهم بعض أهالي بانياس، والذين أطلقوا النيران، وكانت فوق أبنيتهم تنتشر القنّاصة، تدخّلوا في اعتقال أهالي البيضا، وهم من جعل الناس يصدّقون أنّ هؤلاء المعتقلين هم خونة ومندسّون ويريدون ذبح العلويّين، ولكنّ الأمر لم يكن هكذا، ربّما الصحيح أنّ ما حدث أيقظ الحسّ الطائفي في بانياس، وحوّلها إلى جحيم، ولكنّ البداية كانت من هؤلاء الشبّيحة، وهم أنفسهم من صار يطلق النار على المآذن في الجوامع) الكثير من العلويّين في بانياس رووا لي هذه الحوادث، بعد أن تركوا بيوتهم هربًا من التنكيل.

اليوم هو «جمعة الإصرار»، قُتل فيها أكثر من ١٥ شخصًا في اللاذقيّة، وفي دمشق يقطع رجال الأمن أوصال الشوارع والساحات بحواجز أمنيّة وعسكريّة، خاصّة في ساحة العبّاسيّين، والأمن يطلق النار على المتظاهرين القادمين من جوبر، بعد انضمام أهل دوما وحرستا إليهم، ويمنعهم من الوصول إلى ساحة العبّاسيّين. وفي مدينة درعا رغم تظاهر مئات الآلاف، لم يطلق الأمن النار على المتظاهرين. يُسقط أهالي «الرستن» تمثال حافظ الأسد الذي يُعدّ الأضخم في سورية، وفي

اللاذقيّة يحاول رجال الأمن الدخول بين المتظاهرين، وعندما يعترض المتظاهرون على وجود أسلحة معهم يقولون إنّهم يحملونها للدفاع عن أنفسهم، ولكنّ الشباب يقبضون عليهم ويتّضح أنّهم من رجال الأمن، يريدون الإيحاء بأنّ التظاهرة مسلّحة، والأمن والجيش يقومون بتكسير المحلّات، وتُحاصر مدينة الضمير، والأمن ينتشر فيها بكثافة. ضاحية دوما ما تزال محاصرة، والمزيد من الاعتقالات التي لا تتوقّف يوميًّا.

الآن بانياس فارغة، الشوارع خالية، المحلّات مغلقة، الكثير منها تكسّرت، مبنى البلديّة أُحرق، ومبنى البريد، سوف يطلب الأهالي من الجيش في اليوم التالي أن ينتشر، وأن يخرج الأمن من الموضوع، وستبقى الدبّابات تنتشر حول المدينة، وعناصر الجيش تتوزّع في كلّ الشوارع. الخوف من أن تندلع المواجهات الطائفيّة في أيّ لحظة، فقد نجح النظام في تصوير ما حدث وكأنّه يوحي ببداية فتنة طائفيّة، وأنّ من واجب النظام قمعها، رغم أنّ الكثيرين من أهالي المدينة يعرفون أنّ الأمر لم يكن كذلك، وأنّ وراء ما حدث أيد خفيّة أرادت تحويل التظاهرات السلميّة التي خرج بها أهالي المدينة من الجامع إلى خيانة قام بها بعض المسلّحين المتآمرين مع عناصر خارجيّة، ربّما كان هذا هو السبب الوحيد الذي وجده النظام لتبرير قتل أبناء بانياس، ومن يقتل الجيش؟ ورجال الأمن؟ القنّاصة، من هم القنّاصة؟ ربّما معرفة من يقف وراء هذه الأعمال واضحة، لكنّ الكيفيّة تبدو غامضة، كلّ هذه الأفكار التي تأتي وتروح، وأنا أصل إلى مدينة جبلة يزيد غضبي، وألمي ومرارتي، لكنّ السعادة الصغيرة التي حظيت بها، بعد هذه الرحلة الكابوسيّة بين الجبال والوصول بأمان، جعلتني أفكّر أنّ الوقت قد حان للتفكير باستراحة. لم أكن أعرف أنّها ستكون زيارتي الأخيرة لمدينة جبلة.

لقد عبرت أمام الموت الآن، وأستعدّ لرؤية موت جديد.

٢٠١١/٤/٢٩

في درعا المحاصرة كرات من الصقيع تختلط بأصوات إطلاق رصاص، وليس بعيدًا، أمام الفاجعة كانت ثمّة أرض محاصرة، أرض موؤودة، حُوصرت وطارت في السماء، مثل لوحة لدالي تسبح في العتمة، يموت جرحاها أمام أمّهاتهم ببطء، فتلفّ أصابع الأمّهات المرتجفات الدماء بشراشف منزليّة مثقوبة، وقبل أن يطبق الشهداء جفونهم، ترطّب الأمّهات حلوقهم ببضع قطرات مياه، وأمام الساحات تتوزّع جثث شابّة، يرقبون تحلّلها وراء النوافذ. روائح الأجساد في الظلمة بعد أن قُطعت عنهم الكهرباء، تجعلهم يحدّقون في تلك الأجساد التي كانت يومًا حبيبة تنبض بالحرارة، ثم صارت غبارًا.

هناك، وليس بعيدًا عن نافذتي حيث سقطت كرات الصقيع، وحيث صار قلبي قطعة خردة أمام عجزي، كانت مدينة درعا تموت ببطء تحت أعين العالم كلّه، وتحت بصرنا جميعًا، نحن من ننام ونلتحف طمأنينة أولادنا. هناك شعرة كاذبة تفصل بين الألم وافتراض الألم، مهما قلنا إنّنا نشعر بأسى الأمّهات سنكذب، الألم يأتي بعد اللحظة الآنيّة له،

الألم ليس محض صدفة الآن!

هناك، ليس بعيدًا من دمشق، ساعة فقط في السيّارة تكفي لنكون وجهًا لوجه أمام فاجعة تشبه روايات نقرأ عنها، ولا نصدّق أنّها تحدث على هذا القرب منّا. عائلات بكاملها تُحاصر بالدبّابات والجنود والقنّاصة. عائلات بنسائها تختفي في بيوتها، ترتجف وترتعد من وقع أصوات إطلاق الرصاص. الرصاص لا يتوقّف، وكلّ من يخرج من بيته هو مشروع شهيد. الجثث التي تنتشر أمام الجامع العمري في درعا لم تجد بداية من يقوم بدفنها، صارت الأصوات تخرج من المدينة وتناشد السلطات بالسماح لأهل الشهداء بدفن موتاهم. أمّا الجرحى الذين يبقون في البيوت خوفًا من الإجهاز عليهم في الخارج، فتنزف دماؤهم دون أيّة مساعدة. الخبر الذي تأكّدت منه أنّه تمّ تفجير وحرق عدّة صيدليّات، لماذا يحرقون الصيدليّات؟ حتى لا يستطيع الأهالي إسعاف الجرحى! بعض الأهالي هربوا من المدينة ونزحوا وعبروا الحدود اللبنانيّة والأردنيّة، تاركين وراءهم الموت والدمار. كيف سيطلع هذا النهار على هذه المدينة؟ هل سيخرج المتظاهرون في يوم الجمعة؟ جمعة الغضب التي دعا إليها المتظاهرون في كلّ أنحاء المدن السوريّة؟ هل سيجرؤ أحدهم على تجاوز عتبات البيت، وفوّهات الدبّابات والرشّاشات والقنّاصة تحيط به من كلّ الجهات؟

في دمشق، الجمعة الماضية، كانت العاصمة مدينة أشباح. ليست هي دمشق!

رغم الدعوات التي طالت المدن السوريّة وخروج الناس، ومقتل الكثير من الشباب، إلّا أنّ أجهزة الأمن كانت تنتشر في جميع الساحات، كانت أعداد الأمن ورجاله ومعدّاته بالآلاف.

في ساحة العبّاسيّين، تُغلق الطريق المؤدّية إلى جوبر. كنّا في السيّارة، أنا وصديقتي، استغربنا هذا الهدوء المميت، ودرنا حول الساحة، الأمن فقط كان يتجمّع، لم يبدأ وقت التظاهر بعد، كانت صديقتي تقود في شوارع دمشق ونبحث فيها عن وجه حياة، خانتني عيناي، وبكيت عندما رأيت المدينة فارغة إلّا من صيحات الموت، وتلك العيون القاتلة التي تجتمع، عيون الشباب الذين نزلوا من باصات النقل الداخلي التابعة للحكومة، كانوا يحملون العصيّ والجنازير، أفكّر دائمًا أنّي عشت في سورية أربعين سنة ولم أرَ شبهًا لهذه الوجوه، للسحنات القاتمة، وللأجساد الخشبيّة المتصلّبة، والعيون الحاقدة، هل كانت أربعون سنة كافية لخلق هذه الأجيال الخائفة القاتلة؟

في مرورنا الثاني بعد الظهر على الساحة، كان الوضع مختلفًا في ساحة العبّاسيّين، كانت أعداد الأمن تتزايد، حتى في الشوارع الفرعيّة، وكانت السيّارة التي تعبر بنا تلفّ حول الساحة والحواجز الأمنيّة تغلق طريق جوبر. رأينا تجمّعات كثيرة، وقيل إنّ هناك إطلاق رصاص. أثناء جولاتنا في المدينة لم نسمع إطلاق الرصاص، لكنّي في اليوم التالي وعندما التقيت بصديقة، حاولت الاستفسار منها عمّا حدث في الزبلطاني قرب ساحة العبّاسيّين، أخبرتني أنّها كانت هناك، ورأت مجموعة من الشباب المسيحيّين يقفون أمام عناصر الأمن ويتظاهرون، كانوا قلّة لم يتجاوزوا العشرات، أحدهم خلع قميصه وفتح صدره أمام رشّاشات رجال الأمن، وقف حوالى دقيقة قبل أن ينطلق الرصاص عاليًا ويهوي الشابّ. سألتها ماذا حلّ به؟ قالت إنّ رجال الأمن، ورغم أنّهم كانوا يراقبونهم من بعيد ومن وراء شرفة إلّا أنّهم قاموا بإطلاق النار، وطلبوا من الجميع الدخول، وهرب الباقي من الشوارع، وبقيت الساحة فارغة إلّا من رجال الأمن وأصوات إطلاق الرصاص وأجساد خمسة شباب

سقطت على الأرض. سيظهر خبر على التلفزيون الرسمي يقول إنّ أجهزة الأمن ألقت القبض على خمسة مخرّبين قُتلوا أثناء الاشتباك معهم.

ما هي اللحظة الفاصلة بين انطلاق رصاصة ووصولها إلى الصدر العاري؟

ما هو الحوار بينهما؟ الشابّ الذي فتح صدره للموت، بماذا كان يفكّر؟

كم يلزمني من الزمن لأفهم لغة الحياة؟ كم يلزمني من الحزن لأستوعب هذا الدم الجديد في بلد يرزح تحت جنون القتل. هل يخيفهم صدر شابّ عارٍ أعزل وقف أمامهم، ولم يتفوّه بحرف.

الرشّاش الذي قتله وقتل رفاقه، ماذا فعل بعد تلك المهمّة؟

أسئلة وأسئلة، لكن، في تلك الظهيرة، كنّا في السيّارة نتّجه إلى برزة، وقبل أن نصل، ظهر أمامنا حاجز. كان حاجزًا مختلفًا، لم يكن هناك الكثير من الرجال، خمسة رجال بأعمار مختلفة، واضح أنّهم ليسوا من الأمن، لكنّهم تقدّموا باتّجاهنا برشّاشاتهم، رغم أنّ شكل السيّارة كان يبدو بعيدًا عن أيّ شبهة، إلّا أنّ أحدهم، وكان شابًّا لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وجّه رشّاشه مباشرة إلينا، عيناه قاتلتان. ارتجف قلبي، وعدنا بالسيّارة. خلف هذا الحاجز كان هناك قتلة ورصاص، ولم يُسمح لنا بالدخول إلى برزة.

كان هذا الجمعة الماضية، وكنت على وشك تدوين هذه اليوميّات، لكنّ الألم منعني، كنت أكثر توتّرًا من التفرّغ للكتابة، أتنقّل بين بيوت صديقاتي، هاربة من بيتي حتى لا يتمّ اعتقالي، وأجهزة الأمن تعدّ المزيد من التقارير الكاذبة عنّي وتبثّها في مواقعها الإلكترونيّة، صار صعبًا عليّ الذهاب إلى جبلة أو التحرّك في اللاذقيّة.

تحوّلت إلى خائنة للطائفة، لأنّي كنت إلى جانب المتظاهرين، كتبت مقالين عن حركة الاحتجاج، وتحدّثت عن ممارسات العنف والقتل والاعتقال التي تقوم بها أجهزة الأمن، وكان الردّ هو إطلاق مقالات في موقع مخابراتي تتحدّث عن علاقتي بجهات خارجيّة أميركيّة، الحجّة الجاهزة لدى أجهزة الأمن للقضاء على أصحاب الرأي. كنت محاصرة بين قلقي وابنتي وأهلي الذين صاروا تحت التهديد مباشرة، وتحت الفضيحة في الضيعة لأنّ النظام أوحى لهم أنّ ابنتهم خانت طائفتها وخانت وطنها. لم أستطع الكتابة. الأخبار اليوميّة عن القتل أكثر حضورًا من أيّة رغبة، ومن ثم أخبار اعتقالات الأصدقاء، وكانت الفاجعة التي انتهت أخيرًا بحصار مدينة درعا، الذي استمرّ حتى هذا اليوم، يوم جمعة الغضب.

أفقت على صوت ارتطام كرات البرد بالنافذة، كان الوقت مبكرًا، عدت إلى بيتي، كان يجب أن أعود رغم تهديدات رجال الأمن، ورغم الإشاعات التي انتشرت بين العلويّين عنّي، وهذا يعني تحريض كلّ واحد من أبناء الساحل ضدّي. كان يجب أن ألزم الهدوء لأضمن أن تكون ابنتي بخير بعد أن تمّ تهديدي بها، لكنّي قرّرت أن تكون تحرّكاتي مع شباب الانتفاضة على الأرض أكثر فاعليّة، سواء في التظاهرات أو في المساعدات التي يحتاجها الشباب الذين تخفّوا ليعملوا مع الانتفاضة، بعد أن تمّت ملاحقتهم من قبل أجهزة الأمن. كانت هذه الأيّام بحاجة لكثير من الجهود، خاصّة مع سياسة التجييش الإعلامي التي لجأ إليها النظام. كنّا بحاجة لأصوات تنقل إلى الإعلام صوت ما يحدث، لكنّ أغلب الشباب كانوا معتقلين، أو يتمّ اعتقالهم مباشرة بعد أن يظهروا على أيّ شاشة فضائيّة.

اليوم الحدود السوريّة مع الأردن مغلقة منذ خمسة أيّام. السلطات

السوريّة أغلقتها، وتوقّفت الحياة الاقتصاديّة بين درعا والرمثا، خمسون شهيدًا في أسبوع واحد، وما زالت الأخبار غامضة، وتحت وطأة الأمن والعسكر والشبّيحة يعيش أهل درعا في غموض وظلام، الأخبار عنهم غامضة، لكنّ رائحة الموت واضحة. منذ يومين ظهر ابن عضو مجلس الشعب وبكى على شاشة التلفزيون وقال: «مهما كان ما يحدث في درعا لماذا تقطعون الكهرباء والماء وتجوّعون الناس، لماذا لا تسمحون للناس بدفن موتاهم، لماذا لا تنقذون الجرحى؟». طبعًا كان واضحًا أنّ النظام يريد تأديب سورية كلّها بدرعا، حتى لو اضطرّ إلى إبادتها عن بكرة أبيها.

هذه الظهيرة ننتظر الأخبار. الجيش يطوّق دمشق، شاحناته وعساكره تقوم بدوريّات حول المدينة، داريّا عُزلت عمّا حولها وأخبار نسمعها عن انقطاع كهرباء، وأهل داريّا يخشون من انتشار قنّاصة على الأبنية في الليل. الجيش ينتشر بكثافة على الحدود الأردنيّة واللبنانيّة. الجيش يدخل عدّة مدن بكثافة والآن الساعة الثانية ظهرًا تظاهرات في عامودا واللاذقيّة ودائمًا هناك أخبار عن إطلاق الرصاص. وما زلت أنتظر.

أجلس في البيت إلى جانب ابنتي بعد أن قضت في القرية أسبوعين. تقول لي بهلع «سيقتلونك، هم قالوا في القرية سيقتلونك، الكلّ قال ذلك، الكلّ سبّك وشتمك. وفي جبلة وزّعوا منشورات عنك تتّهمك بالخيانة»!

أؤكّد لها أنّي لن أغادر البيت، وأنّي سأبقى إلى جانبها. كانت تتابع زفاف الأمير «وليام وكيت» ببهجة، أحاول معرفة أخبار المدن السوريّة من الإنترنت، فتطلب منّي ترك الكمبيوتر والجلوس إلى جانبها، كانت تبكي وتتّهمني بالتخلّي عنها، وكنت أصمت أمامها، أحاول أن

أشرح لها ما حدث معي، وبأنّ ما فعلته الأجهزة الأمنيّة من التشهير بي والتحريض على قتلي هو لإسكات صوت الحقّ، وعندما تجادلني أنّ الأمر لا يستحقّ التضحية بحياتي، وأنّها لا تملك في العالم أحدًا سواي، أصمت وأبكي في غرفتي، لا أريدها أن ترى دموعي، وهي تستمرّ في صراخها، تركتها تصرخ طوال الوقت، فأنا أعرف حجم الضغط الذي تعرّضت له في القرية وفي جبلة.

الآن في المدن السوريّة الأمن يمنع الناس من الوصول إلى ساحات التظاهرات. في حمص الأمن يطوّق حيّ البيّاضة ويمنع الناس من الحركة.

في القامشلي الناس يخرجون ويتظاهرون، وفي حيّ الميدان في دمشق، يخرج الناس من الجامع. كانت هناك قنابل مسيّلة للدموع، وعشرة باصات كلّها من عناصر أمن ضربوا المتظاهرين الذين توزّعوا في الحارات وهتفوا للحرّيّة ولفكّ الحصار عن مدينة درعا. لم يحملوا أيّ سلاح. كانوا حوالى ألف متظاهر، لكنّهم تفرّقوا بسرعة بسبب الضرب العنيف، وبسبب قنابل الغاز المسيّلة للدموع.

أرجو أن يكون هناك القليل من الدماء، كلّ جمعة أكون على موعد مع الألم، ليس الألم بوصفه محرّضًا فقط، بل الألم الذي يجعلني لا أنام، منذ بدأت الانتفاضة أنام بالحبوب المهدّئة؛ «الإكزاناكس».

الآن ورد خبر من درعا: إطلاق نار كثيف، والقنّاصون ما يزالون يعتلون الأبنية، لا يستطيع إنسان التحرّك، وهناك قطع للطحين عن درعا. لماذا يفعلون ذلك! حتى الخبز سيقطعونه بعد الكهرباء والماء والأدوية! هل سيتركون الناس تموت جوعًا؟ كلّ الشهود الذين يظهرون يؤكّدون أنّ القنّاصة يقتلون كلّ من يتحرّك في المدينة. في ضاحية سقبا

قرب دمشق أيضًا تخرج تظاهرات حاشدة تطالب بإسقاط النظام.

تمطر بشدّة الآن في دمشق، وأخبار عن تعزيز الجيش الأردني لقوّاته بالقرب من الحدود. ما زال قلبي في باطن كفّي.

ما زلت أدور في بيتي كمجنونة، أشعر بالعجز، لا أستطيع الخروج إلى الشارع، والنت انقطع، ولا أخبار عمّا يحدث في العالم الخارجي، كرات البَرد تضرب زجاج النوافذ. ينقبض قلبي، أشعر بالضياع، يستمرّ هطول البرد. حبّات البَرد كبيرة، أفكّر بالمتظاهرين تحت وابل البَرد هذا، وفجأة تصلني رسالة على الموبايل من صديقة طفولة، تقول فيها: أيّتها الخائنة، حتى الله مع الرئيس وأنت تستمرّين في ضلالك.

لا أردّ على الرسالة.

يعود النت أخيرًا.

المظاهرات تعمّ المدن السوريّة. الكلّ يهتف بالحرّيّة والإطاحة بالنظام.

مدخل دمشق الجنوبي يُغلق والجيش يُعيد انتشاره في المعضميّة. أهالي حمص يرفعون أغصان الزيتون، كلّ الأخبار تقول إنّ الناس خرجت للتظاهر رغم الجوّ العاصف. ولكنّي متوجّسة، فأخبار القتل لم تصل حتى الآن، رغم أنّ أخبار إطلاق النار الكثيف تصل من حيّ الصليبة في اللاذقيّة. كم من الدم السوري سيسفح اليوم؟ هذا الشعب العظيم الذي يخرج للموت لن يعود إلى مكانه. هذه الرسالة وصلت اليوم. الشعب السوري لن يعود إلى ما كان عليه من قبل. الجديد أيضًا أنّ دمشق خرجت كلّها، بقلبها وريفها. الأخبار ما تزال غير واضحة. لكنّ الأكيد أنّ الناس خرجت بكثافة إلى الشوارع وحملة اعتقالات

واسعة تقوم بها الأجهزة الأمنيّة.

هذا اليوم لن يمرّ بدون دماء، هكذا خمّنت، لكنّي رجوت أن يحدث العكس. الأخبار من مدينتي جبلة تصل عن خروج النساء والرجال، وعن وجود قوّات من الفرقة الرابعة، وعن سيّارات إطفاء، تلك الشوارع التي كبرت فيها، ما الذي يحدث فيها الآن؟ أعرف ما الذي سيفعله الشبّيحة وأزلام النظام، من أجل إثارة العلويّين على السُّنّة، سيقومون بإطلاق النار على العلويّين لإيهامهم أنّ المتظاهرين يريدون قتلهم. كنت أنتظر في كلّ لحظة اندلاع تلك الحرب الأهليّة في جبلة، حتى الآن لم يحدث ذلك، لكنّ النظام لن يتوانى عن افتعالها في أيّ لحظة، ربّما هم يؤخّرون اللعب على خوف العلويّين لإثارة الفتنة.

الآن يأتي الخبر الأكيد عن خروج مدينة حلب، المتظاهرون في حلب يخرجون، وهذا أمر سوف يخيف النظام السوري، نظرًا لأهمّيّة مدينة حلب التجاريّة والاستراتيجيّة. أنتبه إلى خبر خروج المتظاهرين في مدينة حماة. المدينة التي ما تزال تحمل الكثير من الذكريات عن الموت والدمار في بداية الثمانينيّات منذ عدّة عقود.

بدأت أصابعي ترتجف، وأنا محاصرة هنا في بيتي، كنت أريد الخروج إلى الشوارع، لكنّ دموع نوّارة تمنعني، الآن يجب أن أجعلها تشعر بالأمان قليلاً، فقط لو قليلاً. فلم يكن أحد ليشعر به وسط هذا الخوف اليومي الذي نعيشه.

كنت أفكّر أنّه يجب ألّا أطيل المكوث هنا كثيرًا، خلال يومين يجب أن أنتقل إلى بيت وسط العاصمة.

القنوات العربيّة وغير العربيّة تنقل زفاف الأمير وليم وكيت، سأنزل

لأجلب بعض الأغراض للمنزل. قلت لابنتي إنّي سأغيب عنها ساعة، دورة سيّارة في شوارع دمشق فقط. صرخت وهي على وشك البكاء: «ما بتطلعي! بعرف وين رايحة»، ثم طفرت الدموع من عينيها. أستجيب لها، وأجلس بجانبها.

أنتظر حتى نهاية اليوم، وأعرف أنّ عدد المتظاهرين الذين قتلوا اليوم ٦٢ شخصًا.

٢٠١١/٤/٣٠

المدن السوريّة كانت محاصرة، في نوى قطعوا الماء والكهرباء منذ يومين، والآن بدأ التهديد بحدوث كارثة إنسانيّة. الناس بدأت ترسل نداءات استغاثة من أجل الأطفال الذين قد يقضون جوعًا. كان هذا منذ البارحة، وأخبار إطلاق الرصاص الحيّ على الناس ما تزال تطنّ في أذني.

لست بخير أيضًا هذا النهار. اتّجهت لرؤية أحد الأصدقاء من مدينة بانياس، كنت أريد سماع مادّة حقيقيّة منه. ترك بيته وأهله، لأنّه من العلويّين الذين وقفوا إلى جانب التظاهر السلمي في بانياس. يسكن صديقي في المزّة مع زوجته في غرفة صغيرة، كان محاميًا وزوجته موظّفة وهو صديق قديم، وكنت أشعر بالضغط الممارس عليه لأنّي عانيت ما يشبهه، ولو كان بالنسبة لي بشكل أكثر إشهارًا من الناحية الإعلاميّة، وأكثر تشويشًا وتحريضًا على القتل. أهالي بانياس من العلويّين اعتبروه خائنًا، ولكن، بالنسبة لي، كان غالبيّة علويّي سوريّة يعتبرونني خائنة. عندما دخلنا في أزقّة حيّ «المزّة ٨٦» شعرت برعب، أعرف أنّ أغلب

سكّان هذه المناطق هم من العلويّين الذين تمّ تجميعهم في الثمانينيّات من قبل شقيق الرئيس رفعت الأسد وحوّلهم إلى سرايا الدفاع، وهي المجموعات نفسها التي قامت بمجازر في حماة وفي سجن تدمر. قلت لصديقتي التي ترافقني: لو يعرفونني لمزّقوني! قالت: هنا، في هذا الحيّ، يسكن الأكراد مع العلويّين، ولن يعرفك أحد. كنت مرهقة أكثر ممّا ينبغي، بدأت أشعر بالوهن والضعف في جسدي، كانت هناك مظاهرة هذا النهار قامت بها خمسون امرأة أمام البرلمان السوري، وطالبن فيها بفكّ الحصار عن درعا، وقام الأمن باعتراضهنّ واعتقل بعضهنّ، وأخبار القتل ما تزال تأتي من درعا؛ قصف مدفعي على المدينة، وستّة شهداء جدد، وصور أتابعها عن جثث أطفال ونساء، وضعوا في برّاد حافظ للخضار. صور تأتي من درعا، وأخيرًا أخبار الاعتقالات، لكنّ الأكثر قلقًا بالنسبة لي كان الإحساس بإحباط بدأ يتسلّل إلى قلبي، وإشارات الحياة التي أخبرتني أنّ الوضع في سورية سيستمرّ طويلاً، وأنّ هناك الكثير من الموت والقتل والدم، سيحصل قبل أن يسقط النظام، أو قبل أن يحدث أيّ أمر جنوني آخر. أنا خائفة من التهديد الأخير، ودخول صفحتي إلى موقع الفيسبوك وحذف التعليقات، ثم التلويح بإيذاء ابنتي. كنت وصلت إلى مرحلة قرّرت فيها البقاء في البيت وكتابة هذه اليوميّات لمعرفة كيف بدأت الانتفاضة. صار خروجي مع المتظاهرين أمرًا مستحيلاً، لكنّ كلّ ذلك لم يكن يعينني على مصيبتي بالإحساس بالعجز، وليس بيدي سوى تدوين ما حصل في بانياس. أيضًا كان لديّ غدًا موعد مع صحافي استطاع اختراق حصار درعا، وأكّد لي أنّه سيعطيني كافّة المعلومات عن اليوم المشؤوم الذي بدأت فيه المذابح.

اليوم غائم، وهذا كفيل بتعديل مزاجي. كنت أتخيّل في أيّ لحظة

أنّ هناك من سيقتحم البيت في غيابي ويقوم باختطاف ابنتي كما هدّدوني. قرّرت أن لا أطيل البقاء عند صديقي الصحافي الذي سأسجّل شهادته.

رغم الظهيرة، بدت دمشق مدينة بائسة، كان رجال الأمن ما يزالون يتوزّعون في شوارع المدينة والحواجز الأمنيّة على الجسور وفي مفارق الطرقات، وحول الأبنية الحكوميّة. وكان ثمّة ترقّب وحذر في وجوه الناس، وشيء ما يوحي بالعجلة والإسراع، الكلّ يريد الوصول إلى بيته أو المكان الذي يقصده، فبعد حوادث إطلاق النار العشوائي في المدينة أُصبنا بالرعب، والسيّارات التي تحمل مسلّحين وتطلق الرصاص من الممكن أن تمرّ في أيّة لحظة، تطلق النار بشكل عشوائي على الناس، وتختفي، كأنّها لم تكن.

جلسنا في البيت المكوّن من غرفة واحدة. كانت جلسة مؤلمة، ولم يستطع صديقي المرهق أن يروي الكثير، لكنّي دوّنت عن لسانه ما يكفي لمعرفة كيف بدأت الأحداث في مدينة بانياس. قال «د. س»:

«انطلق المتظاهرون من جامع الرحمٰن في بانياس، كان هذا يوم ٨ آذار، حيث دعا «أ. ش» الناس بعد صلاة الجمعة لخروج الجميع ضدّ الاستبداد والمطالبة بالحرّيّة. خرج حوالى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ رجل من باب الجامع، وأثناء سيرهم أمام الجامع اعتقل ثلاثة أشخاص من قبل الأمن الجنائي وساقوهم إلى قسم الشرطة، فاتّجه المتظاهرون إلى قسم الشرطة القريب من كراجات النقل للمطالبة بإطلاق سراحهم. وأثناء نزولهم تدافع الناس من الشارع، وتوجّهوا إلى الكراج وكسّروا الباصات. حاول المتظاهرون منعهم من التخريب واعترضوا هؤلاء الزعران، وقاموا بالحال بفتح باب التبرّعات للتعويض عن أصحاب الباصات، وتمّ جمع مبلغ وعوّضوا أصحاب الباصات المتضرّرين عمّا تضرّر لهم. كان هؤلاء

الزعران من السُّنّة، وكسروا باصات العلويّين وانتهت الأمور هنا في أوّل مظاهرة.

عند هذه النقطة بدأت عناصر من الأمن بالتحريض الطائفي، وخرج بعض أزلام النظام وشبّيحته، المعروفين بطائفيّتهم، وبدأوا يشيعون أنّ السُّنّة هجموا على محلّات العلويّين في بانياس، وسوف يحرقون الأخضر واليابس وخاصّة في حيّ القصور، وبدأت الاتّصالات ببعض الزعران في جبال العلويّين. وصل قسم كبير منهم إلى مقرّ الأمن السياسي الذي يقع على تماسّ بين أحياء العلويّين وأحياء السُّنّة، وقاموا ببعض الاستفزازات والتهديدات، كان هناك قرار من الأمن السياسي يمنع اشتباك العلويّين بالسُّنّة، وبالتالي انسحبوا إلى أحياء العلويّين، ولكن استمرّ الضخّ التحريضي من قبل رجال الأمن وشبّيحة النظام.

في اليوم الثاني بدأت تحرّكات لمن يُسمّون أنفسهم «صوت العلويّين». تواصلوا بعضهم ببعض، وبتوجيه من الأمن السياسي تجمّعوا وحاولوا الاتّصال بالشيخ «أ. ع» وهو شيخ سُنّي ويسمّونه في بانياس صوت الحقّ. هناك أمر مهمّ وهو أنّه أثناء التظاهر والتجمّعات قام الأمن بإحضار بعض الشخصيّات السُّنّيّة البارزة لاحتواء الأزمة وإقناع المتظاهرين بالعودة إلى منازلهم، فأتوا برئيس البلديّة، إلّا أنّ المتظاهرين هتفوا: «اطلع برّا يا حرامي». قيل إنّ رئيس البلديّة هو من دفع مليون ليرة ليحصل على منصبه، دفع ذلك لجماعة البعثيّين ورجال الأمن، ثم أتوا بالشيخ «ع. ح» وشيخ آخر، فتلقّوا الصيحات نفسها من المتظاهرين: «اخرجوا يا كذّابين». كانوا أيضًا رجالاً فاسدين.

عندها طلب المتظاهرون من رجال الأمن أن يأتوا بالشيخ «أ. ع» لأنّه رجل ثقة، وهو رجل صوفي، أعطوا ورقة مكتوبة للشيخ (ع) عليها مطالبهم، وقام بقراءة تلك الورقة. كان من مطالب أهل بانياس: إطلاق

سراح المعتقلين، ومنهم طلّ الملوحي، وإلغاء قانون الطوارئ، وعودة المنقّبات إلى العمل، وإعادة فتح الثانويّة الشرعيّة، ومنع الاختلاط في المدارس أسوة ببقيّة المحافظات السوريّة وإطلاق الحرّيّات، وتغيير رئيس ميناء بانياس لأنّه يتصرّف كضابط أمن ويفرض إتاوات على الصيّادين الفقراء، الذين بالكاد يجدون لقمة عيشهم».

هنا توقّف «د. س» عن الحديث، ووردني خبر من دمشق:

مصدر داخلي من الجيش: تحت تعتيم إعلامي كبير، الجيش يحضر بسيّارة برّاد ٤٢ جثّة على الأقلّ لمدنيّين من قرية طفس التابعة لدرعا تمّ قتلهم بالقرب من مساكن الفرقة الخامسة، بالإضافة إلى جثّة جندي واحد من مساكن الفرقة الخامسة يُعتقد أنّه من المنطقة الساحليّة. تمّ إحضار الجثث إلى مشفى تشرين العسكري حوالى الساعة الثالثة عصرًا. وقد تمّ قتل الجثث الـ ٤٣ بطلقة قنّاصة واحدة في الرأس أو الصدر من مسافة بعيدة (طلقة القنّاصة صغيرة في المدخل والمخرج).

كان خبرًا يضاف إلى سلسلة أخبار القتل. توقّف صديقي عن الحديث، وصمتت زوجته الخائفة، وأنا وجمت، لزمنا بعض الوقت لنتابع الحديث، كنّا ننتقل بين المحطّات التلفزيونيّة، وبدأ الليل يأتي، وبدأت ابنتي تتّصل. كانت خائفة، أخبرتها أنّي سآتي فورًا، وأن تقفل باب البيت جيّدًا، وأن لا تفتح الباب لأيّ كان، ثم طلبت من «د. س» الإسراع في الحديث، تابع:

«بعد هذه الأحداث، وبتوجيه مباشر وغير مباشر من الأمن، بدأ ضخّ الإشاعات في الشارع العلوي بأنّ من خرج للتظاهر هم ناس طائفيّون ومتطرّفون إسلاميّون، وليس لهم أيّ هدف سوى الإطاحة بالعلويّين، والدليل ما قالوه عن المنقّبات والمدارس الشرعيّة، أو حتى

قضيّة الاختلاط. كلّ ذلك ساعد على تأجيج الحالة الطائفيّة بين السُّنّة والعلويّين، والتحام والتفاف الطائفة العلويّة في بانياس حول النظام والأمن.

في الجمعة الثانية، قامت مظاهرة من حوالى ألف شخص، وكانت هناك مجموعة من الشخصيّات العلويّة وهم حالات فرديّة، وأتت فتاة علويّة واسمها «أ. ع» هي من قامت بإلقاء كلمة أمام المتظاهرين، وكانت أكثر حدّة سياسيّة في مواجهة النظام، ولقيت ترحيبًا كبيرًا من المتظاهرين. وكانت الشعارات المرفوعة كلّها شعارات وطنيّة تنبذ الفتنة الطائفيّة، ولم يكن هناك حتى تلك اللحظة شعار لإسقاط النظام، كان هذا في ١٥ آذار.

«د. س» الذي ظهر التعب على وجهه قال لي: ربّما نتابع في وقت آخر، قلت: والبيضا، أريد أخبارًا عن البيضا، قالوا في التلفزيون الرسمي إنّ المجزرة في البيضا غير صحيحة؟ أضاف: بل صحيحة، وما شاهدته في الڤيديو صحيح، لقد احتلّوا البيضا تمامًا، وقتلوا واعتقلوا وأهانوا الناس وما ظهر في الڤيديو هو جزء بسيط ممّا حصل.

وأنت؟ قلت. قال: كلّ علوي ليس مع النظام في هذه المرحلة فهو متّهم بالخيانة، أنا أعرف أنّ بانياس بقيت تحت القصف أكثر من أربع ساعات في أحياء السُّنّة، وكانت الاستغاثات تصدر من الجوامع ولا أحد يعرف من يطلق النار. كان هناك قنّاصة.

أنت عرفت من هم القنّاصة؟ أسأله. يقول: الكلّ يعرف أنّ القنّاصة هم من شبّيحة النظام، وفعلاً تبيّن أنّ هناك أسلحة عند السُّنّة وقد أخرجوها للدفاع عن النفس، ولكنّ هذه الأسلحة لم توجّه إلى صدر أيّ علويّ، كانت فقط للدفاع عن النفس، لكن باعتبار أنّ أكبر حقد طائفي

في سورية يتمركز في بانياس، فالوضع خطير، مع ذلك لم تحدث أيّة حادثة طائفيّة حتى اللحظة، والسُّنّة في بانياس طالبوا لاحقًا وبإصرار أن يتمّ الإعلان أنّ بانياس بريئة من السلفيّة، وأنّ الناس في بانياس لم يقتلوا الجيش، وأنّ من قتلهم هم رجال الأمن والشبّيحة الذين يذهبون إلى قرى العلويّين، ويقولون لهم إنّهم إذا كانوا يريدون السلاح فسوف يأتون به إليهم.

قلت: ولكن من فجّر حافلة الجنود والضبّاط؟ قال: قيل إنّ الإرهابيّين من فجّرها، كان قد تمّ استدعاؤها بطريقة غريبة وغير مفهومة. والسؤال لماذا تمّ مرور هذه الحافلة بهذا المكان؟ ممّن تلقّت أوامرها بالمرور هناك؟ ولِمَ غيّرت مسارها؟ هناك تورّط من ضبّاط كبار في جعل هذه الحافلة تأتي إلى هذا المكان، ومن ثم هناك من أعطى أوامر للعناصر بالنزول. من القادر على توجيه رجال عسكريّين كي يموتوا بالطريقة هذه؟ هل تعرفين أنّ هناك تحقيقًا أجراه خمسة محقّقين في بانياس حول الأمر، مع ضبّاط وجنود في واحدة من كتائب اللواء ٢٣ وهو من الدفاع الجوّي الموجود في الأساس في مدينة بانياس لحماية مصفاة النفط والمحطّة الحراريّة، ويشير كلّ ما قاله هؤلاء إلى أحد الضبّاط الذين يعملون لصالح ماهر الأسد، وكان يعمل في الوحدة العسكريّة التي عمل فيها العسكريّون الذين قُتلوا، ويُعتقد أنّه هو من أعطاهم الأوامر بالتحرّك، والشبّيحة هم من قاموا بعمليّة الاغتيال.

تأخّر الوقت، وصار عليّ الإسراع إلى البيت، لترتيب المعلومات التي مرّت في اليومين الماضيين.

اليوم حملة اعتقالات واسعة تطال حتى فريقًا معتدلاً من المعارضة، إضافة إلى مئات الشبّان ومحاصرة الزبداني. وكانت هناك درعا الموؤودة، وخلال اليومين الماضيين كانت هناك مظاهرات في كلّ

المدن السوريّة بما فيها دمشق وحلب ودير الزور وحمص وحماة واللاذقيّة وقامشلي وعامودا وداريّا، وتمّ اختراق مواقع إلكترونيّة سوريّة حكوميّة بينها موقع مجلس الشعب، وموقع جريدة تشرين الحكوميّة، وتركوا رسالة «تفضح الجرائم البعثيّة»، كما قاموا بوضع صور داعية للتظاهر، وتمّ تقطيع أوصال دمشق ونشر الحواجز بينها وبين الضواحي المحيطة بها، وقتل أربعة جنود في درعا، وقوّات الأمن تقتحم عيادة خاصّة لاعتقال الجرحى وكثير منهم في حالة خطر. في اللاذقيّة، كان الوضع في منطقة القلعة والعوينة صعبًا جدًّا؛ اعتقالات، إطلاق رصاص على الناس مباشرة واستشهاد طفلة على شبّاك منزلها في منطقة الصليبة، بينما في بلدة التلّ تطالب النساء بالاعتصام في الساحة حتى يخرج أبناؤهنّ المعتقلون. وفي الزبداني، الآلاف يتظاهرون على الرّغم من استمرار محاصرة البلدة بالأمن وقطع الكهرباء والماء والاتّصالات. أيضًا الحصار الشديد على كافّة مناطق جبلة التي خرجت منها المظاهرات، وحصار مكثّف على منطقة الدريبة والصليبة وإطلاق نار كثيف وسيّارات الإطفاء على المداخل بجانب المظاهرة. في «سلمية» الأمن يفرّق بالقوّة المظاهرة ويستخدم العصيّ الكهربائيّة، وتتوالى الأخبار؛ مجزرة في الرستن، استشهاد ثلاثة أشخاص وعشرات الجرحى.

أهالي بانياس يتظاهرون بالورود، والتلفزيون السوري يبثّ صورًا للمخرّبين في مدينة جبلة، وهؤلاء شباب بسطاء اسم الأول «ي. ح» وهو شابّ يتيم يعيل أمّه وإخوته ويعمل في محلّ للموالح (محمصة) في شارع جركس. ويداوم من الصباح حتى الليل في المحمصة وكلّ الناس يعرفونه وليس إرهابيًّا ولا سلفيًّا. والآخر اسمه «يا. حم» بائع خضار على عربة متجوّلة، والثالث «ع. أ» بائع خضار أيضًا، وهم فقراء

يسترزقون ليطعموا أولادهم. لا تنتهي أخبار النار في كلّ مكان، وأنا هنا أقضم أظافري؛ استشهاد عشرة شباب على جسر صيدا في مجزرة فكّ الحصار، التي قامت بها قوّات الأمن ضدّ المتظاهرين السلميّين الذين هبّوا لنصرة أهالي درعا، وفي مدينة حماة، هناك عنصران من الأمن في التظاهرة متخفّين بمظهر مواطنين، وفجأة حاولا إطلاق النار. انقضّ عليهم رجال حماة وضربوهم حتى وصلت دوريّة من الأمن السياسي وأنقذتهم.

في النهاية كان هناك ٨٣ شهيدًا، بينهم أطفال ونساء في درعا، التي قُصفت عشرات المنازل فيها.

هل بقي من أخبار أخرى؟ هل بقي من مكان للموت في قلبي؟

ها أنا ذي أخيرًا في بيتي، ابنتي غاضبة، وأنا غاضبة، ولا أملك أيّة مشاعر من أيّ نوع كان سوى هذا الغضب!

مجرّد جثّة متحرّكة، أشمّ روائح صدئة في أنفي، وعيناي لا ينشف ماؤهما. طعم صدأ في حلقي. أتذكّر أنّ لديّ موعدًا مهمًّا يوم غد مع الصحافي الذي اخترق حصار درعا.

هكذا، وبكلّ يأس، أطبق على نفسي وأجلس، أنام لساعة وأنا جالسة في مكاني، أفتح عينيّ بعد منتصف الليل، أجلس مع سجائري حتى الفجر أرعى القلق في انتظار الموت القادم.

٢٠١١/٥/٤

أبدأ يومي بهذا الخبر: «نقلاً عن مصدر طبّي موثوق جدًّا، فإنّ قوّات الأمن نقلت يوم السبت ١٨٢ جثّة مدنيّة من درعا إلى مشفى تشرين في دمشق، ونقلت يوم الأحد ٦٢ جثّة، أي ٢٤٤ جثّة، كما وصل إلى المشفى ذاته ٨١ جثّة من الجيش أغلبهم مصاب بطلق ناري في ظهره».

هكذا هي البلاد..

هي الحدود الفاصلة بين البحر والصحراء والجبل والسهل، ملاءات من وجع، معلّقة بحبال كشعرة دقيقة، ومثبّتة من نهايتها بأعمدة سماويّة تتلاشى في العدم.

هكذا هي البلاد..

كلّ قطعة أرض مفصولة عن الأخرى ومربوطة بسكن الربّ النائم. الجبال معلّقة بالأرض المفصودة. وخلف حجاب الموت ساتر أدعية واستغاثات، عيون متكوّمة كفقّاعات صابون تتطاير وراء النوافذ. العيون لا تخاف. فقدت الخوف. عيون مفتوحة على الفراغ والجوع والغضب،

لا تلمح سوى جدار قاتم يحجب الرؤية. الحجاب؛ تلك الكلمة السحريّة التي نعيش وفق أصولها وفروعها هنا، الحجاب يكبر ويكبر حتى يصير بلدًا.

في الجهة البحريّة، حيث كنت أجول منذ أيّام في المدينة، قبل أن أتحوّل إلى كائن محاصر بموت أحبّتي، قرب الدبّابات، خطر لي الاقتراب من جسد دبّابة، وأقول جسد، لأنّي دائمًا في طفولتي كنت أتخيّل الدبّابات عندما أراها في الصور والتلفزيون، أنّها حيوان برمائي، يختفي حالما نقرّر أن نملأ مغطس الحمّام بالمياه ونغرقها فيه. للأطفال مخيّلة طازجة، أحاول جاهدة أن لا أتنازل عنها، هكذا بقيت طفولتي شاهدًا على الوجع. كان الحاجز العسكري غريبًا، كنّا نتخيّل أن يكون هذا الحاجز قرب منطقة حدوديّة مثلاً، أو نراه في الأفلام حيث تتواجه دولتان عدوّتان! ولكن أن تكون هذه الدبّابات بين البيوت، ومدافعها تتّجه نحو النوافذ؟

لم يخطر للجنود البائسين الذين يتحلّقون حول جسم الدبّابة أنّي سأقترب منهم. الجنود الذين ينتظرون الموت الغامض، مثل الناس العزّل، الذين يريدون معرفة الأجوبة: من أين يأتي هؤلاء القتلة؟

قال لي أحد الجنود إنّه كان سيموت برصاص قنّاص، قلت له: يومًا ما ستعرف، وبقيت غصّة مؤلمة في حلقي. هل أقول له، أنت مشروع قتيل، أنت وكلّ الناس في هذه البلاد، وكلّ من يمشي عليها إذا لم يمتثل لأمر رجال الأمن ورجال العائلة الحاكمة.

أردت أن ألمس حديد الدبّابة، وضعت يدي على جانبها، وأغمضت عينيّ وأنا أسمع هسهسةً فائقة ونديّة، سألمس الدبّابة للمرّة الثانية، أصابعي ترتعش وتنتقل برودة الحديد إلى يدي، جفلت وفتحت

عينيّ. كان الجندي يقف وجهًا لوجه أمامي، وينظر مذهولاً. لم أتحرّك، بقيت كفّي على الحديد، وضحك الجندي. ابتعدت قليلاً، ونظرت إلى فوّهة المدفع الموجّهة إلى البيوت. كان الجبل يطلّ من الخلف بصمت، واخضرار يلفّ المكان. جبل أخضر ترابه محمرّ، وأمام البحر الأزرق، كان من الممكن أن أكون مطلّة على لوحة فائقة الروعة لولا تلك الرعشة الباردة للحديد. ترى ما هو الحوار الذي يمكن افتراضه بين فوّهة مدفع وبيت أعزل. لنجرِ حوارًا: لا حوار.

ما هي سرعة الضوء المفترضة بين طلقة رصاص وصدر أعزل؟

سرعة الضوء وسرعة الموت، أمدّ كفّي مرّة أخرى، ويبدو أنّ الجندي ضاق ذرعًا بي، حاولت أن أفتح حديثًا معه. كان الشابّ مرهقًا. ماذا لو غزلت خيطًا الآن، كعنكبوت، ورفعت هذه الدبّابة كلعبة! ماذا لو كان الأمر مجرّد لعبة! ماذا.. وماذا!

لم نعتد رؤية هذه الأجسام الحديديّة بيننا، هنا حيث يسمح الوقت لنا بالاختباء في ظنّ السؤال وفي بلادة الجواب. هنا حيث يجب أن أغمض عينيّ عن كلّ الإجراءات المحتملة لوحوش تتكاثر وتنشطر مثل خلايا تتولّد، بعضها من موت بعض، كما هي الحياة، وكما هو قانون التطوّر المتوحّش للطبيعة، وهذا صباح آخر، ونحن ما نزال نطير في البلد المقطّع الأوصال المرصوف بالقدرة على ابتداع الرصاص والحبّ، القدرة بعد الآن على أيّ شيء.. أيّ شي، سوى الصمت.

البلاد التي تأسرني تفاصيلها في ابتداع خيوط شمس مخاتلة أو سماع خشخشة أوراق الكينا، وأنا أمرّ تحت أشجارها العملاقة، بينما فجأة تمرّ سيّارة سوزوكي بيضاء، في صندوقها المفتوح ثلاثة رجال ملثّمين، اثنان منهما يحملان رشّاشات، ويطلقان الرصاص بعشوائيّة في

الهواء، البارحة كان إطلاق النار كثيفًا قرب البيت، وعلى الجهة المقابلة لطريق المطار جُرح رجلان، واليوم تمرّ السيّارة البيضاء بسرعة، ليس غريبًا أن يكون لونها أبيض بلون الكفن. ليس غريبًا أن أحاول سماع صوت خشخشة أوراق الكينا بعد الصمت المدوّي، حيث يختفي المارّة فجأة من الشوارع، ويصير المشهد مثل لوحة صامتة، اختفى الرجال المسلّحون، وبقي الصمت والفراغ.

هكذا هي البلاد..

قطعة دانتيلّا ممزّقة، ونحن نطير بين الخيوط التي تفصلها بعضها عن بعض، نتطاير مثل جنّيّات ناريّة، نختفي ونظهر فجأة، ونحترق ونتهاوى بلا أسئلة.

اليوم، يظهر تقرير عن ناشطين حقوقيّين يقول إنّ معدّل الاعتقالات يوميًّا لا يقلّ عن ٥٠٠ معتقل، وطلّاب يتظاهرون ويُعتقلون أمام كلّيّة التجارة في دمشق، وتُقطع الخطوط الهاتفيّة عن مدينة التلّ، بعد مداهمة رجال الأمن واعتقال ٨٠٠ شخص، وتتّجه ٣٠ دبّابة من منطقة يعفور باتّجاه مدينة دمشق، مع ستّ ناقلات جنود، ويستمرّ اقتحام البيوت والاعتقال في داريّا. وفي بانياس يخرج آلاف المتظاهرين طلبًا لفكّ حصار الجيش عن درعا.

هكذا هي البلاد..

سرقت طفولتي هذه الأيّام، قالت لي: أفيقي يا بنت فهذه ليست أرض «بيتر بان» وعلى بعد كيلومترات منك، لن تستطيعي معرفة كيف تتقلّص معدة طفل من قرقرة جوع، أو كيف يمكن لمدينة أن تستباح!

٢٠١١/٥/٥

ستمرّ هذه الأيّام العصيبة. ستذكرها ابنتي مثل قطعة دانتيلّا ممزّقة في خزانة. ستخبرني الصديقات الجميلات أنّي كنت أتعثّر في مشيتي مثل شخصيّة كرتونيّة، سأظلّ أدور في الشوارع قلقة، ملتاثة، خائفة، أقضم أصابعي، وسأذبل مثل نبتة بريّة في جبل، وأنا أتابع موتكم الغالي، ولكنّي، بعد سنوات، سأكون أكثر انحناءً وأنا أمشي. في كلّ يوم أنحني لكم أيّها السوريّون الشجعان، وسأظلّ أنحني حتى تلامس شفتاي التراب الذي تصنعه بقاياكم الطاهرة. وسأظلّ أخجل من حرارة دمي عندما أفكّر بالبرود الذي غطّى سحنتاكم بعد لحظة من عبور الرصاص من الفوهة إلى صدوركم.

ستقتلني تلك الذكريات.. وصور الموتى.

أعرف ذلك الآن، وأنا أهمّ بالذهاب إلى فراشي الجديد بعد أن تركت بيتي، وسكنت في وسط العاصمة، لم يبق أيّ صاحب رأي معارض للنظام، إلّا وترك بيته هذه الأيّام، أعرف الكثير من الأصدقاء

والصديقات تركوا بيوتهم هربًا من الاعتقال، معظمهم كانوا معتقلين سابقين قضوا سنين طويلة في السجون السوريّة، ولا يفضّلون العودة إلى تلك الظلمات الموحشة. بالنسبة لي كان الأمر أكثر تعقيدًا، فوسط حملة الاعتقالات والمداهمات واقتحامات البيوت، كنت أحاول حماية ابنتي، من تخويني أمامها، واتّهامي بالعمالة. أردت محو الأيّام السوداء الثقيلة التي قضتها في القرية، عندما تركتها هناك خوفًا من أن يتمّ اعتقالها معي بعد أن غادرت بيتي للمرّة الأولى. كنّا نعيش في الخوف، ليس الخوف بمعناه المعروف. الخوف الذي يجعلني أفكّر بمصير ابنتي وكيف أقحمتها في الخطر، وموقف أهلي الذين تحمّلوا بصبر وألم تبعات حياتي في مجتمع محافظ، خاصّة بعد أن عرفت أنّ أخي كان سيطلق النار على نفسه، عندما بدأ يتعرّض لهجوم من أهل القرية لأنّ أخته خانت الطائفة. توقّف قلبي لثوان. أدركت أنّي في وضع يجب أن أفعل فيه أيّ شيء من أجل إنقاذهم، رغم أنّ موقفهم كان مع النظام مثل غالبيّة العلويّين الذين خافوا، بعد أن تمّ ترهيبهم من قبل أجهزة الأمن والبعثيّين، أن يقتلهم السُّنّة إذا سقط نظام بشّار الأسد.

كنت مشوّشة، جافّة كفزّاعة، ولا أجد الوقت الكافي لكتابة اليوميّات، وبدأت أشعر بأنّه لا جدوى من تدوين ما يحصل معي. لكنّي اكتشفت أنّ هذه اليوميّات تعينني على العيش، هي عكّازي في هذه الأيّام، ويجب الاستمرار في كتابتها حتى لو كان ذلك من باب التخفيف عن النفس واحتمال الألم. بعد أن تركت بيتي وسكنت في بيت مجهول وسط العاصمة، كنت على يقين أنّهم لا يريدون اعتقالي، لقد أرادوا تشويه سمعتي، والإيحاء بأنّ ما كتبته وفعلته في الفترة الماضية لا علاقة له برفضي للنظام، أو لأنّي أرغب بكتابة حقيقة ما يحدث في التظاهرات، وإنّما لأنّي جزء من مؤامرة خارجيّة وأقبض الأموال

لأكتب، وهو الكلام السخيف نفسه الذي كانوا يردّدونه على شاشات التلفزيون الرسميّة عن المعارضين. ولكن كيف لي أن أصدّق، فقد سبق أن رأيت بعيني كيف كانوا يقتلون الناس، ورأيت العصابات المسلّحة التي يتحدّثون عنها، وفي كلّ المرّات التي نزلت فيها إلى التظاهرات وقمت بمراقبة ما يحدث، لم أر سوى متظاهرين سلميّين. الآن تبدو حركتي أصعب، ليس فقط لأنّ نوّارة كانت تقفل باب البيت كلّ نهار جمعة وتجهش بالبكاء إن رغبت بالخروج، ولكن لأنّ الأمن حفظ شكلي، وربّما جعلتني التظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها مع النساء أتأكّد أنّ أيّ نزول إلى الشارع بعد الآن هو بمثابة الذهاب إلى السجن بنفسي. وحقيقة كنت أريد البقاء أطول فترة ممكنة في الخارج، حتى تنهي نوّارة امتحاناتها، وحتى أكون مفيدة أكثر لحركة الشباب. كنت في حالة قطيعة مع أهلي، كنت ممزّقة عليهم ومنهم، أعرف مدى الضغط الذي يعيشونه، لكنّي لن أدفع ثمن استبداد هذا النظام ووحشيّته، ولن أخضع لابتزاز ورقة الفتنة الطائفيّة التي عملوا عليها. وهكذا كما حدث في كلّ مرّة من حياتي وعندما أكون على مفترق طرق، أنحاز لهذا القدر.. أنحاز لحرّيّتي. كانت لحظة تشبه اللحظة التي تركت فيها بيت أهلي، وأنا ما أزال في السادسة عشرة من عمري، وتشبه اللحظة التي طلّقت فيها زوجي، وأخذت ابنتي ذات السنتين، وهربت بها إلى دمشق، تشبه لحظات كثيرة مرّت في حياتي، لا علاقة لها بموقف سياسي أو انحياز لطرف دون آخر، إنّها فقط وببساطة انحياز لحرّيّتي؛ فيمن أكون وكيف أفكّر وأكتب، ولكنّ كلّ هذا لا يعني شيئًا، فأنا في النهاية، وفي هذا العالم الضيّق، امرأة تعيش وحدها مع ابنتها. ما أضيق هذا المكان على روحي! أستطيع أن أمدّ يدي خارجه وأطال السماء.

امرأة مثلي هي سبب كفيل لجعل الحياة أكثر صعوبة.

رغم ذلك وقبل بضعة أيّام، قرّرت النزول ثانية إلى الشارع، كنت أنوي البقاء بعيدة عن التظاهرة التي دعت إليها بعض النساء. كان من المقرّر أن تكون فيها حوالى ٥٠٠ امرأة، وفي وسط حيّ الصالحيّة في ساحة عرنوس، وهو مكان حسّاس وذو أهمّيّة تجاريّة، ووجود تظاهرة كهذه تطالب بوقف القتل وفكّ الحصار عن مدينة درعا المحاصرة سيشكّل تحدّيًا للنظام وأبواقه، وأهمّيّة هذه التظاهرة كانت كبيرة بالنسبة لي، فالنساء السوريّات هنّ من تنادين إليها، وكان لا بدّ من النزول. إحدى صديقاتي رفضت تركي أذهب وحدي، رغم أنّها قرّرت البقاء على الحياد، ولكنّها نزلت معي. وصلنا سوق الصالحيّة في حوالى الساعة الثانية والنصف، حركة السوق خفيفة، أغلب المتسوّقين كنّ من النساء، لا بدّ من الاعتراف أنّ الوضع الاقتصادي أخذ بالتدهور، وأصحاب المحلّات كانوا يشكون من الفوضى الحاصلة، أحدهم قال لي: «إذا بقي الحال هيك كمان شهر شهرين انخرب بيتنا وفلّسنا».

كنّا نجول على المحلّات، ونحن نتفحّص المنطقة، فأهمّ شيء يجب معرفته هو: أين يتمركز رجال الأمن؟ وهل علموا بالمظاهرة أم أنّها بقيت سرّيّة؟ لأنّ المتظاهرين صاروا لا يعلنون أماكن تواجدهم، بل يتبادلون تحديد الزمان والمكان عبر لقاءات خاطفة يقومون بها في الشوارع، وهو ما كنت أفعله مع الشباب، عندما نريد تداول أمر ما، نلتقي في الشارع لدقائق، ثم ينصرف كلّ واحدٍ باتّجاه.

لم يكن هناك أيّ وجود أمني، تفحّصنا المكان بدقّة، ودخلنا عدّة محلّات تجاريّة. دقّقت في الوجوه، وراقبت حركة الرجال في ساحة عرنوس، ورأيت بعض النساء اللواتي يفعلن الشيء نفسه، حتى بعض الأصدقاء الرجال الذين كانوا يتحلّقون حول الساحة، كحماية للنساء المتظاهرات. لا أنكر أنّي شعرت بخيط من الأسى وأنا أراهم يتجوّلون

حول الصبايا المتظاهرات. أسًى خفيف، يشبه افتقاد عائلة، أو افتقاد إحساس بالقرب من كائن حيّ إلى هذا الحدّ. بشر تخاف على بشر، ربّما كانت الوحدة والاستقلاليّة الشديدة هما من دفعا بي إلى هذا الشعور، ولكنّي استعذبت الفكرة، عندما بدأت النساء تتجمّع وأنا أراقب الرجال من الأصدقاء بعيدين قليلاً ويراقبون. تركت صديقتي مع صديق آخر. ابتعدا جانبًا وانخرطت في المظاهرة. كان العدد قليلاً، والمفترض أن تكون هناك بحدود ٥٠٠ امرأة، ولكنّ العدد كان حوالى الستّين فقط، أعرف كثيرات من المتظاهرات، كنّ من مختلف الأعمار، والأطياف، وأغلبهنّ كنّ سافرات. قبل يومين خرجت نساء للتظاهر أيضًا، وكنّ محجّبات، التظاهرة اليوم مختلفة. هكذا هو الشارع السوري، مهما حدث سيظلّ يحمل تنوّعه واختلافه، إنّه جزء من جوهره. كانت اللافتات المحمولة تفيض بالحياة، اللافتات تقول: «أوقفوا القتل، فكّوا الحصار عن درعا. لا للموت.. نعم للحياة». لافتات تعدّ من بديهيّات الحياة وأبجديّات العيش. كانت النساء متحمّسات، ويرفعن اللافتات إلى الأعلى بصورة واضحة، ما كدنا نمشي عشر دقائق حتى بدأت حركة غريبة تظهر، شعرت بها، أنا كنت أنتبه جيّدًا لما يحدث، صرت أملك حاسّة الحيوان بالخطر، رأيت رجلاً يسير نحونا، وآخر يشير إليّ، أدرت وجهي وخرجت من التجمّع، وركضت، تيقّنت أنّهم عرفوني. كيف انبثق رجال الأمن فجأة من تحت الأرض! وأنا أركض، كان رجال الأمن ينقضّون على المتظاهرات، بالضرب والشتائم والركل، وكسروا أصبع إحداهنّ ولكموها في وجهها واعتقلت أخرى، وطارت بقيّة النساء وتفرّقن. كيف هجم هؤلاء الرجال؟ كيف خرجوا؟ هل تحوّل نصف سكّان سورية إلى رجال أمن؟ أشكالهم مخيفة، يخرجون من تحت الأرض، صار السوريّون الذين يخرجون للتظاهرات يحفظون أشكالهم.

وأنا أركض رأيت صديقتي وصديقنا الشابّ، دفعاني بعيدًا، ودخلنا في زقاق. ركضنا بسرعة وصرنا أمام شارع الحمرا، تركنا الشابّ، وعاد لمراقبة ما يحدث مع الصبايا، وطلب منّي أن أترك المكان بسرعة لأنّ رجال الأمن ينتشرون في الأزقّة، ويتابعون عمليّات الاعتقال والضرب. ركبنا سيّارة أجرة بسرعة، وطلبت من السائق أن يتوقّف أمام ساحة عرنوس، كنت أريد معرفة ما حلّ بالنساء. كانت قد مرّت خمس دقائق بين لحظة ركضي، ولحظة وصول التاكسي، مع ذلك لم أرَ ما حدث، فرّقوا التظاهرة، كانوا هم في الساحة فقط، رجال الأمن الذين صاروا يتواجدون أكثر من الناس العاديّين في شوارع دمشق. أوقفت السيّارة واتّصلت بإحدى النساء وقلت لها: إذا كانت أيّة واحدة في وضع محرج فلتأت إلى السيّارة. قالت إنّها بخير، وقد تركوا المكان فورًا. فجأة وأنا أراقب الساحة، لمحت إحدى الصبايا تقف جانبًا، والأمن موجود، ثم ظهر ثلاثة رجال أمن، يجرّون شابًّا في أوّل العشرينيّات، ويضربونه بعنف، كانوا يلطمونه على وجهه، كلّ اللكمات تتّجه إلى الوجوه، وكأنّهم يريدون إهانة من يضربون، ماذا يملك الإنسان إلّا وجهه كتعريف له؟ يلكمونه، ويشدّون شعره ويشتمونه، الناس واقفة تتفرّج، الناس خائفة مذعورة، وسائق التاكسي يقول: حدا بيعلق مع الدولة؟ قلت له: اقترب أكثر. أردت معرفة إلى أين يجرّونه. تململ السائق وقلت له: سأدفع لك أكثر، فاقترب. وقف رجال الأمن أمام حافلة بيضاء صغيرة، ولم يستطيعوا إدخاله إليها، كان الشابّ يملك قوّة عجيبة، لكنّ رجال الأمن تكاثروا عليه، ضربوه بشدّة مضاعفة، وخبطوا رأسه في الحافلة، ثم رموه داخلها: صرخت فجأة لم أتمالك نفسي. توجّه الرجل الذي خبط رأس الشابّ إلى سيّارتنا، عندما سمع صرختي، رأيت عينيه، كما أرى عيون قتلة هذه الأيّام، عيون لم أكن ألمحها في دمشق. أعرف أنّي

أردّد هذه الجملة كثيرًا في يوميّاتي، ولكنّي لا أملُ من ترددادها، كيف يعيش كلّ هؤلاء القتلة بيننا؟ كان لون الرجل داكنًا وملامحه تشي بتلك الغرابة التي كنّا جميعًا نتساءل عنها، قلت للسائق: امش بسرعة، صارت عيناه قريبتين من نافذة السيّارة، وانطلقت السيّارة، وكان يلزمه بضع ثوان ليمسك بي من رقبتي، كما كانت يده تريد أن تفعل، لأنّي كنت أمدّ رأسي من الشبّاك، وأراقب ما يفعلونه بالشابّ. عجّل السائق بنا، ومشى إلى الأمام قليلاً، ثم توقّف وطردنا من سيّارته، كانت صديقتي خائفة، أنا أيضًا كنت خائفة، وشعرت بارتجاف في جسدي كلّه، نظرنا إلى الشارع، وركضنا باتّجاه مكتب صديق قريب من التظاهرة، قلت سنبقى عنده حتى يهدأ الوضع.

وهكذا بقيت النساء حوالى عشر دقائق تحت الضرب والركل. جُرحت واحدة، وأخرى اعتُقلت. كثيرات استطعن الهروب من أمام رجال الأمن، كنّ قد رفعن ما أردن أن يعبّرن عنه.

هذه هي أفضل ظروف التظاهر في دمشق؛ حواجز عسكريّة، متاريس، رشّاشات، رجال أمن، زعران وقتلة، كلّ هؤلاء لمواجهة بعض من أراد أن يخرج أعزل من كلّ شي إلّا من موقفه المطالب بالحرّيّة. عدت حينها إلى البيت بكثير من المرارة وقليل من الفرح. لقد أسعدنا الوقوف والصمود لدقائق لنقول للنظام ما نريد قوله.

اليوم سأتدبّر أموري من أجل الأيّام القادمة، بيتي الجديد وحياتي الجديدة شبه المتخفّية، المزيد من الأعباء الماليّة، المزيد من الإحباط، المزيد من كلّ الأشياء المؤلمة، هكذا يجب أن أكون مستعدّة للأيّام القادمة. غدًا هو يوم جمعة التحدّي، وستكون فاصلة بالنسبة لحركة الاحتجاجات.

٢٠١١/٥/٧

اليوم أيضًا أجلس لأكتب عن مجزرة جديدة، بانياس محاصرة ثانية، الدبّابات تقصف البيضا والقمصيّة، بانياس مدينة أشباح الآن، والجيش والأمن يقومان بقصف المدينة طائفيًّا.

يقصفون أحياء السُّنّة، أحاول الاتّصال، الاتّصالات مقطوعة، وكذلك الإنترنت، الناس محاصرة من الجهات الأربع بمربّع لا يتجاوز ٤ كيلومترات.

ما الذي يحدث، هل يحتلّ النظام المدن؟ يريد أن يقتل شعبه بوضوح؟

اللاذقيّة مقسّمة إلى أربعة أقسام، الاتّصالات بين المدن مقطوعة، إنّنا في حالة حرب، نعم نعيش في حالة حرب. دمي يرتجف، فقدت أعصابي، نعم أنا الآن أحاول ترتيب رأسي، بالكاد ينتهي حصار حتى يبدأ آخر، واليوم تحديدًا ثلاث نساء قُتلن في المرقب، قرب بانياس، الإنترنت مقطوع عندي في البيت، وسيكون من الصعب التوجّه إلى مقهى

إنترنت، لأنّ قوّات الأمن تراقب مقاهي الإنترنت، وتعتقل الشباب والصبايا بصورة عشوائيّة، ووجدت أنّه من الأفضل البقاء في البيت، لكنّ المعلومات التي استطعت توثيقها من يوم جمعة التحدّي أنّ هناك ٣٠ قتيلاً في كافّة المدن السوريّة، قُتلوا برصاص الأمن أثناء التظاهرات. أحاول استقراء الخطّة التي يمشي عليها الجيش في تحرّكاته مع رجال الأمن، خاصّة أنّه وفي ظهر يوم الجمعة بدأ إطلاق النار على الناس في اللحظة نفسها في كلّ المدن السوريّة.

سياسة إعلان الحرب على الشعب صارت واضحة، ولم يعد هناك لبس في أنّ النظام حسم أمره في قتل شعبه، بلا محاولة الاستماع إلى ما يقوله الناس، لكن من المؤكّد أنّ الخيار الأمني والقمعي يزداد وضوحًا، وربّما بدأ السيناريو الأسوأ يتّضح أكثر، السيناريو الذي كنت أخشى أن يقع البلد فيه، حرب طائفيّة يقودها النظام، وقتل الشعب دون أيّ تفريق، وهذا يعني أنّ سورية ستغرق في بركة دماء.

التهديدات التلفونيّة التي تستمرّ تجعل أعصابي أكثر توتّرًا. ماذا يريدون أكثر؟ لقد صمتّ، وتركت بيتي، وأعيش متخفّية، وقطعت علاقتي بعائلتي، وأكتب بصمت. ربّما يعرفون أنّي أتحرّك على الأرض فعلاً وبين الناس.

أريد أن أهدأ الآن، أن أحاول التركيز على تفاصيل ما يحدث، على جمع أكبر شهادات من الناس الذين تواجدوا في أماكن متفرّقة في الشوارع السوريّة، لكن حتى ذلك يبدو صعبًا. صعوبة الاتّصالات بين الناس ومراقبة الأمن للخطوط الهاتفيّة، والذهول، والحزن الذي يطغى على الناس، كلّ ذلك يجعل هذه التفاصيل صعبة الآن، حتى الصحافي الذي كان من المقرّر لقاؤه، ألغى اللقاء بعد أن ترك بيته خوفًا من الاعتقال، لذلك قرّرت في هذين اليومين دراسة الحالة السوريّة بهدوء،

منذ بداية حركة الاحتجاجات وحتى اللحظة؛ ماذا حصل في الشارع، وكيف بدأ النظام في خططه القمعيّة هذه؟ كيف بدأت حادثة درعا مع الأطفال؟ وما الذي فعله بهم عاطف نجيب؟ وحتى هذه اللحظة التي تتردّد فيها أصداء عن إطلاق النار على فاروق الشرع نائب رئيس الجمهوريّة من قبل ماهر الأسد. لكنّي، وقبل إغلاق هذا الملفّ، أحاول الاتّصال بالناس في بانياس. الخطوط ما تزال مقطوعة، أفلح في اتّصال واحد مع بيت مجاور للبحر، يقولون إنّهم لا يعرفون شيئًا؟ وأنا أخمّن أنّهم خائفون من تنصّت المخابرات على موبايلات السوريّين، ليس التنصّت فحسب، صرنا نبعد أجهزة الموبايل عنّا مسافة تتجاوز العشرة أمتار لأنّ الأمن يقوم بالتنصّت على الناس حتى وإن كانت أجهزتهم مغلقة.

أيّ حصار هذا!

رجال الأمن نتنفّسهم مع الهواء.

ليس صحيحًا أنّنا لا نشعر بالرعب، أنا صرت أرتجف عند سماع أيّ صوت غير عادي، بعد أن رأيت كيف يُقتل الناس ببساطة ويُطلق عليهم الرصاص، صرت أكثر هشاشة وأكثر قوّة، نعم كلتا الحالتين استقرّتا في قلبي، لدرجة أنّي، ليلة البارحة، وكانت الريح تصفر بشدّة، وأسمع أصوات طقطقة في السطح، لم أغف جيّدًا، في كلّ لحظة كنت أتخيّل أنّ أحدًا ما قادم، لقد قال لي الضابط الكبير إنّهم سيتركونني أبلعط مثل سمكة من الألم والخوف، قبل أن يعتقلوني.

كنت أعرف أنّ النظام سيقوم في بانياس بالخطوة نفسها التي قام بها في درعا، وسوف يحاصر المدينة ويقوم بالاعتقال والقتل، ولكن كنت أخشى من هذه الخطوة، لأنّ بانياس تعدّ بؤرة توتّر طائفي، عمل النظام

في الفترة الماضية على تغذيتها، وكنت أعرف أنّ أهالي بانياس لن يسكتوا بعد الآن، وأنّهم تسلّحوا، وكالعادة سيلجأ النظام، إضافة إلى قصف المدينة وترويعها، إلى جعل العلويّين دروعًا بشريّةً له، مستفيدًا من التوتّر الآخذ في التصاعد.

يأتي الآن اتّصال من صديق، فجأةً تتأكّد المعلومات حول ما حدث اليوم في قرية المرقب من قلب المدينة ومن أهلها: أسماء النساء اللواتي قُتلنَ في المرقب في بانياس: أحلام حويسيكيّة، ليلى طٰه صهيوني، وأمينة طٰه صهيوني. وهناك ١٥ امرأة جريحة. كان الجيش قد دخل واعتقل أناسًا في قرية المرقب، وبعد أن خرج الجيش خرجت النساء للمطالبة بأولادهنّ المعتقلين، فقام رجال الأمن ومعهم الشبّيحة بإطلاق النار بشكل عشوائي على النساء. وأضاف المصدر لي، من قلب بانياس، أنّ القصف ليس بالدبّابات فقط، هناك إطلاق رصاص، وهناك رجلان قُتلا، واحد من بيت رستم، والثاني من بيت قرقور، في قلب المدينة.

في جبلة أيضًا صارت النساء تخرج للتظاهر، بعد أن فرغت البيوت من رجالها، الأبناء والأزواج صاروا في السجون، واستلمت النساء مهمّة التظاهر.

كنت أترقّب المزيد من العنف، وفعلاً زاد عدد القتلى الآن إلى ستّة، حتى هذه الساعة، التي لم تتجاوز التاسعة في اليوم السابع من أيّار.

أدوّن أهمّ ما حصل منذ بدء الانتفاضة. منذ شهرين وحركة الاحتجاجات تتصاعد، بدأت في شباط بشكل صغير، وفي آذار توسّعت، وخاصّة في جمعة الكرامة، وبعد ذلك بدأت الأحداث في

درعا. ٢٥ آذار كان جمعة المجد، سقط فيها أوّل قتيل في دمشق، وفي درعا سقط قتلى، ثم موعد الخطاب الأوّل للرئيس وحديثه عن مؤامرة على سورية، وفي جمعة الصمود قُتل ٣٧ شخصًا، بعد ذلك تحرّك الطلّاب في دمشق، ثم طلّاب حلب..

في منتصف نيسان، كانت جمعة الإصرار، وفي الجمعة العظيمة كانت أكبر حصيلة للقتلى، ثم جمعة التحدّي، ثم عقوبات على مسؤولين.. أفكار أحاول ترتيبها؛ ٨٠٠ مدني قُتلوا على أيدي رجال الأمن، وهناك عدد كبير من القتلى بين أفراد الجيش. الخطّ البياني لحركة الاحتجاج في سورية يتصاعد ويتصاعد، وهناك الكثير من التفاصيل عن الألم والقهر والموت، عن الخوف والشهقات المتتالية للحياة.. الحياة التي تحتضر هنا ببطء، وأمام أعين العالم بأكمله.

٢٠١١/٥/٨

لم أستيقظ باكرًا كالعادة، كانت حبوب «الإكزناكس» تجعلني أنام بعمق، لم يتح لي أن أرى الفجر كما اعتدت. الساعة التاسعة الآن، وأنا أجلس على الشرفة العالية في الطابق الخامس مقابل ساحة عرنوس، يطلّ عليّ شارع الحمرا وحيّ الشعلان والروضة، أطلّ من بيتي الجديد على كافّة الاتّجاهات، هذه ميزته الوحيدة إضافة إلى الأمان. أحاول تجميع ذاكرتي التي اهترأت منذ بدء الاحتجاجات، ومنذ بدء القتل اليومي في هذه البلاد، اليوم أفكّر أنّي يجب أن أكون أكثر تركيزًا، لكنّ أخبار مدينة حمص وانقطاع الكهرباء عن بعض الأحياء فيها، كوسيلة حصار اعتمدها النظام هنا، والأخبار التي تصلني عن إطلاق نار كثيف فيها، تفقدني التركيز. وما يثير جنوني أكثر هو انقطاع النت، فكّرت أنّني يجب أن أفعل شيئًا، فالمشكلة بحاجة لحلّ سريع، ولن أتمكّن من معرفة أخبار الاحتجاجات. المؤكّد أنّ الحصار حول بانياس مستمرّ، وأنّ الكهرباء والماء والاتّصالات ما تزال مقطوعة، ولكن لا أخبار عن قتلى جدد. الاعتقالات مستمرّة. أعاني من إحباط شديد، وربّما أدخل في

حالة اكتئاب. لا رغبة لديّ في رؤية أحد أو أيّ شيء، أو متابعة الأخبار، أو أكتب. إنّني أرتجف.

اليوم صباحًا. زاد من سوء حظّي أنّ أوّل مشهد طالعني في التلفزيون هو عمليّة قنص لشابّ يركض في شارع فارغ، الصورة بعيدة، لكن على طرف الشارع كانت هناك أشجار، وهناك أصوات إطلاق نار، فجأة يسقط الشابّ بعد إطلاق النار عليه من الخلف، في ظهره، يسقط، كورقة. أرتجف أكثر، هناك عائلة لهذا الشابّ، هناك أصدقاء، وهناك اسم، أنا لا أعرف من هو، لكنّي أعرف أنّ حياةً كانت له، وأنّه مواطن سوري قُتل على يد مواطن سوري آخر.

كيف يصير دم أبناء البلد الواحد مستباحًا إلى هذا الحدّ؟

كيف استطاعت أجهزة الأمن جعل البشر في هذا المكان على هذه الدرجة من الوحشيّة؟

تعود ذكريات الاحتجاجات الأولى إليّ عندما كنت أستطيع الحركة أكثر، لم أكن مستعدّة لهذا الكمّ الكبير من العنف، ليس العنف بمعناه المجازي، والذي سقط مباشرة عليّ نتيجة التخوين وتشويه السمعة، لكن العنف بمعناه الملموس الحقيقي. لم أكن أظنّ أنّ القتلة ينبتون في الشوارع مثلما تنبت الأشجار، حتى تلك المدينة الساحرة المحاصرة الآن بالدبّابات والرصاص؛ بانياس المدينة التي أعرفها شارعًا شارعًا، وشجرة شجرة، وبيتًا بيتًا، وأحفظ تضاريسها الجميلة، بانياس حيث أستطيع أن أتأرجح من قمّة قلعة المرقب وحتى أوّل البحر، دون أن يهتزّ جسدي، لنعومة الانحدار الذي تصنعه الطبيعة بين الجبل والبحر، وحيث أستطيع سماع أصوات الجنادب تصرّ في نهاية الحارات الواصلة بين البيوت، وحيث يمكن أن أجلس مائة عام وأكتب رواياتي كلّها دون أن

أضجر من رؤية جمال هذه المدينة. بانياس الآن تتحوّل إلى مجموعة من الحواجز العسكريّة، التي تفصل بين الأحياء، أحياء السُّنّة عن العلويّين، وحيث يقوم الجيش ورجال الأمن بالاعتقال والقتل. بانياس الآن مقطّعة الأوصال مثل البلاد كلّها، ومحتلّة من قبل العسكر ورجال الأمن والقتلة. لا أستطيع تخيّل شكل شاطئ بانياس أو ناسها وأصوات باعة الخضار فيها. الآن لا مخيّلة لي سوى الرصاص والقتل وصور الناس التي تُقتل وتُضرب وتُعتقل، والنساء القتيلات. لا أستطيع أن أضحك، أو أن أفعل شيئًا. المدن السوريّة تُحاصر مدينة إثر أخرى، درعا، بانياس، حمص..

أخرج للقاء صحافيّة، أتّصل بها، هاتفها خارج التغطية، في اللحظة نفسها، تتّصل صديقة وتقول لي إنّ الأمن اعتقلها. أتوقّف قليلاً، أكون أمام شارع الحمراء. صياح امرأة صينيّة يوقظني، تفرد بضاعتها على الرصيف، كان شارع الحمراء مضحكًا، المحلّات الأنيقة تفتح ويجلس أصحابها أمامها، وفي نهاية الرصيف كان الباعة الصينيّون يعرضون منتجاتهم الرخيصة. إنّ الجميع يتوجّهون إلى البضائع الصينيّة، ضحكت من المنظر، سوق في قلب سوق، بضائع من مختلف الأنواع، ألبسة وأحذية وجزداين وإكسسوارات، والنساء الصينيّات الطريفات يتحدّثن مع الزبائن، يزقزقن بعربيّة مكسّرة، ويتحرّكن بنشاط. تراجعت قليلاً. الفتاة الصحافيّة في السجن الآن. كنت على مسافة قريبة من الاعتقال. في كلّ يوم، يُعتقل شخص إمّا كنت معه، أو سألتقيه. فكّرت بالصحافي الذي ضرب لي موعدين وأخلفهما، وفورًا اتّصلت به، رنّ هاتفه وردّ، تحدّثنا قليلاً، وشعرت بسعادة صغيرة. كانت حملة الاعتقالات تتواصل. وفي حمص اليوم المزيد من القتلى، والكثير من الاعتقالات.

كان معنى الموت ومعنى الخوف يتغيّران في كلّ يوم. المعاني البديهيّة لحياتنا كانت تتغيّر في كلّ لحظة تمرّ، يجب أن أعود وأفكّر بما سأفعل من دون الإنترنت، وعدم القدرة على التحرّك. إنّ ما يقومون به يشبه تقطيع أجسادنا ونحن أحياء.

عدت إلى البيت، وبين خيال الجنازات التي تحوم برأسي، كنت أتمنّى لو سمعت خبرًا سعيدًا في كلّ ما يحدث، خبرًا ولو صغيرًا، يجعلني أقلّ توتّرًا، وربّما ليس هذا فحسب، خبرًا يعينني على مواصلة الحياة، والنوم كالبشر الطبيعيّين، الخبر الوحيد الذي سمعته كان دخول دبّابات الجيش مدينة طفس القريبة من درعا، ومقتل اثني عشر مدنيًّا، أثناء اقتحام قوّات الجيش مدينة حمص التي سقط فيها في جمعة التحدّي ١٩ شهيدًا، وأخيرًا كان من بين المعتقلين اليوم في بانياس طفل في الحادية عشرة من عمره.

قتلى وجنازات تتحوّل إلى جنازات جديدة، في كلّ مرّة يشيّع السوريّون فيها شهيدًا، يسقط لهم شهيد.

وهكذا تجرّ الجنازات.. جنازات.

أتلقّى اتّصالاً من صديقة مذيعة، وأطلب منها أن نلتقي.

لم يقف توحّش النظام عند حدود. لم يقف حياديًّا تجاه الناس هنا. لقد صنع وحوشًا على شاكلته، بشرًا عاديّين، قد يكونون الجيران. والأخطر أنّ بديهيّات الإنسانيّة وألف باء الحياة، كانوا قد انتزعوها من قلوب الكثيرين هنا. الرحمة الإنسانيّة التي لا تتعلّق بموقف سياسي، ولا حتى بثقافي. الرحمة البديهيّة لعلاقة الإنسان بالإنسان كانوا يقضون عليها عبر التلفزيون الرسمي، وقناة الدنيا التي تحضّ على الكراهيّة، وبثّ الأنباء الكاذبة، إضافة إلى التحريض على كلّ رأي مخالف، ولم

أكن أنا وحدي من تعرّضت لهذا الهجوم من قبل أجهزة الأمن والبعثيّين على شبكات الإنترنت. ربّما كانت الحملة ضدّي هي الأشرس لأنّني أنتمي إلى الطائفة العلويّة وأمتّ بصلات قربى لهم، ولأنّي امرأة، ومن السهل انكساري أمام الشائعات والتجريح الشخصي والإهانات التي تلقّيتها على شبكة الإنترنت. بعض الصديقات من الممثّلات اللواتي أبدين تعاطفًا مع أطفال درعا وطالبوا بوقف الحصار عن المدينة تعرّضن لحملة تجريح وتخوين، ممّا اضطرّهنّ للظهور على الشاشة الرسميّة وتوضيح موقفهنّ. أصدقاء كانوا يظهرون بعض التعاطف مع أسر الشهداء، فتنهال عليهم اللعنات ويتمّ تخوينهم واتّهامهم بالعمالة. صارت الناس تخاف أن تبدي ولو قليلاً من التعاطف مع بديهيّات الحياة، مع أضعف ما يمكن تسميته بقوانين الطبيعة الإنسانيّة، هذا في حال اتّفقنا أنّ فعل الرحمة جزء من الطبيعة الإنسانيّة!

القتل المعنوي والمجازي للإنسان كان يتمّ بطريقة مدروسة، حمقاء لكنّها موجّهة، غبيّة لكنّها تترك أثرًا في نفوس الناس. كنت سجّلت حوارًا مع إحدى صديقاتي المذيعات، فقد سبق وعملت في التلفزيون السوري، الصبيّة التي كانت تعيش عذابًا بين ما تراه وما تقوم بتأديته على التلفزيون وافقت على إعطائي الحوار، دون ذكر اسمها مهما حدث، ليس الآن وليس في المستقبل، وأنا وافقت، وكانت هذه الشهادة:

«الخطاب الإعلامي الرسمي قسم الشعب السوري إلى طرفين: مع أو ضدّ، هذا يعني حتى لو كان المتظاهر بريئًا من تهمة العصابات المسلّحة، لكنّه بالضرورة خائن، مثلاً عندما تُذاع أخبار الشهداء من مثل «أيدي الغدر الغاشمة»، فنحن نعرف في الإعلام أنّ تلك العبارات تُستخدم فقط عندما نتحدّث عن إسرائيل وفلسطين وآخرها كان في غزّة، أو عندما يجبر ابن على التبرّؤ من أبيه المعارض علانيّة على شاشة

الدنيا، فهذا يعني ضرب عمود المشاعر الإنسانيّة، واللقاءات مع أسر الشهداء والنواح والعويل، والصور المروّعة للقتلى والمؤذية للروح، دون عرض الصور المقابلة للقتلى المدنيّين، كلّ هذه الأمور تصنع كراهيّة مرعبة بين الناس، وصارت الناس في كلّ مكان تقول: الله لا يسامحهم.

الإعلام الرسمي يخاطب العاطفة ويجيّشها، ثم التركيز على الأغاني الوطنيّة الجيّاشة وحبّ الوطن الذي يعني حبّ الرئيس فقط. وللأسف أغلب الاتّصالات المفتوحة مع الناس كانت قصائد غزل برئيس الجمهوريّة. حتى الضيوف المشاركون معنا كانوا قبلاً ضيوفًا لملء الفراغ والهواء، ولكن مع بدء حركة الاحتجاجات تحوّل هؤلاء إلى نجوم على الفضائيّات العربيّة وعلى الفضائيّة السوريّة، بعد أن صاروا أبواقًا للنظام.

الخطاب الإعلامي بعد الأحداث الأخيرة صار أكثر عقائديّة وتوجيهًا، عمليًّا وعلى الصعيد الإعلامي، لا أستطيع القول، كان هناك إصلاح، على العكس، كان أوّل خبر يجب علينا ذكره في نشرات الأخبار هو عن لقاء الرئيس المتواصل مع أبناء الشعب. الخبر الثاني المهمّ كان يجب أن يكون عن استمرار عمليّة ملاحقة العصابات المسلّحة، ثم بيانات وزارة الداخليّة، ثم الأخبار الدوليّة، صار هناك تغيير فعلي في الخطاب الإعلامي الرسمي في أمر واحد، بعد أن كان التركيز على الحالة الفلسطينيّة، تراجعت هذه الحالة لصالح الحالة السوريّة.

نحن كإعلاميّين طالبنا بالنزول للشارع لمعرفة الحقيقة إلى جانب رجال الأمن والمتظاهرين، وتمّ رفض طلبنا بحجّة سلامتنا. طلبنا ذلك لأنّنا لم نعرف الصحّ من الخطأ، ولكنّنا مُنعنا بصرامة، وبالتالي ما نذيعه

ونبثّه هو ما يأتينا من وكالة سانا حصريًا، ورويترز مرفوضة تمامًا، وكلّ وكالات الأنباء العالميّة والعربيّة مرفوضة أيضًا، فقط فيما يخصّ الشأن السوري. سانا تعني مكتب القصر الجمهوري. ومن بدء الأحداث وحتى اللحظة تمنّينا أن يجتمع بنا مسؤول كإعلاميّين ليتحدّث عن خطّة إعلاميّة بسبب استثنائيّة الحالة. الأوامر تأتي عبر الهاتف لأنّ الكلّ خائف، وفي هذه الأزمة تبرّع بعض اللبنانيّين من أبواق النظام السوري هناك في زيارات متكرّرة للإذاعة والتلفزيون للحديث عمّا يحدث في الداخل السوري، وإجراء الحوارات السياسيّة. حدث مرّة أن سأل أحد الضيوف اللبنانيّين: لماذا لا يكون هناك صوت معارض للنظام معنا؟

الحقيقة أنّنا كمؤسّسة حكوميّة إعلاميّة كانت دائمًا لنا حواراتنا التي يغلب عليها طابع الاتّجاه الواحد، وأصحاب المهنة لا يستطيعون الدمج بين صوتين، لأنّ الأخبار تُملى من جهات عليا معروفة لنا. نحن موظّفون فقط نتقاضى أجورًا ولسنا إعلاميّين. مثلاً تعيين مذيعة على الشاشة لا يتمّ دون وساطة أمنيّة أو وساطة القيادة القطريّة لحزب البعث. والملاحظ الآن أنّه تمّت الاستعانة بمذيعين من الإذاعة، وتمّ تحويلهم إلى التلفزيون وهؤلاء لديهم توجّه ديني، وهم من عوائل دمشقيّة ومن أحيائها القديمة، وأظنّ أنّ هذا يتمّ لاجتذاب أهل دمشق أكثر مع النظام، ولنفي صفة الوجود الطاغي للعلويّين المتواجدين في التلفزيون السوري. هم أرادوا أن يصنعوا توازنًا في الظهور الإعلامي مؤخّرًا كما فعلوا في توزيع الكراسي في إدارات التلفزيون والإذاعة والإعلام.

الأخبار تأتينا مطبوعة وجاهزة، حتى إن كان لدينا سؤال ضمن صيغة الخبر فيكون الجواب الجاهز لدينا: هذا ما جاء في سانا أو قسم الأخبار.

الإعلام لدينا ليس إعلامًا حقيقيًّا، هو مجرّد أداة تخضع لقوانين

صارمة وكلاسيكيّة وصعبة. من صيغة الخبر حتى اختيار الضيوف، كلّ ذلك يخضع لمراقبة أمنيّة، والبرامج الحواريّة السياسيّة يجب أن يكون معدّها ومقدّمها متعاونًا مع الإدارة والأمن، حتى في القنوات التي تُسمّي نفسها خاصّة كقناة الدنيا، والتي يملكها رجال أعمال موالون للنظام، تقوم بدور تخريبي أكبر من الدور الذي يقوم به الإعلام الرسمي، فتقوم بتشويه سمعة المعارضين، وتحضّ أبناء الشعب على كراهية بعضهم بعضًا، طبقًا لموقفهم من النظام، وتفتعل الإشاعات وتسمّم الأجواء. ولدينا مثلاً في مبنى الإذاعة والتلفزيون، ومنذ حوالى شهرين، جهاز جديد يحمل بصمة الإصبع للداخلين إلى المبنى بحجّة معرفة من يلتزم بالدوام الفعلي ومن يتغيّب عنه، علمًا أنّ موظّفي الإذاعة والتلفزيون، المحسوبين على جهات أمنيّة، يتقاضون رواتبهم وهم في بيوتهم.

بالنسبة للتقارير التي تظهر على الشاشة، يقوم بها أناس معيّنون، وهم مقرّبون جدًّا من النظام وصنّاع القرار، مثلاً؛ الآن من يُجري الريبورتاجات الميدانيّة حول حركة الاحتجاجات هو ابن عمّ الوزير، وهناك كما نعرف جميعًا توجيه لما يقوله الناس كي يظهر بصورة معيّنة على الشاشة».

تنتهي شهادة المذيعة هنا.

أتابع ما حصل في هذا اليوم: انتشار أمني كثيف في بلدة سقبا والجنود يقتحمونها، والدبّابات لا تزال في مواقعها في مدينة درعا مع انتشار الأمن والجيش، ويتوزّع القنّاصة على الأبنية، ومآذن الجوامع، وما تزال حملة الاعتقالات مستمرّة.

٢٠١١/٥/٩

أخيرًا استطعت الإمساك بالخيوط التي بدأت منها حركة الاحتجاج. البداية المتزامنة في أكثر من مدينة، وكيفيّة انتشار الاحتجاجات، والمطالب البسيطة في العيش الكريم، وطرق الاحتجاج المختلفة، ثم كيف اجتمعت هذه الخيوط حول جوهر واحد هو كرامة السوريّات والسوريّين، في مواجهة الظلم والإذلال الذي تمارسه الأجهزة الأمنيّة.

كلّ المدن بدأت من هذه المطالب. وعندما بدأ الأمن والشبّيحة في اعتقال الناس وقتلهم، اختلفت حركة الاحتجاج، وتحوّلت من مطالب معيشيّة بسيطة إلى مطلب إسقاط النظام. كنت ألتقي بالناس يومًا بعد يوم، وتتّضح الرؤية أكثر. اليوم تحديدًا سوف يكتمل مشهد بانياس، أحد الشباب الذين كانوا في قلب الحدث، وخرجوا من الجامع، سوف يأتي إلى بيتي، برفقة صديق من مدينة بانياس، ربّما كان خطرًا أن أجعله يتعرّف إلى بيتي، ولكن كان من الصعب رؤيته في أيّ مكان خارجًا، لذلك فضّلت اللقاء بشكل سرّيّ. كان صديقي يؤكّد أنّ هذا الشابّ

موثوق، لكنّ الثقة لا محلّ لها هنا، فالاعتقال والتعذيب قادران على انتزاع الإنسان من نفسه.

جاء الشابّ وكان في العشرينيّات، نحيلاً معتدل الطول، لم يصافحني بيده، لكنّه كان لبقًا، أنيق الحديث، أدركت فورًا من أوّل خمس دقائق أنّ إيمانه بالقضاء والقدر مطلق، لكنّ عقله يميل إلى المنطق، وهذا جعلني أشعر بالارتياح، إضافة أنّه لاحقًا سيحاورني بأريحيّة، دون تلبّك أو دون أن أشعر أنّه يحاور امرأة مؤطّرة ضمن رؤية الشرع الإسلامي المتشدّد. ربّما هذا ما يمكن تسميته بالإسلام المعتدل، قال إنّ اسمه «ع»، ولم أطلب توضيحًا أكثر من ذلك، طلبت منه أن يتحدّث عمّا يحدث في بانياس، أو عمّا حصل لاحقًا بعد الجمع الأولى الثلاث.

قال: «كنت في بيت جدّي، وكان هناك ٥٠ عنصرًا من الجيش تمركزوا في بناء ابن خلدون، بعد دار البلديّة بـ ٢٠٠ متر في وسط بانياس، كانوا ينامون على أسطح الأبنية وكنّا نحن من نقوم بضيافة الجيش، وكان هناك تعاون بين أهل بانياس والجيش في البداية، والجيش في المرقب قام بالتفتيش والتمشيط، ومن ثم انسحب ولكنّ الأمن هو من قتل، وقد رأيت المعركة بعيني، معركة يوم الأحد، فقد قام الجيش بالهجوم من الطريق الدوليّة، وكنت واقفًا على السطح ومعي منظار، هاجمت عناصر الجيش وهي مكشوفة على الطريق الدوليّة، وهذا شكل غريب لا أعتقد أنّ الجيوش تقوم به في العادة، وكأنّهم مبعوثون للموت. الجيش ضرب البيوت وخزّان الماء وجسر رأس النبع، وكان الرصاص يزخّ مثل المطر. دخلوا بعد الظهر واستمرّوا بعد ذلك، كانوا يضربون البيوت بشكل عشوائي. نحن لم نكن نعرف ما يحدث، الشباب الذين كانوا قريبين من الحدث قالوا لي

إنّ عناصر من الأمن ومن الشبّيحة هم من كان يطلق النار على الناس ويضربون الناس، أنا شخصيًّا تعرّضت لعشرين رصاصة مرّت بالقرب منّي، وكان هذا ظهرًا.

في فجر اليوم التالي طلعت لمئذنة الجامع ورأيت عناصر الأمن على الأبنية، لمّا رأوني أراقبهم تركت المئذنة، ودخل الجيش تحت جسر القوز ونحن هربنا من الجامع واختفت عناصر الأمن، وحدثت اتّفاقيّة ألّا يدخل الأمن، وأن يدخل الجيش إلى المدينة. في يوم المعركة نفسها، قام بعض عناصر الجيش بتسليم أنفسهم إلينا وللأهالي، قال أحدهم: قالوا لنا إنّنا سنقاتل عصابة، ولكن لمّا رأينا تكبير المآذن، وجدنا أنّه لا يوجد عصابة، وعرفت أنّ الأمر فيه كذب كبير، وواحد من أهالي بانياس قال لعنصر الجيش: نحن أهالي بانياس ولسنا عصابة. أيضًا كان هناك عناصر من الجيش قُتلت وهي تسلّم نفسها، وعناصر أخرى قُتلت قبل أن تترك الجيش، وكلّ إصاباتهم كانت من الظهر، أو في الرأس مباشرة.

عادت إليّ الصور التي كنّا نتابعها لحفلة الرقص فوق الأجساد في «عين البيضا» سألته: وعين البيضا والصور التي ظهرت وحديث الإعلام الرسمي عنها، ماذا تقول فيه؟ يضحك بأسى ويقول: طبعًا كلّها حقيقيّة وما حدث أكثر بشاعة من الصور، وهذا الڤيديو تمّ تسريبه من قبل الأمن نفسه، أحدهم قام ببيعه بمبلغ كبير، وانتشر الڤيديو، كانوا يصوّرونه فيما بينهم للتباهي. إنّهم رجال الأمن، أيّ واحد لديه سلاح في بانياس لا نريده، وأشكّ بوجود سلاح، إلّا السلاح الذي يستخدم للدفاع عن النفس.

الجيش عزّز وجوده في بانياس ولم يخرج في الأساس، كانت بانياس خارج السيطرة، ولا يوجد شرطة فيها، نحن الأهالي كنّا نقوم

بحماية البلد، والمخازن الغذائيّة كانت تفتح للضرورة فقط، نحن عملنا حواجز ضروريّة لحماية الممتلكات ولكن لم يحدث أيّ حادث تخريب في المدينة، والناس التزمت الهدوء، كان الجيش في البداية بعدد محدود والناس هي من حدّدت أماكن تواجد الجيش، وفعلاً عندما دخل الجيش شعرنا بداية بالحماية والأمان، وكان هناك تعاون رائع بيننا وبينه، ولكن يبدو أنّ هذا الوضع لم يعجب آخرين.

من هم الآخرون؟ أردت أن أضيف جملتي هذه بالقول: الآخرون هم الجحيم، الآخرون هم الموتى الذي يسلبون منّا الحياة، ولكنّي كنت أمارس دور الصحافيّة، وأبعدت عنّي تلك الروائيّة وانتظرت جوابه: لديّ تحليل للوضع، يشير إلى وجود تيّارين في السلطة، الأوّل عنيف والثاني سلمي، وأظنّ أنّ التيّار العنيف هو من انتصر على التيّار السلمي الإصلاحي. المهمّ انسحب الجيش كلّه، وجاء جيش جديد إلى المرقب، والأمن هو من قام بقتل النساء الأربع وجرح عشر منهنّ، ثم دخل مدينة بانياس، من يومين، وهذا الجيش أكثر عدّة وأكثر عددًا، وتمّ اعتقال عائلات بأكملها، وأظنّ أنّ هذه العمليّة لتركيع المدينة لأنّها خارجة عن السيطرة وحركة الاحتجاج فيها قويّة، بعد أن طلب النظام إيقاف التظاهرات والناس رفضت. نحن عرفنا أسماء بعض الشبّيحة ورجال الأمن الذين كانوا يطلقون الرصاص على النساء ومنهم: (ع. ش، ح. ز، ع. م). ماذا عن الحالة الاجتماعيّة، كيف هي بانياس هذه الأيّام؟ أسأله، ويُجيب: هناك استنفار دائم، نحن نتناوب بالسهر وحماية الأهالي، عندما انقطعت الاتّصالات، النساء استنفرت، كلّ يومين يقومون بعلميّات اقتحام، نحن لا نخاف الجيش، نحن نخاف مداهمات رجال الأمن، عندما دخل الجيش كان الناس يهتفون للجيش، الأمن كان مشكلة الناس.

ـ في بداية الحركة الاحتجاجيّة في بانياس قيل إنّ هناك بعدًا طائفيًا لهذه الحركة؟

ـ كلّ مجتمع فيه ناس بسطاء ومحدودي التفكير، لن أقول لك إنّ من بين كلّ أهل بانياس لا يوجد من لديه بعد طائفي، الطائفيّة موجودة لدى أفراد، ولكنّها بعيدة عن المتظاهرين. كنّا ضدّ الشعارات الطائفيّة، أنا حضّرت كلّ خطب الجوامع، وكلّ خطب الشيخ «أ. ع» ولا يوجد فيها أيّ تحريض طائفي، ولا أيّ بعد طائفي فيما طرحناه، جاء أستاذ علوي بيننا أثناء التظاهرات وكنّا نهتف معه ووراءه وكان «م . ي» من قرية «ح».

ـ ما قصّة نضال جنود؟ ولم قُتل؟

ـ كان موجودًا بين القبور، ومعه بارودة قنّاصة، ووجده الناس أثناء الإطلاق الكثيف للنار على الناس، الشباب قالوا لي إنّه كان يقتل الناس، وأظنّ أنّ حالة انتقام حدثت، وأظنّ أنّها حالة فرديّة من العنف.

ـ من الشباب الذين أمسكوه؟

ـ هم شباب أمّيّون وعاديّون، وليسوا من المتظاهرين، والمدينة كانت في حالة فوضى، وكان من الممكن أن يحدث فيها أيّ شيء من هذا العنف، نحن المتظاهرين أمسكنا رجلاً من الأمن الجنائي، ثم تركناه في حاله، وأحد الجنود العسكر أيضًا أمسكناه وأطلقناه، نحن لسنا طائفيّين، ولسنا عنيفين، ولا نحرّض على العنف، ولكنّ هناك حالات من العنف والغموض تحدث. أيضًا الشباب سيطروا على شاحنة للجيش وسلّموها مباشرة للجيش، وكان فيها أوراق وخطط سير في بانياس. بالنسبة للحافلة التي قُتل فيها الجنود والضابط هناك شيء غريب، لأنّ الجنود نزلوا بشكل طبيعي، وفجأة بدأ إطلاق النار، كانت

الحافلة قادمة من اللاذقيّة، وضرب الرصاص على الحافلة استمرّ ساعة كاملة، أنا رأيت الأمر بأمّ عيني، ووجدته غريبًا جدًّا، لم أحدّد من أين يأتي ضرب الرصاص، كنت في الأسفل من جهة البحر، كان الجنود يقتلون ورأيتهم ينزلون بهدوء، لم يكونوا بحالة استنفار، كانوا كمن تلقّوا أمرًا. بهدوء تامّ وقفوا بعد أن نزلوا ثم بدأ إطلاق النار، وإطلاق النار كان من رشّاشات على الغالب، وأنا رأيتهم بعيني، كانوا يطلقون النار، وهم من الشبّيحة، وذكرت لك منذ قليل بعض أسمائهم.

فكّرتُ أنّ أهالي بانياس يعرفون القتلة ويعيشون بينهم، وصمتهم، على معرفتهم بهم، لم يكن جبنًا، فأنا أعرف المدينة جيّدًا، وأعرف عزّة أهلها ونخوتهم، لقد صمتوا عن مواجهة القتل بالقتل، حفاظًا على سلميّة احتجاجهم. أسأل الشابّ:

ـ هل كنت موجودًا في بداية التظاهرات؟

ـ نعم، قبل ٣/١٥ تحدّث الشيخ «أ. ع» عن موضوع الضرائب ورفع الظلم عن الناس في السرقة التي يتعرّضون لها من قبل الدولة، وتحدّث عن تلوّث مصفاة بانياس، ثم بدأت الأحداث تتوالى في المدن السوريّة، في ٣/١٨ لحظنا أثناء الصلاة كثرة عدد السيّارات أمام الجامع، وكان الناس يتوافدون بكثرة إلى الجامع، فقال الشيخ «أ. ع»: والله ما دعوت أحدًا ولكن قلت كلمة الحقّ. بعضهم خرج ولم يعجبه كلام الشيخ، ومنهم «أ. ش»، وأرادوا بدء التظاهر، كانت المظاهرات عفويّة وعشوائيّة بداية، عند دوّار البلديّة، ولكن بعد أحداث مدينة درعا واقتحام المسجد العمري يوم الأربعاء، انتفض الناس من جديد، واحتقنوا ممّا يحدث في أغلب المدن السوريّة، وبدأنا بتهدئة الناس، من أجل تأجيل مطالبهم، والشيخ قرّر أن لا ينزل أحد إلى الشارع، وقال لهم: أنتم خرجتم لله، فاسكتوا لله، لكنّ الناس لم تستمع إليه، كان

الاحتقان قويًّا، ومدينة درعا محاصرة، والناس لم تردّ على كلام الشيخ، وفي جامع القبيّات عندما وصف الشيخ مصطفى إبراهيم المتظاهرين بالغوغائيّين والفوضويّين، خرج الناس إليه وأنزلوه، وتجمّع الناس وحدثت المظاهرة، حاولنا تهدئة الناس ولكنّ الناس صارت تخرج للتظاهر والمطالبة بحقوقها.

ـ متى بدأ أوّل تعاون واحتكاك بين الجيش والأمن والشبّيحة؟

ـ لا أعرف تحديدًا التاريخ بدقّة، لكن يمكن أن يكون يوم السبت في أوّل الشهر الرابع، وقبل أن يدخلوا البيضا. انقطعت الاتّصالات واستنفرت الناس وخافت، وقبل الفجر، كنّا نصنع الحواجز، وهناك تهديدات ولا يوجد شرطة ولا أمن ولا أيّ حماية للناس، فقط كان هناك الأمن السياسي. النساء خفن وحملن العصيّ استعدادًا للدفاع عن أنفسهنّ. وبعد صلاة الفجر كان الناس خارجين من الصلاة في الجامع، وكنّا في الحديقة، عندما سمعنا صوت إطلاق نار كثيف. رأيت سيّارة تطلق النار، كان الرصاص ينهمر بشكل عشوائي، وعرفت من الشباب أنّ هناك مصابًا في حارة القبيّات اسمه «أ. ش» حاولنا معالجته مع أربعة غيره، لكنّه مات. الشباب لحقوا السيّارة التي أطلقت النار، فجأة هرب من في السيّارة وتركوا السيّارة التي أحرقها الشباب، وأخذنا أوراق السيّارة، كانت لشبّيحة بيت الأسد وهم من بيت «ش» وبيت «ح» وواحد اسمه «ع .ش»، وهؤلاء ليسوا شبّيحة فقط بل قريبين جدًّا من رجال الأمن، أخبرنا الجهات المسؤولة عنهم. التقطنا صورًا لرجال الأمن تحت جسر القوز، وصورًا لبعض الشبّيحة يدلّون رجال الأمن على بعض الأماكن، والشبّيحة هم مسلّحون طوال هذا الوقت، حتى بعد حادثة الاعتداء هذه.

ـ من أين أتى ضرب الرصاص على الجيش؟

ـ من الظهر، كلّ الجنود الذين قُتلوا، ضُربوا من ظهورهم، الضرب كان يتمّ من بيت رجل معروف اسمه «ف. ح»، وهو رجل مقرّب من الشبّيحة والأمن أيضًا. بانياس منذ شهر مغلقة، هناك الكثير من الاحتقان بين الناس الذين صاروا مستعدّين للموت بعد القتل والظلم، يعني في حادثة البيضا، حدثت الكثير من المظالم والذلّ للناس، كان هناك غزارة في إطلاق الرصاص، الجيش اقتحمها وقالوا إنّهم مشّطوها بحثًا عن الأسلحة، أين هي الأسلحة؟! وأثناء تمشيطهم للبيضا، الميّت الوحيد كان رجلاً مسيحيًّا اسمه حاتم، فأين السلفيّون الذين يتحدّثون عنهم؟ أحد الشباب أخبرني أنّ الرجل قبل أن يُقتل قال لهم: والله أنا مسيحي، ولا دخل لي بما يجري. فقاموا فورًا بإطلاق الرصاص عليه! أنا شخصيًّا قمت بتصوير ڤيديو وظهر على شبكة الإنترنت مع سيّدة تبلغ الستّين من عمرها، وصوّرت بيتها والصور انتشرت في كلّ مكان، هناك مئات الطلقات، خرّبوا بيت ابنها، وخرّبوا بيتها. وقمت بتصوير رجل مقعد على كرسي متحرّك، وانتشر على الإنترنت، كسروا له الكرسي، وكسروا العود وسرقوا أمواله القليلة التي جمعها. ومن قام بهذه الأمور لم يكن الجيش، من فعل ذلك هم من الأمن، وعناصر يقال إنّها تابعة لحافظ مخلوف. أجريت ثلاثة لقاءات مصوّرة مع ثلاثة فتيان، بأعمار ١٢، ١٣، ١٤ سنة، أخبروني بما فعله الأمن بهم. لقد جرى تعذيبهم بطريقة وحشيّة، ما ذنب هؤلاء الأطفال؟ وعذّبوا واحدًا عمره ١٩ سنة، قال إنّه تمّ دقّ رؤوسهم بأحذية رجال الأمن «فعسونا تفعيس»، وشحطوهم على الزفت. هناك قصّة حدثت في بانياس، وهي من ممارسات رجال الأمن أيضًا، ثلاثة زائرين من حلب وبانياس كانوا يمرّون مرورًا سريعًا بالمدينة، قبض عليهم رجال الأمن، قاموا بتكسير أضلاعهم وفعسوهم بأرجلهم وداسوا على رقابهم

ووجوههم. الحلبي الذي قبل ضيافة صديقه من بانياس، شوّهوا وجهه، ومن ثم مات جرّاء التعذيب على أيديهم، كان وجهه عندما وصل الشام مشوّهًا بالكامل، أنفه غير موجود وعيناه غير موجودتين، وهو أب لأولاد أيضًا، البانياسي الذي استضافه، واسمه «أ. ش»، كان مشوّه الوجه أيضًا، لكنّه لم يمت.

رجل آخر من بيت «ش» أُصيب برصاصة غريبة، دخلت فيه، خرجت بفجوة كبيرة، كان جسده من الخلف محفورًا، وهذا رصاص حارق متفجّر، استخدمه رجال الأمن في قتل الناس، وهو الرصاص نفسه الذي استخدم في مدينة جبلة، ودرعا واللاذقيّة.

يشحب وجهه، وأشعر أنّ الهواء توقّف في رئتيّ، أصبّ له كأسًا من الماء، وأشعل سيجارة، أشير له إن كان جاهزًا للمتابعة، فيحرّك رأسه موافقًا:

ـ بعد التغطية الإعلاميّة لما حدث في البيضا، هل ساهم هذا في عدم تطويق المنطقة؟

ـ كان هناك بالأساس احتقان وغضب لما حدث في البيضا من ممارسات، الإعلام الرسمي أشعل غضب الناس، لأنّه تحدّث عن كذب الصور. كنّا نحاول تهدئة الوضع، لكنّ قناة الدنيا والتلفزيون السوري كانا يقومان بدور تحريضي للحثّ على الكراهية بين الناس وتخويفها بعضها من بعض، وقمنا بتنبيه المسؤولين لما فعله الإعلام الرسمي وملحقاته الأمنيّة كقناة الدنيا. عبد الحليم خدّام مرفوض من قبلنا، وهو بالنسبة لنا خائن، ومن ضمن شعاراتنا في التظاهرات «لا سلفيّة ولا خدّام» هذه إشاعة روّجتها السلطة، وإذا تركت الناس على طبيعتها لن تحدث حرب أهليّة، ولكنّ ما يفعله الأمن والشبّيحة هو ما سيؤدّي إلى

حرب أهليّة. لم يستخدم السلاح، حتى نضال جنود الذي قُتل، قاموا بقتله بالسكاكين، ولكنّ هناك رواية مشكوكًا بأمرها بأنّ الناس دافعت عن نفسها باستخدام أصابع الديناميت.

ـ كيف فتّش الجيش البيوت؟

ـ دخلوا البيضا في ١٢/ ٤ وفتّشوا البيوت بيتًا بيتًا، ولم يعثروا على أيّ سلاح.

ـ وما قصّة لبس الأكفان التي خرج بها بعض المتظاهرين؟

ـ هذه حماسة زائدة، لأنّ الناس صارت تفضّل الموت على الذلّ، ولكنّي كنت أفضّل من مدينة مثل بانياس أن لا تقوم بمثل هذه المبادرة.

ـ هناك فصل جغرافي في مدينة بانياس بين حارات السنّة وحارات العلويّين، ألم يتعاطف العلويّون معكم، ألم يقفوا بجانبكم؟

ـ في البداية نعم، لكن تمّ ترويعهم وتهديدهم، مؤخّرًا هناك شابّ أراد أن ينزل معنا إلى المظاهرات، ولكنّه هُدّد بهدم بيته وقتل أهله.

ـ ما حجم الزواج بين العلويّين والسُّنّة في بانياس؟

ـ ضعيف، بانياس مقسومة جغرافيًّا، وفيها الكثير من معتقلي البعث العراقي، والإخوان المسلمين، وفيها الكثير من المنفيّين والهاربين. بانياس مظلومة ومهمّشة تاريخيًّا من قبل الدولة، وليس من جهة الطائفة، ما حدث في بانياس لم يكن ضدّ الطائفة العلويّة، كان ضدّ النظام السوري. وممارسات الدولة هي التي تغذّي الطائفيّة، والدولة هي المسؤولة عمّا يحدث من فتنة، والعلويّون في قرى بانياس من الفقراء جدًّا ويقع عليهم أيضًا الظلم نفسه، لكن لا بدّ من

الاعتراف أنّ التوتّر الطائفي صار أمرًا واقعًا بعد أن غذّته الدولة. في ١٨ الشهر الماضي، رأيت تجمّعًا للشباب، وسألتهم عمّا يحدث، فقالوا بأنّ الشباب العلويّين سينزلون من حيّ القصور ليقتلوا السُّنّة، وأنا تأكّدت أنّ واحدًا من عائلة «ج» وهو من الشبّيحة، قال للعلويّين إنّ السلفيّين قادمون من اللاذقيّة لنصرة السلفيّين في بانياس، وهم الآن عند مطعم إشبيلية وسوف يقومون بذبح العلويّين. ركضنا لنرى ما يحدث، ولم نرَ أيّ شيء، وعندما عدت وسألت عمّا يحصل، قالوا إنّ الشباب العلويّين نازلون فاستنفرنا وأخذت واحدًا من الشباب وصرنا نعرف ما الذي سيحدث لأنّ الناس لن تسكت، وخفنا من مذبحة طائفيّة. أخذت درّاجة ناريّة إلى حيّ القصور، وغالبيّة سكّانه من العلويّين، رأينا حواجز، قلت له: «ماذا يحدث؟» قال: «ما في شي»، وفعلاً عدنا، والشيخ «أ. ع» قال: «لا توجد فتنة طائفيّة»، وطلب من الشباب السُّنّة العودة، ولكنّ الشباب لم يعودوا وبقوا بالآلاف ينتظرون، ولكنّ شيئًا لم يحدث. من أراد أن تحدث فتنة هم الشبّيحة والأمن، والناس كانت أكثر وعيًا. قيل لي إنّ رجلاً من قرية بارمايا العلويّة لمّ الشباب العلويّين وطلب منهم العودة إلى بيوتهم. وهكذا صارت تكبر الشائعات، وغذّاها الأمن والشبّيحة، ليخوّفوا السُّنّة والعلويّين أيضًا.

ـ المرقب منطقة معروفة بأنّها منطقة تهريب وسلاح، ومن الممكن أن يردّ الأهالي بشكل عنيف على ما حدث؟

ـ كلّ شيء ممكن، العنف يجرّ العنف، ولكن أنت رأيت أنّهم لم يردّوا، ثم إنّ أهل رأس النبع في بانياس هم من تحرّكوا وليس أهل المرقب، رغم أنّ نصف أهل المرقب من بانياس. دخل الجيش إلى المرقب وكان يستعدّ لذلك منذ ثلاثة أيّام، وتتجمّع عناصره في عدّة

مناطق. الأخبار وردتنا أنّ هناك تخبّطًا في إعطاء الأوامر للجيش، الجيش ينسحب ويتقدّم. ولمّا دخل الجيش جاء من جهة قرية الزوبة، وكان هناك شبّيحة قنّصوا أحد العساكر، دخل الجيش مع إطلاق الرصاص وخرج الأهالي في مظاهرة باتّجاه الجيش، وبصورة عاديّة أذاع الجيش بمكبّرات الصوت أنّه لن يؤذي أحدًا، وأنّه يريد التفتيش فقط. دخل الجيش، فتّش واعتقل حوالى ٢٠٠ أو ٣٠٠ شخص، فخرجت الأمّهات من أجل المطالبة بأبنائهنّ وأزواجهنّ الذين تمّ اعتقالهم، وكان المعتقلون ما يزالون في الباصات، تلا ذلك رشّ رصاص عشوائي من قبل أجهزة الأمن. قال الناس إنّ بعض من قُتل كانت إصابته من الوراء وهذا يعني أنّ هناك قنّاصة. اعتقلوا بعض الأمّهات والأطفال، وقُتلت أربع نساء، وكان هناك أربعة محاور للهجوم على بانياس من المحطّة الحراريّة، والمرقب. قُتل اثنان من الشباب، وهناك ٣ إصابات خطيرة، أظنّ أنّهم ماتوا الآن، وكما تعرفين الاتّصالات مقطوعة، والماء والكهرباء، وهناك حظر تجوّل، وعمليّات اعتقال عشوائي، رغم أنّ النساء صارت تشارك في المظاهرات، لكنّهنّ لم يسلمن من القتل والاعتقال».

صمْت!

يتوقّف الشابّ عن الحديث، أنتظره، لا ألحّ عليه. اليوم تحديدًا بانياس معزولة عن العالم الخارجي، قطعة أرض طائرة في العدم، واليوم تحديدًا لم تسمح السلطات السوريّة لمبعوثي الأمم المتّحدة بدخول مدينة درعا، والإعلام الرسمي يقول إنّها دخلت لساعات. وأنا صمتّ احترامًا لصمت الشابّ. كانت يدي تحرقني من الكتابة، لا أحبّذ تسجيل ما يقوله، أكتب مباشرة. لكنّ صديقًا لي صوّره وسجّله، واحتفظت بما قاله الشابّ.

أردت أن أقول؛ يعني باختصار، بانياس محتلّة، لكنّي تراجعت، وتراجع كلّ ما في داخلي إلى نقطة سوداء عميقة، أوسع من حفرة الكون السوداء. لم ينتظر، اعتذر وقال سنكمل في مرّة قادمة، ولكنّي كنت أشكّ بذلك، فكلّ الشباب الذين ألتقيهم يقولون لي الجملة نفسها، وبعد ذلك يختفون في مكان ما.

٢٠١١/٥/١٠

هذا صباح غريب.

أفيق وأنا أتلمّس جلدي، كلّي اعتقاد أنّي شخصيّة في رواية، أشرب قهوتي وأفكّر أنّي أفكّر بامرأة سأكتب عنها، أنا، رواية.

أنا أكثر رواية حقيقيّة يمكن أن أكتبها في يوم من الأيّام. البارحة مساءً تمّ اعتقال العديد من الشباب والصبايا الذين كانوا يتظاهرون في شارع الحمراء بالقرب من بيتي. لم يعد الأصدقاء يخبرونني بموعد المظاهرات بعد أن يئسوا منّي، ولم يعودوا يثقون في وعودي التي كنت أقسم فيها أمامهم بأنّي لن أشارك في مظاهرة، وبأنّي سأكتفي بالمراقبة عن بعد من أجل الكتابة، لأنّ التظاهرة النسائيّة الأخيرة جعلتهم يخافون عليّ، وتلقّيت العديد من التوبيخات. مرّت التظاهرة بالقرب من بيتي، وسمعت أصوات سيّارات إسعاف تجول في المكان، ورأيت تدافعًا وركضًا، عن بعد فقط، بدأت المظاهرة في ساحة عرنوس. التقيت بصديقتي الكاتبة التي شاركت في التظاهرة وأخبرتني بالتفاصيل التالية:

«اجتمعنا في ساحة عرنوس، وكنت أفكّر أنّي لن أنزل إلى الشارع لأنّنا كنّا في الأصل مراقبين، وكنت أفكّر في العمل بطريقة مختلفة عن الخروج للتظاهرات، ولكن رأيت أنّه من المهمّ أن ننزل للتظاهر في الساحات وليس من الجوامع فقط. نزلنا أنا وصديقتي، كنّا جميعًا نلفّ حول المكان ونراقب وجود رجال الأمن، لنضمن عدم انقضاضهم علينا مباشرة. لم نستطع الاجتماع في البداية رغم أنّنا نلفّ حول المكان، ذهبنا وجلسنا على الدرج في الساحة وبدأنا نغنّي أغاني وطنيّة، ثم بدأ الشباب يتجمّعون ونغنّي للوطن، لسورية، ثم صرنا حوالى ١٥٠ متظاهرًا ومتظاهرة، وقمنا بتصوير المظاهرة. وعندما بدأنا نغنّي النشيد الوطني «حماة الديار عليكم سلام» وبدأنا بعرض اللافتات التي فردناها عاليًا وكان قد كتب عليها: لا للحصار، لا للعنف، نريد دولة مدنيّة. ثم مشينا ونحن نغنّي النشيد الوطني واللافتات معنا، كنّا نتّجه باتّجاه الصالحيّة، مررنا وسط الصالحيّة، والناس في السوق وقفوا على الطرفين ينظرون إلينا بإعجاب وخوف وتعاطف. بقينا حوالى ١٧ دقيقة نغنّي «حماة الديار عليكم سلام»، بعد ذلك بدأ هجوم رجال الأمن العنيف، طوّقونا من الأمام والخلف، عندما هجموا ركضنا، ووقعنا على الأرض، صديقتي وقعت أيضًا. حملتها، فخبطها رجل على واجهة أحد المحلّات الزجاجيّة، جاء أحد أصحاب المحلّات في الصالحيّة وخبّأنا عنده، ثم هجم رجل أمن على المحلّ وكنّا نختبئ، في الداخل، قال له صاحب المحلّ: في نسوان جوّا بتغيّر. قام صاحب المحلّ يدلّنا إلى طريق آمن، لنهرب منه. أثناء التظاهرة كانت هناك فتاة تقوم بالتصوير، فهجم عليها رجال الأمن، وأخذوا هاتفها، وتمّ اعتقال إحدى الصبايا، وقاموا بسحب الشباب المتظاهرين إلى داخل المحلّات، ثم جاؤوا بحافلة أمام المحلّ ووضعوا الشباب فيها، والناس صارت تسأل عمّا يحدث، فقال

لهم رجال الأمن: «يا ناس ما في شي هدون الناس حراميّة».

أخرجوا الشباب من المحلّ بالضرب والركل والدفع. كانوا يضربونهم بحقد وعنف ووحشيّة، والناس صامتة تراقب. المعتقلون هم «ج. ن، م. ن، أ. ق، ع. خ، ع. د، م. ت، ع. ع». أنا رأيت بعينيّ أحد رجال الأمن يمسك بعصا غليظة ويضرب «ع. د» بشدّة وعنف على رأسه مباشرة، وداخل الحافلة استمرّوا بضربهم بعنف وقسوة، ونحن وثّقنا ما حدث بالتصوير. راقبنا بعد ذلك الضرب المؤذي الذي تعرّض له الشباب.

كلّ من اعتُقل ما يزال حتى اللحظة قيد الاعتقال، رجال الأمن في كلّ مكان، النظام يلجأ إلى تحويل عمّال البلديّات والدوائر الحكوميّة الخدميّة إلى مخبرين ورجال أمن لهم، ويقوم بنشرهم في الشوارع والساحات لنقل أخبار تحرّكات الناس وتجمّعاتهم، وهم مهدّدون بلقمة عيشهم وطردهم من العمل إذا رفضوا التعاون مع رجال الأمن».

ينتهي هنا حديث الصديقة، ووصفها لما حدث، وأعود لقلقي، أفكّر بخيوط حياتي الغريبة والمتشابكة، وفي القدر الغريب الذي وضعني على تماسّ مباشر مع حالة انفجار، وفي الجنون الذي مشت فيه حياتي، منذ أن بلغت الرابعة عشرة من عمري وحتى الآن، الغريب والطريف أنّي كنت أفكّر أنّي في مكان لا يشبه أيّ مكان، ولا حتى الرغبة بالتغيير، أو الانحياز لطرف ما، أنا في مكان يشبه سخرية القدر، أو تهكّم الموت بالحياة. أنا في مكان مضحك، وغارق في سوداويّته، فلو عرفت أجهزة الأمن السوريّة قبل أن تفبرك عنّي في مواقعها الإلكترونيّة، المسمّاة بعدّة تسميات، عن قرابتي بأسامة بن لادن ربّما لاستخدمته ضدّي! أضحك وأنا أشرب قهوتي الآن، أفكّر بنجوى غانم، قريبتي من جهة أمّي، الزوجة الأولى لأسامة بن لادن، وأمّ صبيانه المحبّبين، أفكّر بنجوى

التي عرفتها في الطفولة، وبموت بن لادن، وبالتقرير المخابراتي الذي فُبرك عنّي، أضحك.

قبل عقود، تزوّج والد أسامة بن لادن من فتاة ساحرة الجمال، اسمها عليا غانم، وكان لهذه الفتاة أخ، هو من تزوّج ابنة عمّ أمّي، اسمها نبيهة، ولدت له بنتين وثلاثة صبيان، أكبرهم نجوى، التي سيتزوّجها ابن عمّتها الشابّ أسامة بن لادن، والذي سيتحوّل إلى شخصيّة شهيرة في التاريخ السياسي العالمي. قضيت في بيت أهل نجوى أيّام طفولة بعيدة، ورأيت أولادها وذهبت في زيارة مع خالتي إلى الشاليه الذي كانت تنزل فيه في اللاذقيّة، كنت طفلة، وأحتفظ بذكريات واهية عن تلك العائلة التي ستأتي وتعيش في اللاذقيّة، وتبقى فيها حتى هذه اللحظة، وستكون نجوى محميّة من قبل أجهزة الأمن السوريّة، ومن قبل فوّاز الأسد شخصيًّا الذي كان يعيش في ڤيلّا قريبة من الڤيلّا التي كانت تقطنها هي وأولادها.

أنا الآن هنا في بيتي المعلّق على سطح مواجه للحمرا، أعيش بقلق وخوف، وألاحق ابنتي خوفًا عليها من التهديدات التي كانت تصلني عبر الإيميل وعبر التلفونات، رغم أنّي التزمت الصمت الظاهر، لكنّي خائفة، فأنا ابنة عائلة علويّة معروفة، وهي عائلة موالية للنظام بشكل مطلق، وتعتبرني الآن خائنة وعارًا عليها، حتى إنّ البعض من العائلة كتبوا على الفيس بوك معلنين في جبلة أنّني لا أنتمي إليهم، وتبرّأوا علانيّة منّي. لم يكن هذا أوّل إعلان لهم، فأنا تركت بيتي عندما كنت في السادسة عشرة، وسبّبت لهم، حسب أعرافهم الاجتماعيّة الفضائح المتكرّرة، أنا المنذورة لحرّيّة غامضة في الحياة، لم أهتمّ يومًا لهم، كانت عائلتي الصغيرة تعنيني، وأمّي وأبي وإخوتي، رغم خلافي المستمرّ معهم، فقد كنت أرتبط بهم بشكل عاطفي كبير، على نحو جعل الأمر

أكثر تراجيديّة ووجعًا. كان يكفيني أن أذكر هذه الأيّام. عينا أمّي تبكيان، لأغرق في نوبة بكاء هستيريّة.

كان يكفي أن أفكّر بأنّ النظام جعل من العلويّين دروعًا بشريّة له، حتى أعود وأغرق في نوبة كآبة لا آخر لها. كأنّ ما يحدث في سورية كلّها بحدودها الأربعة يحدث ضدّي!

في كلّ ما حدث كنت الخاسرة الكبرى، بين أهلي وأصدقاء طفولتي، وبين الحقّ والعدل، كنت الميّتة الأكثر حضورًا. كانت حياتي تنشقّ ودفعة واحدة إلى الأبد. كنت وحدي. أنا الرواية الأكثر حقيقة التي سأكتب عنها في يوم من الأيّام، إذا قدّر لي العيش. أنا من سأحتفظ بكثير من الأسرار عن العوائل العلويّة التي انحرفت عن مسارها الديني، وخرّبت الطائفة العلويّة.

كتبت منذ أسبوع تقريبًا على صفحتي في الفيسبوك: «كان جدّنا، عزيز بك هوّاش، هو الزعيم الذي رفض إقامة الدولة العلويّة، بطلب من فرنسا حفاظًا على وحدة سورية، وكان جدّي عثمان من جهة أمّي من قام بمقاومة العثمانيّين، وله بطولات يعرفها أهل الجبل والساحل. أمّا جدّي إبراهيم صالح يزبك فقد تخلّى عن ممتلكاته وأراضيه للفلّاحين، كان هذا قبل الستّينيّات، نعم أنا حفيدة هؤلاء الرجال، وحفيدة المكزون السنجاري، والخصيبي، وإخوان الصفا والمتنبّي، أنتم أحفاد حقّ، ولستم أحفاد باطل».

كان هذا التعليق هو الذي فجّر الأمور أكثر لدى العائلة ولدى رجال الأمن أيضًا، وأعلنوا مرّة ثانية البراءة منّي، أنا المهرطقة الخائنة. لم تكن عائلتي فقط من أعلنت ذلك، العديد من عوائل القرية أعلنت براءتها منّي وانهالت عليّ رسائل التهديد والاتّصالات البذيئة، وتمّ

استدعائي من جديد من قبل ضابط الأمن الكبير. أردت من هذا التعليق التذكير مرّة أخرى بواقع العلويّين الفعلي، وهذا ما فعلته عندما كتبت من قبل: عندما خُيّر الإمام عليّ بن أبي طالب بين الحقّ والسلطة اختار الحقّ، ودفع حياته ثمنًا.

كنت أرسل هذه الرسائل إلى البعثيّين، ورجال الأمن من العلويّين الذين قاموا بتوزيع المنشورات عنّي في جبلة والقرى المحيطة بها، لتحريض الناس على قتلي ونبذي، كنت أرسل رسائل أيضًا عبر الحوارات واللقاءات مع بعض رجال الدين العلويّين، ولكن عبثًا، كان الوضع يزداد سوءًا.

في اللقاء الأوّل مع الضابط الكبير، وصلت هناك وأنا شبه منهارة، لأنّ الرجلين الاثنين اللذين اصطحباني في السيّارة البيضاء من البيت قاما بعصب عينيّ، وهو أمر استغربته. فكّرت أنّي لم أخبر أحدًا، وكانت ابنتي ما تزال في القرية، وقلت لا بدّ أنّ اعتقالي سيكون وشيكًا، وسيكون طويلاً.

وصلت إلى مكان غريب، وربّما كان المكان في المزّة، لم أعرف، لكنّي وجدت نفسي في مكتب عريض، وكان الضابط الكبير. نظر إليّ بازدراء، وتفحّصني بقرف، وكأنّه أمام حشرة مفعوسة، أو ربّما هو أمام جثّة متحلّلة. ثم اقترب منّي، وأمسكني من معصمي، يدي تنسحق، وصار جلدي يحرقني، وفجأةً هوى بصفعة على وجهي، أوقعتني أرضًا، ثم بصق عليّ، وقال «يا جربانة». كانت عيناي مغمضتين وأسمع دويًّا حادًّا في أذني من أثر الضربة، وشعرت أنّي أفقد توازني، شعور يشبه الرجفة. لم أنهض، لم أستطع. صرخ بي لأقف، لكنّي فعلاً لم أستطع، جسدي هشّ، فقدت توازني. يا للسخرية، صفعة واحدة تجعلني أقع أرضًا. صرخ: انهضي، لم أتحرّك، ورميت رأسي إلى الوراء،

وأغمضت عينيّ. قلت لنفسي: لن أقوم، وليفعل ما يفعل. كانت السكّين التي أحملها في حقيبتي تحت صدريّتي، السكّين الكبّاس الصغيرة نفسها، وفكّرت أنّه إذا أراد إهانتي هو أو أيّ شخص، لن أنتظر وسأغرس السكّين في قلبي. كنت حتى تلك اللحظة أعتقد أنّي سأُعتقل لوقت طويل، فقد عرفت أنّ غضبهم منّي كان يفوق كلّ غضب. سمعت أصوات قدميه، وشعرت بيده تمتدّ وتنهضني، لم أشعر كيف أجلسني على الكرسي، لكنّ رأسي وقف، وعندما اعتدلت، توقّفت الأرجحة داخل رأسي، ضحك: «يا سلام على هيك بطلة، من كفّ واحد رحتي». وضحك. فتحت عينيّ، لم أبكِ، كنت أريد أن أبكي، فالصفعة كانت مهينة، لن أدعه يرى دموعي، حدّقت فيه. قال، بعد أن مرّر إصبعه على خدّي: «مو حرام هيك وجه ملائكي ينضرب». صفعني ثانية، ثم رجع إلى كرسيّه، وبدأ حديثه الطويل عن صلة الدم والقربى، وعن العائلة وعن الخيانة، والموشّح نفسه الذي أسمعه منذ سنوات، عن خيانتي وعن العار الذي أسبّبه لمن حولي. عندما انتهى كنت أحدّق بكفّه وأصابعه التي أشعر أنّها تركت آثارًا على خدّي، آثارًا حمراء ستتحوّل إلى زرقاء خلال يومين.

قال: «القطّ أكل لسانك؟ لسانك الطويل اللّي بدّي شيلو». صفعني أيضًا، الصفعة كانت أخفّ. وقفتُ وأخرجت سكّيني، وأشهرتها بوجهه، وقلت له إن كان سيستمرّ بضربي فسأغرس هذه السكّين في قلبي، ولن أسمح له أو لغيره بإهانة كرامتي. وقف مصعوقًا ينظر إلى السكّين السوداء، ابتعد عنّي خطوات، وأنا كنت قد ضغطت الزرّ، وأخرجت السكّين من مخبئها، ووضعتها ملامسة منتصف قلبي، الذي بدأت أسمع ضرباته.

صمت ثقيل.. وهو ينظر مدهوشًا، اقترب ثانية فتراجعت خطوة،

وقلت: «لا تقترب»، فتوقّف. كان ينظر بذهول، وأنا أنظر إليه وعيناي لا ترفّان، صرختُ: شو بدّك؟ قال: نحنا خايفين عليك، أنت لاحقة ناس إسلاميّين سلفيّين وتصدّقين ما يحكونه، قلت: أنا لا أصدّق أحدًا، أنا نزلت الشوارع مرّة بعد مرّة ولم أرَ السلفيين، ورأيتكم كيف تقتلون الناس وتعتقلونهم وتضربونهم. قال: لأ، هدون سلفيّين. قلت له: لم يكونوا سلفيّين، وأنا وأنت نعرف ذلك. قال: إذا بقيتي تكتبي رح أخفيكي عن وجه الأرض. قلت: اخفيني. كان صوتي قد ارتفع. قال: لست أنت فقط بل ابنتك أيضًا. حينها توقّف قلبي عن الخفقان. قال بعد أن جلس وراء كرسيّه: اتركي هالسكّين يا مجنونة، فنحن ناس شرفاء ولا نؤذي دمنا، لسنا مثلك خونة، أنت عار على العلويّين.. المهمّ الآن أنّ لديك ما تقومين به. لم أجب. قال: تظهرين على الفضائيّة السوريّة وسنتّفق على ما تتحدّثين عنه... صرخت قبل أن يكمل: لن أفعل حتى لو قتلتني بيديك. أجبت وأنا أحدّق بعينيه، وصوتي الحادّ جعله يغضب: لا تكمل. لن أفعل، اتركوني في حالي. صرخ: وأنت اتركينا في حالنا.

صمتُّ. قال: وهذه المقالات، والفيسبوك، وحركاتك والتظاهرات؟ قلت: أنا أنحاز للحقّ. ضحك ضحكة مجلجلة ونظر إليّ بشفقة: طزّ.. طزّ. قال.

أعدت سكّيني إلى مكانها، عرفت أنّه لن يؤذيني، هذه المرّة على الأقلّ، سأعرف لاحقًا أنّي كنت مدلّلة عندهم، عندما أبدأ بتجميع شهادات المعتقلين والمعتقلات. رنّ هاتفه، خرج ولم يتحدّث أمامي، عاد بعد دقائق، كنت خائفة، قال: هذا آخر تحذير، وبعد الآن، أنت في صفّ الأعداء.

قلت: أنا لست في صفّ أحد، أنا في صفّ الحقّ. ضحك ساخرًا، وقال: والله رح خلّي الناس تبصق عليك في الشوارع، رح خلّي

المعارضة أصحابك يبصقوا عليكِ، وخلّيكي تبلعطي متل السمكة برّا الميّ، قبل ما أسجنك، روحي يلّا.

دخل رجلان ضخمان الغرفة. كانا واقفين باستعداد. يرتديان ثيابًا مدنيّة. أحدهما يقف إلى اليمين والآخر إلى اليسار، أشار الضابط الكبير إليّ، فأنهضني الرجلان، لم يفعلا ذلك بعنف. أمسكاني وكأنّي شيء ما، يسهل تحريكه. عندما قاما برفعي من كتفيّ عن الكرسي، لم أقاوم، وقفتُ أيضًا، واستغربت ما يحصل، هل سيقومون باعتقالي أخيرًا وأنتهي من هذا الكابوس؟ سيكون ذلك أسهل عليّ من هذا الجنون. نظر إليّ الضابط باستخفاف، وأنا نظرت إليه لأعرف ما سيحصل. كنت أحاول قراءة البشر من أعينهم ومن حركات أجسامهم وسلوكهم. كان حياديًّا ويراقب نقطة ما في الغرفة الفسيحة، وضع الرجلان عصبة على عينيّ، أو هكذا افترضت لأنّ سوادًا غطّى عالمي فجأة.

كنت معصوبة العينين، وأشمّ رائحة غريبة من قطعة القماش، ثم أمسكتني يد قويّة، يد محكمة القبضة من مرفقي، وسحبتني. تحرّكت بتثاقل، ثم وقفت وصرخت: لوين آخديني؟ ردّ بهدوء، وكأنّي سمعت أزيزًا ما: مشوار صغير، حتى تكتبي أفضل. تأكّدت أنّهم قرّروا اعتقالي، ولم أشعر بالخوف، فهذا اعتراف أخير بالموقع المضادّ، وسحب كلّ عمليّات الجنون التي كانوا يستلذّون بتعذيبي بها طوال الأيّام الماضية. كنت أتظاهر بالتماسك، وأريد التصديق أنّ ما حدث منذ شهر، وحتى الآن، مجرّد كابوس سأصحو منه قريبًا. كانت أقلّ من دقيقتين، كلّ تلك الأفكار مرّت بأقلّ من ذلك، لأنّي كدت أسقط أرضًا رغم وجود رجلين، الأوّل إلى اليمين والثاني إلى اليسار، يقومان بتحريكي، بكلّ هدوء وأناقة. لا بدّ أنّ لديهما أوامر منه بذلك، لكنّي عندما كدت أسقط، حملاني. عرفت أنّنا ننزل على درج. أفلتني

أحدهما، يبدو أنّ الدرج ضيّق. أحاول الرؤية من تحت العصبة، لكنّها كانت محكمة ومشدودة، وبدأ تنفّسي يضيق، أظنّ أنّنا نزلنا عدّة طوابق، لست متأكّدة، لكنّ دوارًا بدأ يعصف بي ، وروائح عفنة، تختلط بروائح غريبة لم أعرفها من قبل، توقّفنا أخيرًا. ومرّ ذلك الألم الحارق من أسفل ظهري، وارتجفت، أعرف جسدي الهشّ. يد تفكّ العصبة عن عينيّ. لم أتوقّع أن يكون ما ينتظرني مهولاً، رغم أنّ كلّ ما كان أمامي هو السواد. السجن وكلّ ما كنت قد سمعته وتخيّلته، وحاولت الكتابة عنه، كلّ ذلك لم يعنِ شيئًا أمام تلك اللحظة التي فتحت فيها عينيّ؛ كان ممرًّا طويلاً، بالكاد أستطيع رؤية الزنازين على طرفيه، وبالكاد أشعر أنّه مكان حقيقي وليس فضاءً في عقلي المريض بالكتابة. إنّه واقع! ممرّ بالكاد يكفي لمرور جسدين متلاحمين. الأسود يحيط بحدوده. ممرّ منفصل عن الوجود، أنظر خلفي فلا أرى شيئًا، أمامي؛ السواد المطلق. ممرّ بلا نهاية ولا بداية. معلّق في العدم، وأنا في الوسط وأبواب مغلقة. الرجل الواقف أمامي يقوم بفتح أحد الأبواب، أزيز حادّ يبدأ بسرعة ثم ينتهي بدقّات بطيئة. كانت دقّات حزينة تشبه لحنًا سمعته ذات يوم في بار يوناني. أمسكني الرجل من مرفقي ورأيت ثلاثةً إلى الداخل، وبقي ممسكًا بيدي والباب مفتوح، وهناك.. رأيتهم؛ زنزانة بها شخصان أو ثلاثة. لم أستطع أن أحدّد، لكنّي في الغالب رأيت ثلاثة أجساد معلّقة في مكان ما، لا أعرف كيف! اقترب بي أكثر، كنت مذهولة، وبدأ بطني يرتجف. الأجساد الثلاثة شبه عارية، وكان ثمّة ضوء خفيف يتسرّب من مكان ما. لم أعرف إن كان فتحة في السقف، ولكنّه يتحوّل إلى خيوط واهية من الرؤية التي كانت كافية لأعرف أنّهم شباب لم يتجاوزوا العشرين، أو في أوائل العشرينيّات، أجسادهم الغضّة الفتيّة كانت واضحة من تحت الدماء، أيديهم معلّقة بأصفاد معدنيّة، وأصابع

أقدامهم بالكاد تلامس الأرض، والدماء تسيل من أجسادهم؛ دماء طازجة، دماء يابسة، جروح عميقة ترتسم على أجسادهم، مثل ضربات ريشة عبثيّة، وجوههم تتدلّى نحو الأسفل، كانوا في حالة إغماء ويتأرجحون مثل ذبائح. تراجعت إلى الوراء، فأمسكني أحد الرجال، ودفع بي ثانية بصمت تامّ، في تلك اللحظة رفع شابّ رأسه بتعب، بالكاد رفع رأسه، وكانت تلك الخيوط الواهية من الضوء التي سمحت لي برؤية وجهه.

لم يكن له وجه؛ عيناه مطبقتان تمامًا، لم ألمح لمعة عينيه، لا مكان لأنفه، ولا حتى لشفتيه، وجهه مثل لوحة حمراء بلا خطوط. أحمر متداخل مع الأسود الذي كان أحمر!

تهاويت حينها على الأرض، وقام الرجلان بإنهاضي، لدقيقة كنت أتأرجح في منطقة لزجة، عائمة، وبقيت لدقائق حتى استعدت ثبات قدميّ على الأرض. سمعت أحدهما يقول للآخر: «يا زلمة هي ما بتلقى كفّ واحد. من الشوف هيك صار فيها، هي بتموت من دولاب»!

ثم تدفّقت تلك الرائحة، رائحة دماء وبول وغائط. رائحة صدأ حديد. رائحة تشبه التحلّل.

فجأة أخرجني من الزنزانة وفتح زنزانة أخرى، وهو يقوم بذلك، بدأت أصوات الصراخ والتعذيب تخرج من مكان ما، مكان بعيد وقريب، وكنت أرتجف، لم أسمع يومًا أصوات وجع تشبه هذه الأصوات، قادمة من أعمق نقطة في الأرض، وتستقرّ كلّها في قلبي. الأصوات لم تتوقّف حتى غادرنا الممرّ. فُتحت الزنزانة الثانية، وكان فيها شابّ تبدو عظام عموده الفقري مثل رسم تشريحي، ويبدو أنّه أيضًا في حالة إغماء، ظهره متشقّق، وكأنّ سكّينًا حفر خارطة فيه.

أغلقوا الزنزانة، وهكذا زنزانة وراء زنزانة، كانوا يمسكون بي من مرفقي، ويدفعونني إليها، ثم يقومون بإخراجي منها. أجساد مرميّة وراء أجساد متكوّمة، إنّه الجحيم! وكأنّ البشر مجرّد قطع من اللحم معروضة، لتبيان أفضل ما يمكن عرضه من فنون القتل والتعذيب. شباب لم يتجاوزوا الثلاثين، هكذا يتحوّلون إلى قطع من اللحم البارد في زنازين ضيّقة ورطبة، وجوه ليست بالوجوه، أجساد بتضاريس جديدة.

قلت لأحد الرجلين، وهما يقومان بشدِّ العصبة حول عينيّ ثانية: هدون الشباب تبع التظاهرات؟

ردّ أحدهما بجلافة: هدون الخونة تبع التظاهرات! انزعج من سؤالي، وهو يمسك بمرفقي، فضغط عليه بقسوة حتى شعرت أنّه سيهشّمه. لم أعرف ما يدور في ذهنيهما، لكنّ بطني عاد للارتجاف، وكان الرجل يمسك بي ويجرّني، وأتعثّر وأسقط، فلا يمهلني لأقوم ويجرّني، فتحتكّ ركبتاي بالدرج، ثم يفعل ذلك بقسوة أكبر، ثم أخيرًا جرّني على الدرج مثل كيس بطاطا، وكان ألم عظامي حارقًا حين فكّرت بالشباب الذين يخرجون للتظاهرات، أرتجف ثانية ويتركّز ارتجافي عميقًا داخل بطني. صارت الروائح كلّها في فمي، وصور الزنازين تغطّي عتمة عينيّ. توقّفنا، ونزعوا العصابة، ورأيته جالسًا وراء مكتبه الأنيق، وصدّقت أنّي لا أعيش كابوسًا. نظر بسخرية وقال: شو رأيك.. شفتي رفقاتك الخونة؟

هنا بدأ شيء ما يخرج من أمعائي بسرعة شديدة، وكأنّي أردت أن أخرج من جلدي. في الحياة أقول لصديقاتي: إنّ لمسة رجل لا تجعلك تبدّلين جلدك كأفعى ليست لمسة حبّ. الآن أستطيع القول إنّ هناك أشياء أخرى تبدّل جلودنا: الانسلاخ نحو الموت، والطيران نحو الهاوية! تلك اللحظة كانت الطيران نحو الهاوية، وعوضًا عن التحليق،

تقيّأت. كنت واقفة، وسقطت على ركبتيّ، غضبوا بشدّة، وقام من مكانه ينظر مذهولاً إلى الأثاث الذي تلوّث، وبقيت أتقيّأ. عيناي تشرّان أيضًا بالماء، لم تكن دموعًا، أنا واثقة، الدمع يتساقط كقطرات، وما خرج من عينيّ لم يكن كذلك، عادت تلك الفكرة: كلّ من يخرج للتظاهرات في الشوارع هنا إمّا أنّه يُقتل بالرصاص، أو يعيش هاربًا متخفّيًا، أو يُعتقل ويُعذّب كهؤلاء، أيّ شجاعة نبتت فجأة من هذا الصوّان؟

خرج صوتي ضعيفًا، لكنّي استطعت أن أسمعه: إنت اللّي خاين. عرفت أنّه سمعها، لأنّه انحنى وصفعني بقوّة، وسقطت نهائيًّا على الأرض، ثم بدأت الأشياء تتهاوى، وقبل أن أفقد الوعي، استطعت الإحساس بذلك. كان فمي مفتوحًا على الأرض، ودمٌ ساخنٌ ينزّ منه، وعرفت ماذا يعني قولهم بالعاميّة: والله لبزّقك الدم.

أخرجوني من هناك، وعدت لبيتي. لم أكن أنا التي أعرفني، دخلت إلى البيت وأنا أراقبني، كنت امرأة بين تخوم الحياة والموت، أراها ترمي مجموعة من المفاتيح على الطاولة، ثم تشعل سيجارتها، تغمض المرأة عينيها، تُعيد العصبة إلى وجهها، تفعل ذلك وكأنّها على خشبة مسرح، وتعود تلك الصور للأجساد الممزّقة، تمرّ ضحكة ابنتها وعينا أمّها الجميلتان. خطفًا تلمح بصيصًا، وهي تطبق بشدّة حتى تُصاب عمدًا بالعمى، وتشعر بتلك الحفرة العميقة والهائلة التي تبدأ بالتشكّل وسط قلبها. تكبر الحفرة، وتمدُّ المرأة أصابعها داخل الحفرة التي تصل أعلى رقبتها، المرأة تصير حفرة من الدمامل والقيح.

بعد مرور يومين على هذه الحادثة، كان موقعهم على شبكة النت المسمّى «فيلكا»، يصفني بالخائنة والعميلة، ثم انقضت أيّام، وكانت المناشير الورقيّة تُرمى أمام بيوت مدينة جبلة والقرى المحيطة بها، عن عمالتي وخيانتي، وتحضُّ على قتلي.

ماذا يريد مرّة أخرى، لقد هجرت بيتي، وعشت في بيت سرّيّ، ولم أعد أنشر المقالات، هل يعرف بنشاطي مع الشباب والصبايا؟ لا أظنّ، كنت خائفة، خوفي كان على ابنتي. قلت لنفسي: ربّما ينسون في غمرة ما يحدث. لكنّي تلقّيت اتّصالاً. كان هو. قال بصوت أجشّ: وليه حيوانة، لو بتروحي لآخر الدنيا بجيبك. قلت، وأنا أحاول المناورة وكسب أكبر وقت ممكن، حتى أسجّل ما يحدث على أرض الواقع: أنا لا أفعل شيئًا. قال: هذا آخر تنبيه لك. كنت سأنفجر من الغضب. حاولت الاختفاء، رفضت دخول أيّ حلقة حوار مع السلطة، وكانت الاتّصالات تتمّ بينهم وبين بعض المعارضين، واختفيت حتى على الفيسبوك.. فماذا يقصد؟ هل هو ترويعي فقط وتخويفي وجرّي إلى الجنون؟

أفكّر أنّي رواية حقيقيّة، وأنّ شخوصها وسردها بحاجة لرحابة وعمق في البناء، فأستطيع التماسك والصلابة وأمسك خيوط حياتي أكثر، هكذا كانت الكتابة تعينني على مصاعب الحياة، هكذا كنت، لأنّي روائيّة أستطيع أن أكون أكثر رحابة مع نفسي وخيوط حياتي المتشابكة والصعبة الحلّ، كنت أُدير عقدها كما أُدير دمًى متحرّكة، لكنّ الفارق أنّي كنت اللعبة والخيوط، واليد الغامضة الكبرى المجهولة. أحاول التركيز في تلك الأيّام العشرة التي كانوا يأتون فيها إلى بيتي، أربعة رجال أو ثلاثة، يقومون بوضع عصبة على عينيّ ونذهب إلى غرفة الضابط نفسها، لم أعرف إن كان هذا مكتبه فعلاً، وهل نحن في منطقة الجسر الأبيض في دمشق، أم في منطقة كفر سوسة، المسافة بدت مبهمة قبل أن أغيّر بيتي. بعد أن قمت بتغيير بيتي صارت السيّارة تدور وتدور، ثم تتوقّف، أنا أفقد تركيزي. في المرّة الرابعة أيضًا نزلت إلى الزنازين، لم يعتقلوني، لم يضعني في زنزانة، بل كنت أجول بين الزنازين،

سأكتب في يوم آخر عن رحلاتي الجحيميّة تلك. سأحاول تذكّر ما حدث بالتفصيل؛ كيف كنت أنزل من البيت، كيف وضعوا العصبة على عينيّ حالما كنت أجلس في السيّارة، وكيف يتحوّل العالم حينها إلى جحيم أسود، تلك اللحظات التي أعانت روحي على الصمت وأنا محشورة بين جسدين غريبين، أشمّ روائحهما، وأشعر بذعر إضافي. العصبة حول عينيّ، وأنا أتخيّل أنّي أدخل في العمى قسرًا، الدخول في العمى وانتظار أياد تتحرّك حولي، كنت أستعين بحالات قرأت عنها، وأفلام مرّت أمامي عن السواد المطلق للعين، في إحدى المرّات، وأعرف أنّي فقدت تركيزي، فكّرت أنّ العمى هو نافذة لتغلق الخارج، وهي باب سرّي للدخول في عتمة النور، هي فرصة للتأمّل في أعماق النفس، لذلك يصير العميان أنصاف فلاسفة. هكذا كنت أحارب العصبة السوداء حول عيني، أعاملها بازدراء. أفترض أنّي شخصيّة من ورق، ولست من لحم ودم، وأنّي أنا من يقرأ الآن عن امرأة معصوبة العينين، تُقاد قسرًا إلى مكان مجهول، لتُلعن ويُبصق عليها، لأنّها تجرّأت وكتبت شيئًا من الحقيقة لم يعجب الطاغية، وعند نقطة الخيال هذه، أشعر بالقوّة وأنسى ضعف جسدي، والروائح الكريهة، وكلّ المجهول القادم.

٢٠١١/٥/١١

دبّابات تابعة للجيش السوري تقصف حيّ باب عمرو في مدينة حمص. رجال الأمن دخلوا إلى البيوت وسرقوها، وقصف يستمرّ لساعات، وسقوط ١٩ شهيدًا، والنظام السوري سيعلن أنّه بصدد التحضير للجنة إعداد قانون انتخابات.

هدوء الآن في دمشق، والهدوء ناتج عن خطّة أمنيّة. اليوم يتكاثف الضغط الدولي على النظام؛ كاثرين أشتون تقول إنّ «النظام السوري فقد شرعيّته». بان كي مون يدعو الرئيس إلى الحوار مع المتظاهرين، ويعرب عن خيبته من ممارسات النظام ضدّ شعبه.

وبانياس تعود إليها الكهرباء والماء والاتّصالات، ويفرج فيها عن ٣٠٠ معتقل، والإعلان عن ١١ ألف معتقل في السجون.

بدأت صباحي بأخبار القتل وقصف حمص، بالكاد فتحت عينيّ، وحضّرت قهوتي، وفتحت التلفزيون، حتى جاء الخبر؛ باحث من حمص يتحدّث عن باب عمرو، التي يقطنها مزارعون فقراء. أخبار تأتي

من كلّ الجهات، كيف تقصف الدبّابات منازل السوريّين؟! مرّة أخرى: القتلة.

نمت ودموعي على خدّيّ ليلة البارحة، وأنا أسجّل شهادة صحافي دخل درعا أثناء الحصار، وأفيق وخيط يحرق عينيّ، وتعاودني نوبات البكاء، لم أعد أستطيع الاحتمال، أفكّر أنّي بحاجة للموت، ولن أكمل لقاء الناس وتدوين شهاداتهم، وأنّي سأترك ابنتي عند أبيها، ثم أمضي في التخفّي، هذا الدم يجعلني أسير نحو الجنون. نوبات ألم في الرأس لا تنتهي إلّا بحبوب «الإكزناكس» التي تجعلني أنام.

البارحة جاء تهديد في منتصف الليل، مرّة أخرى اتّصالات التهديد. كان ولدًا صغيرًا، لا أعرف كم عمره بالتحديد، منذ يومين لم أتلقّ تهديدًا.

كنت أفكّر مع إحدى الصديقات في الذهاب إلى جبلة بشكل سرّي، مدينتي التي يجب ألّا أدخلها الآن، والتي جعلها رجال الأمن البعثيّون منطقة محرّمة عليّ. اتّفقنا أن نذهب في سيّارة أحد الأصدقاء، وأن أخفي هويّتي، كان يكفي وضع غطاء على رأسي، ووضع نظّارات سميكة وارتداء فستان طويل. كان يجب أن أدخل حيّ الدريبة، ولقاء الناس، وهو الحيّ المفترض أنّه معادٍ للطائفة العلويّة، كما حاول رجال الأمن أن يوحوا للعلويّين. الحقيقة أنّه الحيّ الذي خرجت منه حركة الاحتجاج.

أيّتها السماء، أعينيني على هذا الموت المتسلسل، سيكون صعبًا عليّ، أنا بنت العائلة المعروفة في جبلة، الدخول إلى تلك المنطقة، ربّما يقتلني أيّ طرف؛ ربّما أحد السُنّة المتطرّفين، انتقامًا لموت أهله، أو أحد العلويّين الذين يعتبرونني خائنة، أو قنّاص، وربّما؟ أسئلة كثيرة.

يعود المشهد الذي حدث في مدينة بانياس عند بداية الأزمة، عندما جاء بعض غلاة العلويّين بتركسات وأرادوا هدم بيت الشيخ «ع»، رغم أنّه من أقدم سكّان المدينة، لأنّ ابنه كان في صفّ المتظاهرين، ورغم أنّ الابن اعتقل وبقي ثلاثة أيّام في السجن، إلّا أنّ ذلك لم يكفهم. السلفيّة لا علاقة لها بالسُّنّة فقط، هناك سلفيّة بين العلويّين أيضًا! زيارتي تفشل، نعود من منتصف الحيّ. صديقتي تقلق، وتقول إنّها لا تستطيع أن تخاطر بحياتي، بعد أن نلمح عدّة رجال أمن يحيطون بالمكان، كلّ عناء الطريق الطويلة، من دمشق إلى جبلة، تنتهي مهمّته في نصف ساعة. الشابّ المفترض أن يأتي إلى المكان الذي ننتظره فيه لم يأت. وصديقتي أدارت مقود السيّارة وعدنا أدراجنا، بعد أن توقّفنا قليلاً أمام بوّابة السوق القديم المقبّب، وجاء باتّجاهنا عدّة رجال أمن، فخرجنا بسرعة، قالت لي: إنّهم يطلبون الهويّات، وإذا كُشفت لن يرحموك.

قمت بتأجيل ذهابي من قبل إلى جبلة، حتى تنهي ابنتي امتحاناتها، أريد أسبوعين آخرين، والآن أنتظر، مثل قرمة شجرة عجوز، المزيد من الأخبار.

لا يوجد إنترنت، حركتي يجب أن تكون خفيفة، والهدوء، وانتظار أن ينساني رجال الأمن، وأغيب عن بالهم، ولكن هل سأغيب رغم صمتي واختفائي. الأصدقاء يريدون منّي مغادرة البلاد فورًا، يلحّون باتّصالات قلقة وخائفة على سلامتي، وأنا لا أستطيع، لكن يجب التفكير بأنّ مدّخراتي من المال نفدت، كان إيجار البيت عاليًا لأنّه في منتصف البلد، ويجب عليّ التفكير بما سأفعله بعد مضيّ الأشهر الثلاثة وكيف سأتدبّر أمري وأمر ابنتي في العيش.

أريد صباحًا بلا دماء، صباحًا واحدًا لا أشعر فيه بملوحة تعصف بحلقي، حيث تتوقّف أصابعي عن الحركة وأبقى مسمّرة أحدّق في

الفراغ. أحاول تفريغ اللقاء مع الصحافي «م. ع» الذي اخترق حصار درعا، أكتبه ثم أنقله مباشرة إلى الكمبيوتر.

شهادة «م. ع»:

(دخلت درعا عن طريق دكتور بيطري، ولم أدخل بصفتي صحافيًا، وكانت عناصر الجيش تتوزّع على كلّ مفارق المدينة، والحواجز العسكريّة ورجال الأمن في كلّ مكان. توقّفنا كثيرًا للتفتيش، وكانت تلك رحلة طويلة، رغم قصر المسافة، وكان لدى الجيش قوائم أسماء ينظرون فيها، يقومون بتفتيشنا، ثم يسمحون لنا بالدخول.

بعد أن أجريت الحوار مع الطبيب، قمنا بالتجوال في المدينة، ثم ذهبنا إلى الجامع العمري، وكانت هناك تظاهرة، وبداية تجمّع لها، رأيت معن العودات وسلّمت عليه، كانت هناك قوى أمن كثيرة تنتظر الهجوم على المتظاهرين، مع أنّه من المفترض أنّ ذلك اليوم كان يوم هدنة، لتنفيذ مطالب المتظاهرين قبل يوم الجمعة، وكان عدد المتظاهرين حوالى ١٠٠٠ شخص. لم نهتمّ كثيرًا بالبقاء، وذهبنا إلى منزل أحد الوجهاء وحكى لنا ما حصل، وهي القصّة التي يعرفها الجميع عن أطفال درعا وتقليع أظافرهم وتعذيبهم بشكل وحشي، وأعاد علينا الوجيه ما قاله عاطف نجيب للوجهاء: «بتجوا بتاخدوا أطفالكم وبتفوّتوا بدالهن نسوانكم».

لذلك قرّر المتظاهرون الاستمرار في الاعتراض، بعد أن أُهين شرفهم وعرضهم، وهم شيوخ عشائر وقبائل، وكانت مطالبهم، إضافة إلى معاقبة من قام بتعذيب الأطفال، هي إلغاء قانون الطوارئ، والقضاء على الفساد والرشوة.

يتوقّف «م. ع» عن الكلام، يتأمّل ثم يقول فجأة: بالمناسبة القنابل المسيّلة للدموع لم تكن كذلك، كانت غازات للأعصاب.

توقّف ثانية عن الكلام، وانتظرت أن يتابع، لكنّه صمت. قلت: ماذا حدث بعد ذلك؟ قال: الوجيه الذي رأيته كان من التيّار القومي في الستّينيّات، أخبرني أنّهم غير مسلّحين، وليس لديهم عصابات مسلّحة كما يدّعي النظام، وبينما أنا بينهم ونتحدّث، صارت «فزعة»، والفزعة هي دعوى لإنقاذ المتظاهرين الذين هوجموا من قبل رجال الأمن. نزلت مع كاميرتي معهم، كلّ ما أقوله لك، موثّق بالصور، وعندما رمى طفل في الثالثة عشرة من عمره حجرة من السطح على الأرض لتتفتّت ويتمّ استخدامها كحجارة ضدّ رجال الأمن، صرخ المتظاهرون به، وزجروه، لأنّ ما قام به عمل عنيف، وهم يريدون تظاهرات سلميّة. نزلت معهم وبدأت أصوّر، حينها كان مراسلوا قناة فرانس ٢٤ وبي بي سي قد طُردوا. سألوني من أنا؟ فقال لهم الوجيه، هذا من عندي، وكانت هذه الكلمة السحريّة، فحماني الناس أنفسهم، فقلت لهم أريد أن أكون معهم ولا أريد أن يحموني، وأجريت حوارات ضمن التظاهرات، وهي موجودة عندي. النقطة المهمّة التي يتحدّث المتظاهرون عنها هي انزعاجهم وألمهم من رئيس الجمهوريّة، فبعد القتل والدم الذي جرى في درعا، قام بزيارة مدينة السويداء القريبة من درعا، ولم يكترث بدم الشهداء. متظاهر قال لي: نحن نحمي بشّار الأسد، وليست أجهزة الأمن، وليختبرنا في الجولان. آخر قال: القنّاصة من حزب الله، فصرخ به من حوله: لا تتكلّم كلامًا لسنا متأكّدين منه يا أخي هذا كلام غير دقيق. جاء رجل بلحية طويلة وكان يبدو إسلاميًّا متشدّدًا أراد أن يتحدّث بإطار قضيّة سنّيّة شيعيّة، فثار المتظاهرون وطلبوا منه الصمت فصمت، وتحدّثوا فقط عن ممارسات رجال الأمن والقمع. طالبت النساء بالنزول إلى الشارع والاعتصام فوافق الرجال، وحصل أن اعتصمت النساء والرجال معًا في الجامع وكان ذلك قبل المذبحة.

نسيتُ أمرًا، بالعودة إلى الوجيه، طلبت منه سماع رأي ثان، فجاء «أ. ص» شيخ الجامع العمري السابق، ولن أستطيع أن أنقل لك ما قاله، رغم أنّه مصوّر، لأنّي وعدته أنّ كلامه لن ينشر إلّا في حال موته، أو حتى يعطيني موافقة مباشرة على ذلك، ولذلك أتحفّظ على نشر ما قاله، رغم أنّه الآن في هذه اللحظات معتقل، بعد أن قتلوا ابنه.

جاء واحد من أقرباء الأطفال المعتقلين، ربّما خاله على ما أذكر، وقال: اختطفوا الأولاد إلى السجن لأنّهم كتبوا على الحائط، وقد فعلوا الفانية بهم.

يصمت «م. ع» ويقول: تعرفين الفانية؟ أهزّ رأسي بالإيجاب. يقول: يقصد اغتصبوهم، وأنا لا أعرف ما مدى دقّة هذا الكلام لأنّه رفض أن أصوّره مباشرة، بالمناسبة بيت الوجيه الذي دخلت إليه كان يضع في صدر بيته صور حافظ الأسد وبشّار الأسد وجمال عبد الناصر. كان الأمن يقتحم البيوت ويلمّ الكاميرات من الناس وكذلك الموبايلات. في الساعة الواحدة ليلاً، وربّما الثانية عشرة والنصف، اتّصل بي أحد المعتصمين من داخل الجامع العمري وقال لي: نحن اجتمعنا هنا وحصلت مجزرة. يتوقّف «م. ع» ويقول: حتى تلك اللحظة لم يكن هناك تجهيزات طبّيّة في قلب الجامع، لكن بعد هذه المجزرة صنع المتظاهرون مشفًى ميدانيًا في الجامع تحسّبًا لمجازر أخرى، هذا كان يوم أربعاء أو خميس في آذار، وحينها ظهرت اللقطة الشهيرة على شاشات الفضائيّات والتي تقول: «في حدا بقتل شعبو إنتو إخواننا».

يتابع «م. ع»: كان رجال الأمن على رأس كلّ حارة في مدينة درعا حينها، وهذا رأيته بعيني، ويوجد سيّارة ومسلّحون، وهذا يعني أنّه من المستحيل أن تكون هناك عصابة مسلّحة دخلت إلى الجامع وقامت بقتل الناس أو تنفيذ تلك المجزرة، لأنّ التشديد الأمني كان كبيرًا ومحكمًا،

وعندما وصلتُ إلى المدخل الذي يؤدّي إلى الجامع رأيت قوّات الأمن، كان الأمن المركزي في حالة استرخاء كامل، ولم يكونوا يفعلون شيئًا، وكان واضحًا أن لا نيّة لديهم في الهجوم. أسأله: إذًا من قام بالهجوم؟

يقول: ربّما الفرقة الرابعة. قلت: لكنّهم يقولون إنّها لم تكن هناك، يقاطعني: أظنّ أنّها فرقة قوّات خاصّة منهم.

ـ برأيك من قام بالقتل في درعا؟

ـ الأمن. رجال الأمن كانوا يقتلون الناس. والجيش هل قتل الناس؟ أقول. فأجاب: لا، لا أظنّ أنّ الجيش هو من قتل الناس لكنّه كان في المقدّمة، هناك مصادر مؤكّدة تقول إنّ من يعصي أوامر الجيش كان الأمن يقوم بقتله، وهناك شهادات مصوّرة سوف أرسلها لك.

ـ ولكنّ هذا يعني أنّ الجيش كان يقتل، لأنّ عدم تنفيذ الأوامر يعني أنّ هناك من كان ينفّذ الأوامر؟

ـ نعم أحيانًا، أنا أقصد أنّ الأوامر كانت تأتي للجيش بأن يقتل العصابات المسلّحة، وهو كان يَقتل بهذا الدافع، والذي يعصي الأوامر عندما يكتشف الحقيقة، فعلاً كان يُقتل.

يصمت «م. ع». كنت أشعر بالتعب، وأنا أكتب كلماته التي تقطر بالمرارة، قال: هناك قصّة سمعتها عن أمّ في درعا، كان ابنها في الثانية عشرة ومع ذلك كان مطلوبًا للأمن، وكان هذا الابن وحيدها، فخبّأته بطريقة غريبة. كانت تنتقل كلّ يوم به من بيت إلى بيت، وكأنّها شبح، ولم يستطع رجال الأمن القبض عليه حتى وقت قريب، وبعد ذلك اختفت أخبارها عنّي، كانوا يقولون لي إنّ الأمن كان يداهم البيت الذي كانت تعيش فيه مع ابنها بعد دقائق من مغادرتها، وكان هذا بمثابة أمر نادر، لكنّها تمكّنت رغم الحصار الأمني الشديد والتواجد الأمني

الكثيف، من حماية وحيدها. هناك قصص غريبة كانت تحدث، وهي أيضًا مصوّرة عندي، أثناء حصار دوما وعندما أحرق المتظاهرون مفرزة الأمن العسكري، هجم الأمن على جنازة كانت في دوما، ووصلوا حتى إلى النعش، وقاموا بإطلاق النار على من يحملون النعش وأصيب ثلاثة منهم بجروح خطيرة، والناس هربت، وبقي النعش وحيدًا على الأرض، ووسط الإطلاق الكثيف للنار، شاهدت ولدًا لا يتجاوز عمره العشر سنوات، كان يقف وراء والده، فاقتربت منه، وبالكاد استطعت أن أسمعه ويسمعني، وقلت له: عمّو شو جايبك لهون روح إلى بيتكن. نظر إليّ والده، وقال بعد نظرة طويلة: هو مو أغلى من أبوه. وخبط على صدره، فقلت له: معك حقّ، أنا كمان رايح جيب إبني.

توقّفت عن الكتابة لأدخّن سيجارة، وكنت شبه مشتّتة أبحث عن تعليق ما أقوله بعد قصصه هذه، لكنّه أضاف بعد أن أشعلت سيجارتي: اسمعي قصّة أخرى في دوما:

من المعروف أنّ بلدة دوما متشدّدة دينيًّا وخاصّة مع النساء، وكنت أمرُّ هناك. كان المتظاهرون من جهة والأمن من جهة ثانية، ومرّت صبيّة، كانت الكاميرا معي وقد صوّرتها، أنا تخيّلتها أنّها ستمرّ من جانب الأمن، حتى تتجنّب حشود المتظاهرين الرجال، لكنّها اختارت طريق المتظاهرين وعبرت بينهم، فقلت لأحد المتظاهرين قربي: غريب كيف دخلت هذه البنت بين كلّ هؤلاء الرجال؟ قال: ربّما نحن نعيش بهذه الطريقة مع نسواننا، لكن لن تجد من بين كلّ هؤلاء الرجال من يقوم بالنظر والتحرّش بها! رغم أنّ الأمور هنا فلتانة ولا يوجد لا حسيب ولا رقيب، ولكنّنا أصحاب ضمير.

قلت للصحافي: الحياة الحقيقيّة روايات صغيرة، فكيف في ظروف كهذه!

قال مهمومًا: في مدينة الرستن قصص غريبة. كنت هناك في الرستن، المتظاهرون أسقطوا تمثال حافظ الأسد وداسوه، لكنّ ذلك حصل من الغضب والاحتقان والظلم الذي عانوه طوال عقود من الزمن. حكى لي أهل الرستن أنّ أهل تلبيسة عندما جاؤوا يعزّونهم، قدموا على دراجاتهم الناريّة، وهي وسيلة النقل التي يستخدمونها في التنقّل، وعندما دخلوا العزاء، تمّت سرقة درّاجاتهم، وهذا أكّده لي أحد آباء الشهداء: في إحدى المرّات تمّت سرقة الموتور قدّامي، فرحت لعند الشرطة، واشتكيت على من سرقه، وكنت قد رأيته، لكن في الشرطة قالوا لي، لكن هذا الرجل محبوس، يعني أنّ السرقة كانت تتمّ بالاتّفاق بين الشرطة والمحابيس، ويتمّ بعد ذلك تقاسم الأرباح بين اللصوص والشرطة.

تعرفين؟ في اليوم الذي سرقت فيه الدرّاجات الآليّة، لم يكن هناك عناصر أمن، ولم يكن هناك شرطة في الرستن، فقام أهل الرستن وقالوا لأهل تلبيسة: نحن سنأتي لكم بموتوراتكم. فقال المعزّون: لا بأس، نحن نتفهّم، فأصرّ أهل الرستن أن ينتظر أهل تلبيسة، فغابوا حوالى نصف ساعة ثم ظهروا مع الدرّاجات الآليّة. لاحق أهل الرستن اللصوص وجمعوهم في مكان واحد، وقالوا لهم: إمّا حياتكم وإمّا موتورات الضيوف، فسلّموا لهم الدرّاجات الآليّة. صمت «م. ع» بعد أن أنهى القصّة، وقال: هذا يعني أنّه لم تكن هناك دولة، والناس كانت تحلّ أمور بعضها فيما بينها بالحقّ.

صمتّ وانتظرت منه شيئًا. قال: الباقي سأعطيك إيّاه مسجّلاً، أنا متعب. قلت: هذا أفضل بكثير).

شعرت بالامتنان له، فقد كانت تمرّ لحظات، وهو يروي لي بعض القصص أحبس دموعي أمامه، أمّا الآن فقد أعفاني من هذا الارتباك.

٢٠١١/٥/١٥

لم أجلس للكتابة يوم الجمعة كما قرّرت أن أفعل، ولا حتى اليوم الذي يليه، كان ما يحدث الآن أكبر من الكتابة عنه، أريد المزيد من الوقت لأكون قادرة على التركيز في ما يحصل. منذ ليل الخميس وحتى هذه اللحظة، وبعد أن نفدت حبوب «الإكزناكس» التي كان تأمينها صعبًا هنا، فبقيت يومين مستيقظة.. لا أنام.

غفوت ساعتين فقط، وكانتا كفيلتين بجعلي أركّز ولو بشكل ضعيف؛ ماذا حصل؟ يوم الخميس عندما كنّا نجلس أنا وابنتي وحدث ما حدث. خبر شبه مؤكّد، ولا شيء مؤكّد هذه الأيّام إلّا لعنات الموت وزخّات الرصاص، والترقّب، لكنّ الأساس هو الشجار المتواصل بيني وبينها، كنت أحاول بشتّى الطرق إعادة الطمأنينة إلى قلبها، ولكنّي فشلت، وحتى تلك اللحظة التي جاء فيها ذلك الرجل وطلب منّي مغادرة البلاد فورًا، خوفًا على حياتي، لأنّ لديه معلومات أكيدة عن تصفية بعض الشخصيّات العلويّة، وإلصاق التهمة بالعصابات المسلّحة والسلفيّة، قال إنّ اسمي تردّد بين هذه الأسماء.

كان الرجل يتحدّث ببساطة أمام ابنتي، وكنت أثق به وأعرف أنّه يخاف عليّ، لكنّي فوجئت بما قاله، وشعرت بفداحة الخطأ الذي ارتكبته بجعل ابنتي شاهدًا على حديثه. اصفرّ وجهها. ودخلت غرفتها وأقفلت الباب. انصرف الرجل وبقيت معها في صمتها وخوفها، صديقتي التي كانت شاهدة على الحوار تقنعني بضرورة فكرة الرحيل فورًا، وأنا أؤكّد لها أنّ هذا كلام غير منطقي، خاصّة أنّ النظام يحاول المناورة الآن، ويسحب الجيش من المدن ويعلن حالة الحوار الوطني، وليس من مصلحته الآن القيام بأيّ أعمال عنف. هذا من جهة ومن جهة أخرى، لم يكن بإمكاني الرحيل من دون ابنتي، وهي كانت ترفض بصرامة مغادرة البلاد، ومن الصعب أن أعيش متخفّية لأتابع الكتابة والعمل، لا يوجد مكان أتركها فيه. قرّرت ألّا أسافر حتى تقبل بذلك، ولو كلّفني ذلك حياتي. امتنعتْ عن محادثتي، ولم توجّه إليّ ولو كلمة واحدة، وقالت بصرامة: إنّ الطريقة الوحيدة لعودة الأمان إليها أن أظهر على التلفزيون الرسمي وأعلن ولائي للرئيس، وتعود حياتنا كما كانت، وأنا وقفت مذهولة أمام ما تقوله، حاولت أن أشرح لها، حاولت إقناعها أنّ ذلك سيعني الانتحار بالنسبة لي، وأنّ دماء الناس الذين قُتلوا ليست أغلى منّي، لكنّها رفضت الاستماع، كانت تعرف سطوتها على قلبي. قلت لها بصرامة: لن أفعل. قالت: ولن أسافر معك.

كان البيت الجديد الذي استأجرناه غريبًا، غرفتا نوم مفتوحتان على الصالون، تفصلهما أبواب متحرّكة، وكنت أستطيع سماع حركة خطواتها وهي في داخل غرفتها، كانت تمشي بعصبيّة وقلق، وتكسر بعض الأشياء، وتصرخ، وأنا كنت أفكّر أنّ الوقت قد حان لإجبارها على السفر، خاصّة بعد لقائي بأحد الأصدقاء المقرّبين من حزب الله، وأثق به، وأثق أنّه غير فاسد، وكان مع النظام ولكنّه رجل غير متكسّب،

ويميل إلى العلمانيّة في حياته، مع ذلك عندما نشر موقع فيلكا الاستخباراتي التابع للأمن السوري، ما نشره عنّي، غضب بشدّة، واتّصل بي وقال إنّه يريد رؤيتي. جاء إلى دمشق، والتقيته يوم السبت البارحة ظهرًا مع صديقته، كنت غاضبة، وكان هادئًا، وبدا متأثّرًا وطلب منّي الهدوء، وقال إنّه جاء للتوّ من عند من يقومون بتلفيق الأخبار عنّي، وفبركة الإشاعات. ببساطة كان على صلة وثيقة بأصحاب القرار، وبأصحاب من يعملون على الحرب الإعلاميّة والنفسيّة ضدّ الانتفاضة ومن يؤيّدها. بدا مهمومًا جدًّا، وهو يطلب منّي الهدوء. عندما عرف ما حلّ بي في الأيّام الماضية، تأثّر أكثر، وسألني إن كنت أحتاج شيئًا، وأنا صرخت أمام صديقته التي كنت أعتذر منها بين وقت وآخر على صوتي العالي: فليتركوني وشأني، هذا ما أريده، ليحلّوا عنّي، وليتوقّفوا عن مراقبتي ليلاً نهارًا. قال: الأمر ليس بهذه البساطة. قلت: كيف ليس بهذه البساطة؟ قال: اكتبي شيئًا يقول إنّك ضدّ ما يحدث في الشارع. هنا وقفت. شعرت أنّ جسدي سيخترق السقف الإسمنتي. أنا أعرف أنّي أغضب كالمجانين، لكنّي حينها كنت على وشك الموت، أن يلفّقوا الأخبار عنّي، وأن أهجّر من بيتي ويتمّ تهديدي ليلاً نهارًا، ثم ينشرون الأكاذيب عنّي، ويحرّضون كلّ علوي في سورية على قتلي، ثم بعد ذلك، أكون مطالبة بكتابة مقال تأييد للنظام ورئيسه؟ صرخت بوجهه.

قال: لن يتركوك بحالك، كان هناك تيّاران بخصوصك، موضوعك نوقش في أعلى المستويات، وهناك قسم منهم قال إنّهم لن يتركوك وحالك لأنّك منهم وفيهم، وقسم آخر قال إنّه يجب أن تتمّ معاقبتك أكثر من غيرك، وقالوا السجن قليل عليك، وقرّروا أن يجعلوك تندمين على ما فعلته، إنّهم غاضبون جدًّا منك، كبارهم غاضبون منك.

تنهّدت، وقلت: كبارهم غاضبون منّي، فيقومون بتخويني،

وترويعي وتشويه سمعتي، وجعلي أعيش مطاردة متخفّية؟ قال: يجب أن تخرجي من هنا، قلت: أنا كتبت ما رأيت ولم ألفّق وهم يعرفون. لم يردّ على كلامي وطلب منّي برجاء أن أغادر سورية بأسرع وقت ممكن، أنت في خطر حقيقي، أنت في عرفهم خائنة، ومحرّضة عليهم.

قلت له: قل لهم إنّي صمتّ. ألا يكفي هذا؟

قال: اكتبي شيئًا يرضيهم.

قلت: لن أفعل، بعد كلّ هذا الظلم تريدني أن أخون ضميري. لن أفعل.

وانتهى حوارنا عند هذه النقطة، ودّعني بيأس شديد، وكرّر رجاءه بتهذيب شديد أن أغادر سورية فورًا. بعد مغادرته صعدت شرفتي مباشرة، ورأيت الرجلين اللذين يتبعانني. منذ أربع وعشرين ساعة اكتشفتهما، كان هناك مقال كتبته صحافيّة عنّي في جريدة، وبعده جاء تلفون غريب، وفيه تهديد يقول إنّه التهديد الأخير، وإنّي وعدت أن أصمت، وقد خلفت بوعدي، كنت أفكّر أنّ من يقوم بالتهديدات ربّما يكون من خارج أجهزة الأمن، ربّما أُناس من العلويّين الذين يتّصلون بشكل دائم ويهدّدونني أنا وابنتي. لكنّي خفت فعلاً عندما اكتشفت وجود الرجلين أمام بيتي! كيف عرفوا بسرعة بيتي الجديد؟ هل يركّزون على تحرّكاتي كلّ هذا التركيز وسط هذه الظروف الصعبة؟ أنا أسبّب لهم الحنق على ما يبدو، وأُثير غضبهم. ما الذي سيجعلني لا أثير غضبهم؟ الصمت، كانت مجرّد مادّة صحافيّة عنّي، كيف لو أنّ المحرّر لم يحذف آخر جملة كُتبت عن لساني في المقال: السؤال هو من يقوم بقتل الطرفين؟ وكنت أقصد من يقوم بقتل عناصر الجيش والمدنيّين من المتظاهرين؟ حذفها محرّر الصفحة في الجريدة، أظنّه فعل ذلك من أجل

سلامتي، وكتبت الصحافيّة كلامًا معتدلاً عنّي، ومع ذلك أثار المقال غضبهم، وقال صاحب الصوت الغاضب: «إذا ما بتختفي يا سمر يزبك، رح أخفيك عن وجه الأرض».

كان هذا ليل الجمعة، وكنت أستعدّ لكتابة يوميّاتي، وجاء بعده الرجل الذي تحدّث أمام ابنتي عن تصفية بعض الشخصيّات العلويّة، ولم أستطع أن أكتب. جلست على شرفة المنزل، التي هي في الأساس سطح البناء، كانت شوارع دمشق خالية. يوم الجمعة تحوّل إلى يوم رعب بالنسبة للسوريّين، تكاد تختفي فيه الحياة وينتشر فيه رجال الأمن، في كلّ مكان. ومؤخّرًا بعد أن قامت بعض المظاهرات، توزّع رجال الأمن بشكل أكثر كثافة، كنت أدخّن سيجارتي وبرد يلسعني، وشعرت أنّ جسمي رمل يتحرّك، ماذا أفعل؟ حتى الكتابة اليوم أعجز عن فعلها، ابنتي في غرفتها المقفلة. أهلي انقطعت العلاقة بهم بشكل غريب، لم يعودوا للاتّصال بي، وأنا لم أتّصل بهم بعد حادثة التخوين. الأصدقاء قد تمرّ أيّام دون أسمع منهم أو يسمعوا منّي. لا يوجد عندي إنترنت، وحركتي تتحوّل إلى معدومة يومًا بعد يوم، والشهود الذين كنت أحاول اللقاء بهم لأرشفة يوميّات الانتفاضة صاروا يتناقصون أيضًا.

أتيت بكأس نبيذ أبيض، وجلست تحت السماء الباردة، أردت التفكير بشكل جدّي بما يتوجّب عليّ فعله، لم أكن جاهزة لكلّ هذا العنف ضدّي، ضدّي أوّلاً، وضدّ الناس ثانيًا. لم أكن جاهزة لكلّ هذا الترويع، ويجب عليّ الهدوء والتفكير بصوت عاقل. بدأت حرارة النبيذ تتسرّب إلى أطرافي، الشعور الوحيد الذي جعلني تلك الليلة أبكي بمرارة، هو الوحدة، ليس الخوف. الخوف كنت أعيشه في كلّ لحظة، ولكنّي في تلك الليلة، وقبل أن أدخل إلى غرفة ابنتي، عرفت فعلاً كيف يمكن أن يكون المرء وحيدًا، وكيف يمكن أن تضيق به جهات الأرض،

وهو أعزل لا سلاح لديه سوى قلبه وجسده الهزيل المتحرّك، وحينها عرفت أيضًا كم هو ضروري أن يكون الإنسان قادرًا على إنتاج نفسه بنفسه وإعادة خلاياه الميتة مثل سطور في كتاب، هذا شعور حقيقي وليس مجازًا أقوم بتدوينه عبر كلمات.

فعلاً كنت امرأة ميتة. يكسو عظمها جلد يابس، وهي الآن بحاجة لإعادة تكوين خلاياها، كما يحدث في فيلم خيال علمي. وقفت تلك اللحظة، وكان رأسي خارج الشرفة، وتنشّقت الهواء البارد، وشعرت بنعمة التحرّر من الإحساس بالعيش والتحوّل إلى جماد، ثم جاءت الفكرة النقيضة في اللحظة نفسها. أوّلاً شعرت أنّي ميتة، ومن ثم استبعدت الفكرة، كانت لحظة فقط، ربّما أكثر، لحظة دفعت فيها بجسدي نحو حافّة الشرفة، وصار نصف جسدي معلّقًا في الهواء. كانت لحظة حرّيّة، رائعة وشفيفة مثل طيران لامتناهي الحدود، وكنت بحاجة حينها للحظة من حرّيّة أكبر كي أطير في الهواء نحو الهاوية؛ الحرّيّة الوحيدة في الموت. أغمضت عينيّ لكنّي لم أقوَ على فرد ذراعي في الهواء. أغمضت عينيّ وتخيّلت تلك الرسوم الطائرة التي كانت تأتيني في الحلم بين وقت وآخر. الرسوم التي حلمت بها للمرّة الأولى عندما كنت أُشاهد فيلم «المريض الإنكليزي» وعندما تدخل كاثرين مع حبيبها إلى الكهف، ويكتشفان على جداره الرسوم الطائرة والسابحة في أبديّة العتمة، تلك الهواية القاتلة في السباحة في العدم، تقمّصتها للحظة، ثم اختفت. فتحت عينيّ وراحت لحظة السحر الخاطفة التي كانت ستنقلني إلى العدم، إلى طيران سريع في الهواء، ثم النوم الطويل، بكلّ جبن عجزت عن القفز والطيران نحو طمأنينة الموت. ابنتي كانت تسكن في عقلي. لطالما فعلت ذلك، لطالما أنقذتني من الموت.

دخلت البيت وأغلقت باب الشرفة، كنت شبه منوّمة، لم أذهب إلى

سريري، ذهبت إلى سرير ابنتي، كانت مستيقظة، وعيونها محمرّة من البكاء، اندسست قربها، وطوّقتها بذراعيّ، ثم كوّرتها في حضني، كما كنت أفعل وهي في الثانية من عمرها، بكينا كثيرًا تلك الليلة، كلّ ما كان ينقصني من بكاء في عمري الماضي، بكيته، وهي تبكي معي. نمنا على دموعنا، وعندما أفقت بعد حوالى نصف ساعة، كانت مستغرقة في سبات عميق، على الوضعيّة نفسها التي كوّرتها فيها، وبدأ قلقي. فكّرت بالكتابة.. وقمت أكتب.

كان هذا يوم النكبة، ولم يمرّ بشكل عادي مع الثورات والانتفاضات في العالم العربي. شباب يواجهون الإسرائيليّين بصدورهم العارية، قدر شباب هذا المكان أن يحتفلوا بالموت بطريقة خاصّة سواء برصاص أنظمتهم المستبدّة، أو برصاص الإسرائيليّين.

لم أدوّن عن جمعة الحرائر والقتلى الستّة الذين سقطوا بيد رجال الأمن في كافّة المدن السوريّة، ولم أستطع ملاحقة الأخبار كما اعتدت، لكنّي لم أشاهد في هذا اليوم المخصّص للتضامن مع النساء الشهيدات اللواتي سقطن في الانتفاضة الفلسطينيّة، ولم أشاهد الشعارات التي تعزّز وجود النساء في الاحتجاجات السوريّة. النظام يقول إنّه يحضّر لحوار وطني، ولكنّه يستمرّ في القتل والاعتقال. الدبّابات تنسحب من بانياس ودرعا، ولكنّها تنتشر من جديد في ضاحية داريّا قرب دمشق.

أفكّر بما يجب أن أفعله غدًا، أن أذهب للسؤال إن كنت ممنوعة من السفر، أن أذهب إلى الهجرة والجوازات من أجل إصدار جواز سفر لنوّارة، أن وأن...

الآن أستطيع أن أفهم تلك الصيحة: إلٰهي لماذا تخلّيت عنّي!

٢٠١١/٥/١٦

هذا الصباح الأسود، وخزات حادّة في صدري، وموجات من الصفير الحادّ تعصف داخل أذني، كانت هناك مجموعة من المؤشّرات التي جعلتني أستجيب لطلبات الأصدقاء منّي، الصمت التامّ، الاهتمام بنفسي، والتواري نهائيًّا عن الأنظار. الدكتور «ع» قال لي إنّ ما أفعله انتحار، وإنّني يجب أن أحيّد نفسي. طلبوا منّي أن أتوقّف عن رؤية الناس والمتظاهرين أو حتى التحرّك على الأرض.

كنت أعتقد أنّ لديّ هامشًا بسيطًا لمتابعة ما يحدث بأمّ عيني، أو متابعة الناس الذين يتحرّكون في التظاهرات، لكنّ ما حدث معي مؤخّرًا جعلني أتوقّف، إضافة إلى شعوري أنّي أعيش إقامة إجباريّة في البيت. الهواتف مراقبة، البيت مراقب، كلّ تحرّكاتي ملاحقة.. لكن حتى تلك اللحظة، وجدت أنّ بإمكاني التحرّك بهدوء، لولا الإشارات التي جعلتني أقتنع أنّي بحاجة لاستراحة.

الإشارة الأولى كانت في منتصف الليل قبل أسبوع، كنت أغطّ في

نوم عميق بعد نصف حبّة إكزاناكس، ولكنّي فجأة سمعت صراخًا. أفقت مذعورة، ووقفت مباشرة، حتى أنّ رأسي كاد أن يصطدم بالسقف الخشبي بعد أن قفزت على الفراش، وخُيِّل إليّ للحظة أنّ ابنتي خُطفت من البيت. صرخت بحدّة. كنت أصرخ وأجول في البيت. صديقتي التي كانت تجلس في الصالة، أمسكتني من ذراعي، أبعدتها بعنف، ربّما كانت الساعة لم تتجاوز الثانية عشرة، وعندما رفعت الغطاء عن فراش ابنتي، وكان الفراش خاليًا، صرخت أكثر.

لم أكن أنا فعلاً، كان هناك شي وحشي يخرج من صدري، يقين هبط عليّ فجأة، بأنّ ابنتي خُطفت، وأنّ التهديد بإيذائها تمّ، لكنّ باب الشرفة انفتح فجأةً، وظهرت مذعورة، كانت على الشرفة، وأنا كنت ألهثُ، وصديقتي إلى جانبي مذعورة من صراخي، نظرتا إليّ بارتياب، صرختُ: وين كنتِ؟ قالت: على الفارندا. تركتهما وعدت إلى فراشي، كان قلبي يدقّ بسرعة، وأرتجف، كلّي أرتجف، صمتتا، وأنا صمتّ، لم أبك، بقيت عيناي مفتوحتين حتى الصباح، ولم أعرف متى استطعت أن أغفو أقلّ من ساعة.

الإشارة الثانية، كانت في فجر تلا الحادثة السابقة بيومين، الساعة الرابعة والنصف صباحًا، وأنا أراقب من الشرفة الفجر وقاسيون المواجه لبيتي، والعشوائيّات التي تمتدّ فيه فوق منطقة المهاجرين. كنت أشعر ببرد، ولكنّي منتشية بالصمت والسكون، الذي يغويني، حيث لا أحد من الممكن أن يقطع عليّ لحظة العماء هذه. دخلت إلى البيت وحضّرت ركوة قهوة، وكنت في لحظة أعبر الصالون لأدخل الحمّام وأغسل وجهي. في العادة أنا أراقب من النافذة الواجهة الخلفيّة للأبنية التي تسحرني بتفاصيلها الخرائبيّة، بيوت دمشقيّة عتيقة، وعرائش تنتشر بين الأبنية الترابيّة المتهدّمة، وأسطح مبلّطة بحجارة قديمة مزخرفة، شبه

منهارة. كانت هذه الأماكن تشكّل الخلفيّة للمحلّات التجاريّة، لكنّ رؤيتها من الداخل كانت تجلب شقاء ما، خاصّة البيت القرميدي الدمشقي الطراز المتآكل، والمتهدّم، والمتروك للخراب. كنت أطلّ على ذلك البيت، وأحاول الإنصات لصوت هسيس صدر من بين العرائش. في تلك اللحظة، وأنا أدير رأسي من نافذة الحمّام، لأتناول المنشفة، رأيت نفسي، نعم رأيت نفسي بكلّ وضوح. كنت أقف أمام نفسي، وأنظر إليها، شعور مخيف. لم أصرخ، ولم أتحرّك، كانت لحظة، نظرتُ إليّ بعمق، التي هي أنا، وحدّقتُ في العين طويلاً، لكنّها لم تكن غاضبة، أقصد أنا لم أكن غاضبة وأنا أنظر إليّ، كانت فقط نظرة عمياء صارمة. ركضت، إلى الصالة، واختفت هي/ أنا.

الإشارة الثالثة كانت البارحة تمامًا، كنت غاضبة من الرسائل التي تنهال عليّ: قسم من المعارضة يرسل لي رسائل تتّهمني بالتخاذل لأنّني صمتّ، لكنّني لم أصمت في الواقع الفعلي، وكنت أستغرب هذه الرسائل! رسائل من علويّين تتّهمني بالخيانة. رسائل تهديد بالقتل من الموالين للنظام. رسالة غريبة وصلتني قالت: أيّتها الكافرة السافرة إنّ الثورة السوريّة لا تريد بين صفوفها علويّة كافرة مثلك.

الرسائل تنهال من كلّ صوب، أنا في تقاطع نيران!

كانت الإشارة الثالثة في ذلك اليوم حادّة، كنت أصرخ في البيت وحدي، وأركل الأغراض والساعة التي جعلتني أعيش في هذا المكان الضيّق الأفق، وأعبر من الشرفة إلى غرفة الجلوس. رأيت نفسي جالسة بغضب، أنظر إليّ، ثم فتحت تلك المرأة التي هي أنا فمها وهمست. لم يكن همسًا، كان فحيحًا، ونظرت إليّ نظرة شيطانيّة، كنت أنا، ولم أعرف لثوان أنّي لست أنا. في تلك الثواني كانت المرأة تهمُّ بالنهوض، تحمل في يدها شيئًا ما، وتحاول التوجّه إلى صدري، وكانت يدي

تمسك قلبي. لم يتجاوز الأمر أكثر من لحظات. أغمضتُ عينيّ، فاختفت، لكنّي فكّرت أنّي عندما سأفتح عينيّ سأكون ميّتة. لم تقتلني، لم أقتلني، لكنّ صفّارات حادّة تطنّ في رأسي.

اليوم أيضًا قتلى يصلون إلى لبنان. صورة طفل يصرخ وامرأة تُقتل، امرأة أخرى جريحة. الرصاص ينطلق من الجانب السوري. عسكري لبناني قُتل بهذا الرصاص. بشر يتراكضون ويتدافعون هاربين من الحدود. نساء يحملن أشياء بسيطة على رؤوسهنّ، ويعبرن إلى لبنان. الصليب الأحمر يطلب مساعدة، واللاجئون الذين يصلون ينتظرون المجهول. دبّابات تجتاح بلدة العريضة. ينسحبون من مدينة ويحاصرون مدينة أخرى، والرئيس يقول إنّ الحوار مع المعارضة سوف يبدأ، والمعارضة اشترطت منذ البداية أن يتوقّف القتل وحصار المدن، وإطلاق سراح كافّة معتقلي الرأي قبل البدء بالحوار. ولكنّ القتل ما يزال مستمرًّا، والحصار ينتقل من مدينة إلى أخرى. أنباء مؤكّدة تصل أنّ الرئيس كان قد أعطى أوامر بانتهاء الحلّ العسكري في ١٥ الشهر، وأنّ الخيار الإصلاحي بدأ. أظنّ أنّ هذه الأنباء قد بُثّت من قبل الأمن نفسه، لأنّهم أعلنوا منذ البارحة في التلفزيون الرسمي أنّهم انتصروا على المسلّحين.

ألن يقوم الرئيس بتشكيل لجنة للحوار مع المعارضة؟ لوحة سرياليّة يقومون برسمها هذه الأيّام، لكنّي أعرف أنّ كلّ ذلك ليس إلّا التفافًا على حركة الانتفاضة في المدن والبلدات السوريّة، وأعرف أنّ الإصلاحات الحقيقيّة التي يطالب بها المتظاهرون تعني أمرًا واحدًا هو سقوط النظام. الفرق أنّ هذا السقوط سيكون سلميًّا، في حال نفّذوا وعودهم بانتخابات ديموقراطيّة.

لست مؤمنة أنّهم سيتنازلون عن الغنيمة التي ينتظرونها من هذا البلد

ببساطة، سيحاربون حتى الرمق الأخير، حتى لو حوّلوا سوريّة إلى قبر كبير، لهم وللشعب أيضًا.

الآن، وتحديدًا في الساعة التاسعة صباحًا، وفي ساحة عرنوس والتقاطع الذي يصل بين حيّ الروضة والشعلان والحمراء والصالحيّة، تزعق سيّارات إسعاف. أخرج إلى الشرفة، كنت أراقب مصدر هذه الأصوات، وكنت أظنّها قبلاً تابعة لسيّارات إسعاف، لكنّي اكتشفت أنّ سيّارات أجرة تاكسي صفراء تقوم بإصدار هذا الصوت، فيبقى الناس خائفين، ويتراجعون. وفي العادة تكون السيّارة فيها بعض الرجال. أنظر من الشرفة، أيضًا سيّارة أجرة صفراء فيها مجموعة من الرجال وتصدر أصوات سيّارة إسعاف، بسرعة تقتحم إشارات المرور، والناس تبتعد أمامها، وكلّنا نخرج للشرفات، والناس في الشوارع تخاف وتبتعد، في الواقع أنّ من يقوم بهذا الأمر هم رجال الأمن أنفسهم، وكلّ من في دمشق يعرف أنّ غالبيّة سائقي التاكسي مجنّدون لخدمة أجهزة الأمن، وهذه التصرّفات تدخل من باب الترويع من جهة، ومن جهة أخرى يقومون باعتقال واختطاف الشباب من الشوارع فيها، وأنا شاهدت الكثير من الحوادث بأمّ عيني، خاصّة أثناء التظاهرات. كيف يصطادون الشباب واحدًا واحدًا، ويرمونهم في سيّارات التاكسي تلك، ومن ثم ينطلقون مسرعين، وتعود أصوات الزعيق تصدر من السيّارة بعد ذلك.

بعد كلّ صوت صرت أسمعه في دمشق، كنت أتخيّل سوريًا تُسلب منه حرّيته. الآن أيضًا، أستطيع تخيّل ما يعنيه زعيق سيّارات كهذه.

٢٠١١/٥/١٩

اليوم، يستمرّ القصف على مدينة تلكلخ، وصور اللاجئين إلى لبنان تؤرّقني. الشهادات التي أسمعها من الناس المتواجدين في قلب الأحداث تجعلني أكثر توتّرًا، بالكاد أحافظ على هدوئي، أو أستطيع التركيز في أمرٍ ما. سيكون من الصعب عليّ الاستمرار على هذا النحو، كنت قد حاولت ليومين الاسترخاء، ولكنّي لم أفلح، الحلّ فقط في الحبوب المنوّمة، لكنّها حوّلتني إلى جثّة متحرّكة، أنام وأفيق، ثم أدور في البيت كتائهة وأعود إلى فراشي.

أخرج إلى الشرفة، الساعة الآن الخامسة والنصف مساءً، أنظر إلى الشارع لأتأكّد إذا كان المخبران ما يزالان أمام بيتي، ربّما أنا واهمة! لا ألمح أحدًا، لم أخرج منذ يومين من البيت وهذا الثالث. أقوم بإلهاء المخبرين عنّي، وهما يتناوبان المراقبة، أنا أحظى بامتياز!؟ أفكّر بمحاصرتي على هذه الطريقة الكوميديّة التراجيديّة، وأحاول التركيز في ما حصل خلال اليومين الماضيين. مقاطع ڤيديو عن اليوتيوب ترهق أعصابي، وأخبار كثيرة من هنا وهناك، مواعيد مع شهود في عدّة مدن،

تُلغى بسبب الخوف، وأنا صرت أخاف على أصدقائي من الالتقاء بهم، لأنّ وجودي قد يسبّب لهم المشاكل، ورسائل الكراهية ما تزال تنهال عليّ من كلّ الأطراف، اليوم وصلتني رسالة تطلب منّي العودة إلى ما كنت عليه وعدم التخاذل، وأن لا أترك الشعب السوري في محنته بسبب خوفي، يقول صاحبها إنّه وجد بي المرأة السوريّة الحرّة، ولكن يبدو أنّ النظام استطاع تخويفي، أو ربّما لأنّي علويّة!

أصمت عن الرسالة ولا أردّ، ماذا أقول له ولأمثاله عن الشجاعة، هل أقول له إنّي أجاهد لأبقى على قيد الحياة! إنّ المطلوب منّي أن أكتب مقالاً للتأييد أو الظهور على شاشة التلفزيون الرسمي وأعلن الولاء! ماذا أقول عن الرسائل التي تصلني من علويّين وتطالبني بالوقوف إلى جانب ناسي وأهلي! هل أقول له إنّ مسؤولين كبارًا في النظام يريدون منّي العمل لصالحهم! ماذا أقول للرسائل التي تظلّ تأتي من أهالي مدينتي وتهدّدني بالقتل، ويعلنون تبرّؤ أهل مدينة جبلة منّي! بل ماذا أقول للرسائل التي تطالبني بالعودة إلى طريق الإسلام الصحيح! أتجاهل كلّ الرسائل، ولا أردّ. أحاول العودة إلى الشهادة التي كتبتها من طبيب مخدّر استطاع الدخول إلى درعا.

كان الرجل مشتّتًا، وبالكاد يستطيع إعطائي بعض المعلومات. كان الطريق إلى رؤيته صعبًا، فكان عليّ أن أقوم بتغيير التاكسي ثلاث مرّات، وأن أدخل بعض الحارات الفرعيّة في البلدة الواقعة إلى جنوبي دمشق احتياطًا من ملاحقة الأمن، فكّرت أنّه سيكون من الصعب عليّ تقبّل أن يُعتقل أحد بسببي، وأنّي لن أسامح نفسي لو حدث شيء من هذا القبيل. أقوم بتغيير سيّارة الأجرة الأخيرة، قبل أن أصل إلى موعدي مع الصديق الشابّ، الذي سيأخذنا إلى بيت الطبيب.

إنّ فكرة خروجي من البلد يجب أن تكون قريبة، لن أحتمل العيش

بهذه الطريقة فترة طويلة، في كلّ يوم أستفيق فيه أشعر أنّ قلبي سيتوقّف، وأنّي أصل إلى حوافّ الجنون، وسط دوّامات من الصداع التي لا تنتهي إلّا بالمسكّنات والأدوية. كان المكان طبيعيًا، وفي دمشق وضواحيها تبدو الكثير من الأماكن طبيعيّة، وكأن لا شيء يحدث، لكنّ كلّ شيء قابل للانفجار في أيّ لحظة. هذا الصباح التقيت بصديق كاتب من السويداء، وأخبرني عن التنكيل الذي تعرّض له من أهالي قريته وأقربائه لأنّه تظاهر، وأنّ إحدى جاراته قالت إنّها ستسلّمه للأمن بتهمة الخيانة، قال لي إنّ في السويداء حالة فظيعة من التشفّي والحقد على أهالي درعا، وهذا زاد من حزني وقلقي. ترك بيته وجاء إلى العاصمة هربًا من التنكيل. قال إنّه سيكتب كلّ ما يحدث معه حتى يكون شاهدًا للتاريخ فيما بعد، وأنا أفكّر بكلماته، جعلت أوّل شيء سأفعله هو إرسال هذه اليوميّات لمجموعة من الأصدقاء في الخارج في حال قاموا باعتقالي أو قتلي، كما سمعت أنّهم يحضّرون لي ولغيري، أو في حال حدوث أمر ما ونشوب حرب. المكان هنا مفتوح على كلّ الاحتمالات، لكن كلّ هذه الاحتمالات سوداء ولا تبشّر بالخير، كنّا نعيش في القلق ونحرسه ونرعاه، ونموت فيه. أعود إلى دفتري، وأبدأ بنقل حواري مع الطبيب من مدينة درعا. يقول:

أنشأنا مركزًا طبّيًا سرّيًا لإسعاف الجرحى، وهو ما نفعله هنا في دمشق، عند الحاجة، وفي مدينة بصرى هناك مشفى يسيطر عليه شباب الانتفاضة، أنشأنا المركز الطبّي من أوّل أسبوع، من ٢١ آذار، في البداية كنت أذهب ثلاث مرّات في الأسبوع وكنت أعمل مخدّرًا لمركز طبّي، وبعد أن بدأت الأحداث، أنشأنا هذا المركز.

ـ ماذا كنتم تفعلون في المركز؟ يصمت قليلاً عندما أسأله، يعود ويتنهّد. كان مضطربًا أكثر من الأوّل. يقول:

ـ في درعا حدثت فظاعات لم تحدث في مصراته ولا في غزّة، الفرق. (يعلو صوته): هناك فوسفوري في مصراتة، وفي درعا كان القتل مباشرة، كانت تأتينا إلى المركز حالات متنوّعة من القتل، ولكنّ أغلبها قُتل بالرصاص في الرأس والصدر. هل تعرفين؟ سمعت هذا من الأمن وأنا أجتاز الحواجز، كانوا يقولون إنّهم سيربّون سورية كلّها بمدينة درعا، لذلك ركّزوا عليها بالقتل والتنكيل، وأحد الأمور التي اكتشفت حديثًا، وهي المقبرة الجماعيّة لعائلة أبا زيد، هل تعرفين قصّته؟ ـ يتابع ـ كان لهذه العائلة منزل جميل، والأمن كان يريد أن يأخذ البيت، فعارض صاحب البيت ولم يقبل أن يخرج من بيته، فقتلوه مع أولاده وأخذوا البيت، ليس بيت عائلة أبا زيد وحدها بل بيوت كثيرة في درعا، وكانت كلّ حارة مفصولة عن الحارة الأخرى بالدبّابات والحواجز العسكريّة. كانت هناك امرأة فلسطينيّة تقوم بإدخال الأدوية والأغذية لهذه الحارات من المخيّم الفلسطيني، الناس كانوا يتساعدون.

ـ ما معدّل عدد الجرحى في المركز يوميًّا؟

ـ هناك عدّة مراكز غير مركزنا، الشباب يشتغلون دائمًا. النساء اللواتي بقين على قيد الحياة والرجال فوق الخمسين، والباقي أؤكّد لك أنّهم كانوا إمّا معتقلين أو هاربين أو قتلى. تخيّلي أنّه ولمدّة ١٥ يومًا، كان كلّ من يمدُّ رأسه من نافذة بيته يُقتل، حوّلوا درعا إلى سجن كبير، والكهرباء والماء والاتّصالات كانت مقطوعةً ٢٠ يومًا، أنا رأيت برّاد الخضار الذي وضع الشباب فيه الجثث حتى يحفظوها استعدادًا لدفنها بسبب حظر التجوّل. سألت الشباب أين الجثث؟ قالوا إنّها في برّاد الخضار حتى لا يسرقها رجال الأمن. بالنسبة لمركزنا، خرجت من عندنا حوالى ٨٠ جثّة، والجرحى حوالى ٢٥٠ جريحًا. لدينا هناك حوالى ٤ مراكز.

ـ كيف كنت تدخل وسط هذا الحصار العسكري والأمني؟

ـ كنّا نتسلّل من بصرى.

أشعر أنّه لا يريد إعطائي المزيد من المعلومات فأتوقّف، أسأله:

ـ هل كان هناك قتلى وجرحى من الأطفال والنساء؟

ـ أغلب القتلى كانوا من الشباب، يُجيب بسرعة وغضب. يتابع بعد أن يمتصّ غصّة: والقتل كان يتمّ بالرصاص العادي، كنت أتأثّر بالشباب الصغار بين ١٥ و١٦ عامًا أشعر بالحزن عليهم، شواربهم بالكاد كانت تظهر، وكانت مثل زغب. إنّهم أطفال وقُتلوا إمّا في الرأس أو في الصدر.

يتوقّف عن الكلام، أبتلع غصّة أيضًا. أشعل سيجارة كعادتي حين أكون على وشك البكاء، تخرج حشرجة من حلقي، وأحبس دموعي. يا الله كم هذا قاسٍ عليّ! للمرّة الألف، أقول لنفسي، لست مستعدّة لكلّ هذا العنف. سأموت قريبًا بخبر كهذا. يتأمّلني وأنا أرتجف، أتخيّل الشباب الصغار ممدّدين على الأرض، والزغب الناعم فوق شفاههم النديّة، فأرتعش أكثر وأفكّر أنّي أمّ لواحد منهم. سأبكي بعد أن أتركه، سأبكي وحدي وأنا أعود في سيّارة الأجرة على الشباب السوريّين الذين يُقتلون بيد رجال سوريّين، سأصل إلى بيتي وعيني محمرّة، ونوّراة ستنظر إليّ وتقول: كنتِ عم تسمعي شي قصّة؟ وتأتي لي بكأس ماء، ثم تقول بتأفّف: يالله يا ماما عم ضَلّي زعلانة! وسأضمّها إلى صدري وأنا أبكي، وهي ستمسح بإصبعها شعري، ولن تفهم ما أشعر به، لكنّها ستضمّني طويلاً قبل أن تعدّ لي كأسًا من الشاي.

يتابع الطبيب: كنّا نصل بعد صلخد ونحن ذاهبون إلى درعا وهو طريق مستقيم إلى بصرى، في قرية «م» كان هناك رجل لديه بيك آب كنّا

نحمّل فيها الأغذية والأدوية. أنا كنت مهتمًّا بالجانب الطبّي، كنّا نخيط الجروح والعمليّات على ضوء المصباح الغازي، بسبب انقطاع الكهرباء الدائم، الناس كانت رائعة في تعاونها، أحد الصيادلة، وبينما نقوم بالعمليّات، أتى الشباب إليه في الساعة الثانية ليلاً طلبًا للمساعدة، فتح الصيدليّة وأخذوا ما يريدون دون أن يوجّه لهم سؤالاً واحدًا. كنّا نجتاز صلخد بسبب عدم وجود العسكر، ولكن في صلخد كان الأمن والشبّيحة ينتشرون بكثافة، وهم أشدّ فتكًا من العسكر، ويتقاضون مبلغ ٢٠٠٠ ليرة من تجّار السويداء، كنت أدخل المنطقة الجنوبيّة ومن هناك تبدأ الحواجز والدبّابات، كانت هناك دبّابات بي إم بي وتمشي بسرعة ٩٠ كم في الساعة، وهي روسيّة الصنع ودبّابات «تي ٨٢» وهي التي تظهر على التلفزيون. دبّابات في كلّ مكان، ومشاة عسكر كثر، كأنّه جيش كامل في حرب. في درعا المدينة كان كلّ مفرق حارة فيه دبّابة، وكانت دبّابات بي إم بي هي الأكثر تواجدًا، وكانت درعا خالية، كأنّها بلا بشر، الدبّابات والكلاب والأمن.

هناك حوادث طريفة أودّ إخبارك بها، أنت تعرفين أنّ الوضع في نوى وجاسم مختلف عن الوضع في درعا، التي كان وضعها قاتمًا والقتل فيها لا يتوقّف. في نوى كانت تحدث معجزات، يخرج الشباب بصدور عارية أمام القنّاصة والدبّابات، مظاهرات حاشدة رغم الحصار والموت، لكن في درعا، قتلوا كلّ من خرج للمظاهرات واعتقلوا الجميع. وهناك قصص بطولة تروى لأجيال. أهالي درعا أباة وغير طائفيّين وأصحاب نخوة. النساء العجائز كنَّ أقوى من الدبّابات. كانت هناك امرأة تدعى الحجّة «أ» جاءت مرّة الدبّابات صدفة جانب المركز، واعتقدت الحجّة أنّهم اكتشفوا أمر المركز، فخرجت وهجمت عليهم وأبعدتهم، صرخ بها الشباب من الداخل أن تعود، لكنّها لم تسمع منهم

وتقدّمت باتّجاه الدبّابات والعسكر والشبّيحة. كانوا يسخرون منها، ويوجّهون رشّاشاتهم نحوها، لكنّها لم تتراجع وأرادت إلهاء الأمن عنّا، وصرف النظر عن الشباب المتوارين في الحارات، أمسكتْ بحجرة وضربتها باتّجاه الدبّابة، وتقدّمتْ، وهي ترفع يديها نحو السماء. اتّضح لاحقًا أنّ مرور الدبّابات والشبّيحة كان عرضيًّا، ومرّوا دون أن يعرفوا بأمر الشباب والمركز، وبقيت الحاجّة في مكانها حتى رحلوا. هل تعرفين أكثر ما كان يجعلني أشعر بالسعادة أثناء عملي، هو ما كنت أقوم به، ويسمّى: «التنبيب»، وهو عمليّة نقوم بها بإدخال أنبوب إلى الرئتين، لأنّ القلب يكون قد توقّف، وندخل الأنبوب ليتنفّس الشخص. السعادة كانت عندما يعود الشخص للتنفّس، كانت عودة البعض إلى الحياة هي أهمّ لحظات سعادتي، وهل تعرفين أمرًا؟ لقد تعبت من هذا الحديث المؤلم، لكنّي سأخبرك بأمر أخير: هنا وفي دمشق، هناك رجل أمن أمام باب كلّ غرفة من غرف المشافي، اذهبي إلى مشفى ابن النفيس وتأكّدي، يمنعون دخول أيّ مريض إلى غرفة العمليّات بدون موافقة أمنيّة.

ينتهي حديثي مع الرجل وأعود إلى بيتي وأتابع أحداث هذا اليوم، أجد نفسي مرهقة، فآوي إلى فراشي بعد حبّة منوّم. اليوم أستطيع كتابة ما سرده الطبيب لي، وتعود لي تلك الأحاسيس المؤلمة عمّا حصل في مدينة درعا، وعمّا يحصل الآن في تلكلخ وحمص ونوى والمدن المحاصرة. أنتظر الغد و«جمعة آزادي».

٢٠١١/٥/٢٠

في يوم الجمعة تحديدًا، أشعر أنّي حرّة وغير مراقبة. الكلّ ينشغلون بالتظاهرات، واليوم قرّر المتظاهرون تسمية يوم الجمعة «آزادي» ويعني بالكرديّة يوم الحرّيّة. كان الأكراد يخرجون بكثافة، رغم أنّ الجنسيّة مُنحت لهم، وهذه الجنسيّة التي ظنّ النظام أنّه سيرشو الأكراد بها لم تفلح، ومنذ الصباح ترد الأخبار عن تجمّعات في القامشلي وعامودا تتهيّأ للخروج بمظاهرات حاشدة. ومع هذه الأخبار ورد خبر تواجد أمني كثيف. الرسائل المتتالية التي تصلني عبر الإيميل والفيسبوك تسأل عنّي وعن موقف المثقّفين من الطائفة العلويّة، وأنا المهدّدة بأيّ كلمة سأقولها، وجدت أنّه لا بدّ من قول شيء ما لهؤلاء الشباب والصبايا، وكتبت على صفحتي الشخصيّة في الفيسبوك الملاحظة التالية:

«إن كان ثمّة ثمن يجب أن ندفعه من حياتنا في سبيل قول كلمة حقّ، فهو مقدّر لنا، وهو من ضمن القوانين الطبيعيّة لوجود إنساني أكثر عدالة، وما يحاول النظام، في هذه اللحظة التاريخيّة المفصليّة

المفتوحة على أنهارٍ من الدم في سورية، الإيحاء به، أنّ حركة الاحتجاج الشعبي التي تجتاح المدن السوريّة لها طابع طائفي، أمر يدخل في باب تزوير الحقائق، رغم ممارسات معروفة الدوافع، كتقسيم المدن عسكريًّا على أساس طائفي، واستهداف قصف أحياء طوائف دون طوائف أخرى. ورغم التنكيل والترويع والتخوين الذي يطال أيّ مواطن سوري حرّ ينتمي للطائفة العلويّة، فإنّي أقول لكلّ الصبايا والشباب من أبناء وبنات الطوائف الأخرى الذين أرسلوا لي رسائل مطوّلة حول هذا الأمر، إنّي هنا، وأعرف أنّ هناك غيري، نضع أرواحنا بينهم، ونضمّ أصواتنا إلى أصواتهم، والخوف الذي يقعون فيه من اندلاع حرب طائفيّة لها مبرّراتها، وقد تكون ثمنًا سندفعه في حال مضت لغة العنف والقتل في طريقها حتى نهايتها. ماذا لدينا أكثر من أرواحنا!».

أعود إلى اليوميّات لأكتب الحادثة التالية، التي رواها لي «ط».

احمرّ وجهه في بداية الحديث، ونظر إلى السماء، وقال: يا الله أين أنت؟ قال: كانت الجثث تأتي إلى مشفى تشرين العسكري، حالات مستعصية من الجرحى، وأحيانًا بعض الإصابات الطفيفة، أحد الشباب كان مصابًا إصابة طفيفة، وكان ينام في سريره. عندما دخل ضابط أمن، كان يرتدي ثيابًا مدنيّة. جلس إلى جانب الجريح، تحادثا مطوّلاً، وانتهى الحوار بينهما على الشكل التالي: قال له الضابط: مين قوّصك؟ يصمت الجريح. يقول له الضابط: العصابات المسلّحة؟ يصمت الجريح، يقول له الضابط: بتطلع عالتلفزيون وبتقول إنّو العصابات المسلّحة قوّصتك؟ ينظر الجريح في وجه الضابط ويقول: الأمن قوّصني. يعود الضابط ويكرّر السؤال بتهديد وصرامة: العصابات المسلّحة قوّصتك؟ فيصرّ الجريح ويقول: الأمن

قوّصني. وينظر مباشرة في عيني الضابط. يقوم الضابط من مكانه فجأة، يقف فاردًا يديه، يحمل مسدّسه، يضعه على جبهة الجريح. الجريح لا ترفّ عيناه. ينظر الضابط إليه: قولْ مين قوّصك؟ يقول الجريح: الأمن قوّصني. يطلق الضابط رصاصة في رأس الجريح، ثم يخرج.

٢٠١١/٦/٧

أعود من فراغي، من قلبي المجوّف. كلّ الأيّام الماضية كنت معلّقة بين الموت والحياة، أحاول التخلّص من الحبوب المهدّئة. التقيت بالكثير من التجمّعات التي تريد المساهمة في هذا الحراك. شباب وعجائز، نساء وفتيات تحت العشرين، الكلّ يريد أن لا يقف على الحياد، الكلّ يشعر بالمسؤوليّة، ولكنّ منهجيّة العمل السياسي غائبة، وغالبيّة من يتحرّكون وينشطون يعيشون ظروفًا صعبة في التواصل. شعرت بفراغ أكبر في جوفي، نحن نتحرّك للقيام بحركة ما، والناس تموت كلّ يوم. صار القتل فعلاً معتادًا، وهو أمر كان يصيبني بالأرق اليومي. اليوم أجلس لأكتب الحوار الذي أجريته مع شابّ من من مدينة درعا، وكنت التقيته مرّة، وكان من المقرّر أن أعاود الحوار معه لأتابع ما حدث في درعا، لكنّ ذلك كان صعبًا، مثل قصّة الشابّ الذي روى لي كيف بدأت حركة الاحتجاجات في بانياس، ومن ثم اختفى أيضًا. عرفت منذ يومين أنّه مُعتقل، لا أعرف إن كان الشابّ قد اعُتقل، لكنّه اختفى أيضًا. أهتمّ بمدينة درعا بشكل خاصّ. أجمع عنها أكبر عدد

ممكن من الشهادات، لأنّها الشرارة التي انطلقت منها الانتفاضة السوريّة.

يقول الشابّ وهو في بداية العشرين: كانت تهمتي هي أنّني أنتمي لعائلة معارضة، كانوا يهينونني ويضربونني في فرع المخابرات العسكريّة.

أطلب منه أن يروي بداية الأحداث مسلسلة. قال الشابّ، وكان حزينًا، وصوته رغم كلامه المؤثّر، هادئًا ومبحوحًا:

(في ١٨/٣/٢٠١١ عندما ذهب الأهالي إلى عاطف نجيب، وطلبوا إطلاق سراح أولادهم قال لهم: «انسوا أولادكم، أو روحوا ناموا مع نسوانكن وجيبوا ولاد غيرهن، أو ابعتولي نسوانكن بدالهن». خرجت الناس من عنده، وعرف أهالي درعا بما حصل، واتّفقوا في ٣/١٨ أن يخرجوا من الجامع العمري وجامع آخر، خرجوا وصرخوا: «حرّيّة حرّيّة والشعب السوري ما بينهان»، وخرجنا كلّنا معهم، حينها نزلت ١٦ طائرة مروحيّة في الملعب البلدي الجديد «مدينة الأسد الجديدة» وقيل لنا إنّ عاطف نجيب قال للقيادة إنّ هناك انقلابًا في درعا. الذين نزلوا من الطائرات كانوا من وحدة مكافحة الإرهاب، الأمن المركزي. كان هناك عناصر من الأمن الموجودين في درعا، ومعهم بلطجيّة، رأيتهم بعينيّ، كانت أعدادهم بالآلاف. والمظاهرة تسير في الوادي، وتمّ رشّهم بالماء عبر سيّارات الإطفاء وحصل إطلاق نار وقُتل أربعة، منهم «محمود جوابرة وحسام عيّاش» انتهت هذه الجمعة بلا اعتقالات وبأربعة موتى، والأمن بقي موجودًا بكثافة.

في اليوم الثاني ٣/١٩ وعند الساعة السادسة صباحًا صاح الناس بأسماء القتلى في الجوامع وتجمّعوا من أجل الجنازة، خرجنا كما

يخرجون بجنازة شهيد، ورفعنا التوابيت على الأكتاف واتّجهت أعداد هائلة إلى المقبرة ودفنّاهم، وكان الشيخ أحمد الصياصنة الذي أمسك الميكروفون ودعا إلى التهدئة، وقال إنّهم خلال ٤٨ ساعة سيفرجون عن الأطفال فصاح شابّ: «دم الشهيد برقابكم» فقام الناس وصاحوا بإسقاط عاطف نجيب والمحافظ «ويا عاطف ويا نجيب بدنا ننسّيك الحليب».
وخرج الشباب باتّجاه الجامع العمري، وعند الوادي كان بانتظارنا فيلق من مكافحة الإرهاب وحفظ النظام وبلطجيّة ورجال أمن، كانت المسافة بيننا ١٠٠ متر، والشيخ «محمّد أبا زيد» حاول تهدئتنا. لم نستجب له، وقفنا طويلاً، وجاء واحد من أغنياء درعا وأزلام النظام «أيمن الزعبي» فضربه الشباب وبدأ إطلاق القنابل علينا مثل المطر، القنابل مسيّلة للدموع، وصار هناك إطلاق رصاص، وكان عاطف نجيب والمحافظ موجودين، فهربا على درّاجة هوائيّة، نحن انسحبنا باتّجاه البلدة «حيّ الكرك» رموا علينا القنابل، فأشعلنا الدواليب، كنّا مصمّمين على البقاء، وبقينا حتى الثامنة مساءً، وحصل إطلاق نار كثيف علينا وتفرّقنا.

في يوم ٣/٢٠ خرج أهل درعا البلد وعاتبوا أهل درعا المدينة لأنّهم لم يخرجوا معهم، يومها طلع أهل البلد معنا، أيضًا كان هناك قنابل وإطلاق رصاص والأمن كان يحيط بنا من جهتين، وضربنا الأمن بحجارة فانسحب، والناس كسرت مركز «سيريا تل». لم يحرقوا البناء، أحرقوا فقط ممتلكات رامي مخلوف. أخرجوا الأجهزة وأحرقوها، وأصيب اثنان بجراح. كنّا نضرب بالحجارة على القصر العدلي، والأمن هو من قام بحرقه، ولم تأت سيّارة إطفاء، لقد تعمّدوا إحراق المباني، وتجمّع عناصر الأمن عند بيت المحافظ وكانت درعا مثل حالة حرب، وكان هناك الكثير من الجرحى، والمشفى احتلّوه، وأيّ جريح يدخل يقومون باعتقاله أو إطلاق النار عليه، وكان التبرّع بالدم ممنوعًا. هناك

شابّ اسمه وسام الغول، وهو فلسطيني، قام بالتبرّع للجرحى فقتله رجال الأمن.

بدأت أصابعي ترتجف. أعرف هذه الحالة، نادرًا ما استطعت تدوين شهادة، إلّا وانتهت ببكاء أو ارتجاف. نادرًا ما استطعت كتابة الكلمات التي تخرج من أفواه المعذّبين دون أن تعبرني كما لو أنّها تحدث فعلاً. أيّ عذاب هذا؟ أتمنّى في لحظات كهذه أن أكون امرأة عاديّة، أشتهي، في لحظات كهذه، أن تتحوّل يوميّاتي إلى يوميّات بائعة خضار على رصيف مزدحم، وأن تتحوّل نظراتي إلى نظرات فارغة عمياء، وأن ألاحق أقدام المارّة بحياديّة. لكنّي لست كذلك! أنا من تجلس الآن إلى جانب شابّ معتقل سابقًا من مدينة فجّرت الثورة، ومن كلماته يقطر الدم.

يتابع الشابّ: الاثنين ٣/٢١ استيقظنا وكانت السرايا محروقة، وفوجئنا بالحواجز العسكريّة والمتاريس الرمليّة، كنّا نتحرّك في كلّ مكان حول عناصر الأمن، من كلّ مكان كنّا نخرج وحصل هناك اعتصام أمام الجامع العمري، بنوا الخيام وطالبوا بإطلاق سراح المعتقلين والأطفال، وإلغاء المادّة الثامنة من الدستور وإطلاق سراح المعتقلات ومحاسبة القتلة.

في يوم ٣/٢٣ كانت المجزرة، وكان يوم أربعاء، ولكن قبل ذلك في ٣/٢٢ كان الناس يعتصمون وكانت الأمور بخير، ومرّ نهار التظاهر على خير، ولكن بين الثانية عشرة والنصف والواحدة ليلاً ٣/٢٣ بدأ إطلاق النار بشكل عنيف وحصل اقتحام الجامع العمري وأطلقوا النار على الناس في الجامع وسقط سبعة شهداء، وقاموا بضرب الخيام، ومزّقوا صور الشهداء وكان الشيخ ينادي للمساعدة، ولكن أيّ إنسان يتحرّك كان يتمّ قتله. اجتمع الشباب، فجاء الأمن وأطلق النار علينا،

وداسوا على الرقاب، حتى لا يتجرّأ أيّ إنسان ويفتح باب بيته، كانوا يطلقون عليه النار مباشرة. أهل القرى المجاورة سمعوا بما حدث فقرّروا إغاثة أهل درعا، وجاء أهل القرى ودخلوا من القرى الشرقيّة ومن غرب درعا. وعندما اجتمعوا في المحطّة قرب دوّار البريد القريب من فرع حزب البعث سمحوا لهم بالدخول بسهولة بلا توقّف، وبدأ إطلاق النار. قيل إنّ هناك ٧٠ قتيلاً، لكنّ المؤكّد أنّ هناك ٢٠٠ وهناك جثث لم يتمّ التعرّف عليها، بقينا نذهب هناك لأسابيع ونرى الأحذية الفارغة للموتى ونرى الدماء. باختصار لقد حصلت مذبحة.

الخميس ٣/٢٤ (الشابّ لم يتوقّف عن الكلام وكأنّ قيحًا يخرج من قلبه) كانت الناس تحصي الشهداء وتلملم جراحها، وكان الجامع محتلًّا والكلّ في حالة صدمة وذهول، جاء من الحراك حوالى ١٠٠ ألف من البشر العراة الصدور الحفاة فأطلق رجال الأمن والجيش عليهم النار. هربوا إلى البيوت ففتح الناس بيوتهم وخبّأوهم، واكتشفنا أنّ هناك أعددًا كبيرة من المفقودين، وحتى الآن لم نعرف إن كانوا ميّتين أو معتقلين. الأهالي رغم الموت والاعتقالات كانوا شجعانًا، أبي قال: «أنا بقدّمكن شهداء كلّكم». ثم خطبت بثينة شعبان وتفاءلت الناس خيرًا. وصار هناك عرس وحملت الناس صور الرئيس تأييدًا له، وكان هؤلاء من الأمن والبعثيّين الحزبيّين الذين قدموا في باصات ليظهروا أنّهم يقومون بتأييد الرئيس. ازداد استفزاز الناس الذين يشيّعون أولادهم عبر هذه الأعراس. في الجامع عندما انسحب الأمن، كان كلّ شيء مخرّبًا وكانت هناك كتابات فارسيّة، أنا رأيت عناصر أمن كانت لهم لحية مشذّبة وغريبة عن رجال الأمن الذين نعرفهم، قيل فيما بعد إنّ أحد القنّاصين الذين قُبض عليهم لم يكن يتكلّم العربيّة، في ذلك اليوم في ٣/٢٤ قالت الناس: «الشعب يريد إسقاط النظام».

٣/٢٥ تجمّعت الناس عند الجامع العمري بأعداد كبيرة وكان هناك دفن للشهداء، كانت الحشود هائلة، كانوا أكثر من مائتي ألف نسمة، وصمّم الناس على الخروج والتجمّع بساحة المحافظ، وكان لدينا تعهّد ألّا يتعرّض لنا أحد من الأمن أو الجيش، وبثينة شعبان قالت إنّه لن يتمّ إطلاق نار على المتظاهرين، فتجمّع الناس بكثافة وهتفوا بصوت واحد: «الشعب يريد إسقاط النظام»، وقالوا أيضًا: «ويا ماهر ويا جبان ودي كلابك عالجولان»، وعندها ونحن نتظاهر وصلنا خبر مجزرة الصنمين حيث قتل أكثر من ٢٠ قتيلاً، وعندما تأكّدنا من الخبر، جنّ جنون الناس، فقفزوا على صور الرئيس ومزّقوها وهجموا على تمثال الرئيس وضربوا التمثال وهزّوه بعنف، فصار هناك إطلاق نار كثيف من بيت المحافظ، كان هناك قنّاصة وكانت النساء حينها تقف إلى جانب الرجال، ومع إطلاق النار الكثيف لم يتحرّك الناس، بقوا حتى أسقطوا التمثال، ومن ثم أحرقوه وبقي إطلاق النار ساعتين، وهجم الناس على بيت المحافظ لإنزال القنّاصة الذين يقتلون المتظاهرين، ومن ثم أحرقوا بيت المحافظ، وبقي يحترق لساعات، بعد أن انتهى كلّ ذلك عرف الناس أنّ العقاب سيكون قاسيًا، ولكن رغم ذلك بقوا وأحرقوا إطارات أمام بيت المحافظ.

٣/٣١ يوم الخميس: تكلّم القادة مع أهل درعا ليلتقوا بالرئيس وخرج ٢٥ شخصًا وكان هشام بختيار، رئيس مكتب الأمن القومي في القيادة القطريّة لحزب البعث، قد اختار ١٥ شخصًا، والناس اختارت عشرة، وقبل أن يخرجوا للقاء الرئيس قالت النسوة للعشرة الذين اختاروهم: «برقبتكم دم وأنتم تمثّلونا»، من بين المطالب التي وضعها الرجال الخمسة عشر المتعاونون مع الأمن كان طلب إعادة المنقّبات، أهل درعا لم يطلبوا ذلك، ولاحقًا أُزيح هذا المطلب، قابلوا الرئيس

ورجعوا في العصر، سمعنا أنّ العشرة الذين اختارهم الناس دخلوا على الرئيس بكرامة، والدكتور «هـ. م» وهو أخو شهيد قُتل في الأحداث اسمه «ع. م» عندما دخل الرئيس، دقّ على صدره وقال له: نحن مزّقنا صورك وأسقطنا التمثال، وأنتم قتلتم أخي. الرئيس حسب ما عرفنا كان دبلوماسيًا ومتحدّثًا لبقًا ومتعاطفًا، وقال لهم: أيّ شيء تريدونه نحن جاهزون. أخذوا معهم الصور والسي دي والأفلام وجعلوه يرى كلّ شيء فقال لهم إنّه لم يكن يعرف بأيّ شيء، ووعد بانسحاب الأمن والجيش، وقال إنّه سيعمل ما يريدونه، وفعلاً انسحب الجيش وخرج المعتقلون وخرج الأطفال أيضًا. ولكن كانت هذه خدعة جديدة من الرئيس الذي عرفنا فيما بعد أنّه هو من كان يأمر بإطلاق النار.

يصمت، ورأسي ما يزال مدفونًا في الدفتر، أريد أن أقول له: نعم الرئيس وعائلته وعصابته هم من يأمرون بإطلاق النار، وما حدث هو مسرحيّة قام بتمثيلها أمام وفد درعا، لكنّي أصمت، وأنصت لما يقوله:

١/ ٤ يوم الجمعة. شعرنا أنّ هذا انتصار، جاء كلّ أهالي القرى إلى درعا وجاء الناس من دمشق، وخرجنا من البلد باتّجاه المحطّة، ولا يوجد رجل أمن واحد. كنّا سبعمائة ألف إنسان تقريبًا، أعداد هائلة، وكان النهار حارًّا، مع ذلك بقي الناس في ثلاث ساحات والكلّ ردّد: «الشعب يريد إسقاط النظام»، والناس بدأت تحمي المنشآت الحكوميّة حتى لا يحدث تخريب. لم يكن هناك حتى شرطة مرور، كانت الناس تلمّ الأوساخ وتنظّف الطرقات، وتحمي البلدة، وأُعلن العصيان المدني. بقينا أسبوعين نتظاهر ولا يوجد عناصر أمن. بعد ذلك، وكانت جمعة الصمود، خرج الناس من الجامع العمري باتّجاه المحطّة، وحصل إطلاق نار، ومات الكثير من الناس. هناك قصّة لموسى جمال أبا زيد، الذي أُصيب برجله وأسعفه الناس إلى الجامع العمري حيث أقام الناس

مشفًى هناك. الناس كلّها كانت تساعد بعضها بعضًا، جمال أُصيب برصاصة في رجله لكنّه رفض ترك التظاهرات وكان يبدو أنّه استنشق غازات مسيّلة للدموع وأظنّ أنّها كانت سامّة، فأسعف مرّة ثانية إلى مشفى الجامع، عاتبه الأطبّاء لأنّ وضعه لم يعد يحتمل لكنّه رفض البقاء بعيدًا عن الناس والمظاهرة، وفي التظاهرة أطلق قنّاص الرصاص على رقبته فمات. قُتل ٢٠ وكان الأمن طوال الوقت يقتل الناس أثناء مرورهم في الطرقات والشوارع، أحد أصدقائي قُتل على أيديهم وهم يقومون بإطلاق النار العشوائي، كانوا متوحّشين. هناك قصّة محمّد أحمد الراضي، وهو طالب جامعي يدرس في قسم المكتبات من مواليد ١٩٨٦، كان في بيت خطيبته. نزل من البيت، وكان بيتهم عند بنك الدم، وهو الشارع الذي شهد المجزرة، رأى المصابين في الشارع ونزل بهدف الإسعاف والتصوير. كان في يده حجر للدفاع عن نفسه، أصيب برصاصة في بطنه، وسقط على بطنه. لم يستطع الناس إنقاذه فورًا، سبقهم الأمن إليه، ومثّلوا بجثّته. كان جسده مفصولاً عن رأسه. عندما انفضّ الأمن عنه، جاء الناس ليسحبوه ويسعفوه لكنّ الأوان كان قد فات، وقع دماغه من رأسه أمامهم.

في ٢٥/ ٤ دخلوا درعا، بداية الاجتياح في الليل. كانت الناس قد استشعرت الخطر، وكانت لدينا إشاعات تقول إنّ الأمن سيدخل، والناس كانت تقوم بإنشاء الحواجز وتنظّم لجانًا لحماية المدينة، لم نكن نعرف أنّهم سيدخلون إلى درعا بالدبّابات. دخلوا وجه الصبح، كانت هناك ٨ دبّابات، وتمّ قطع الكهرباء وخطوط الهاتف الأرضي والنقّال، وبدأ إطلاق النار بشكل كثيف لمدّة ١٧ ساعة، وتمّ تخريب مراكز ضخّ المياه التي تأتي من مزيريب، وضربت خزّانات المياه بالرصاص، ثم دخلت الدبّابات الحارات، كان في درعا حينها ٧٥ ألف عسكري من

أصل ٢٠٠ ألف عسكري وهو عدد أفراد الجيش السوري، قاموا باقتحام درعا برفقة مخبرين من درعا عرفنا فيما بعد أسماء بعضهم. كان هذا في درعا المحطّة، ودرعا البلد لم يكونوا قد دخلوها بعد، فتّشوا واقتحموا البيوت واعتقلوا الشباب كلّهم بين ١٥ والـ ٤٠ وكلّ أصحاب البيوت الذين رفضوا وضع قنّاصة على أسطح منازلهم قاموا باعتقالهم، اعتقلوا كثيرين، ربّما حوالى عشرة آلاف. وكان هناك المزيد من الأسماء المطلوبة وصارت القائمة تتزايد، والتهمة كانت التظاهر والهتافات. بيوت درعا تخردقت بالرصاص، وغالبيّة البيوت رُشّت في الداخل والخارج، ثم خرّبوها بشكل وحشي فظيع. بعد ٨ أيام من دخول البلد، هناك مناطق رحل أهلها عنها، وكان القنّاصة ينتشرون على أسطح البيوت ويطلقون النار على أيّ كائن يتحرّك، وأثناء هذا الحصار صار من الصعب انتشال الجثث. تحلّلت الجثث. كان هناك برّاد في المنشيّة وفي ساحة النبابتة. برّادان مملوءان بالجثث، قام الأهل بتخبئة البرّادين والجثث من رجال الأمن، والأهل حتى لا يسرق الأمن جثث ذويهم حملوا سلاحًا وحموا البرّادين، انسحب الأمن، وبعد ٤ ساعات رجعت الدبّابات، وبدأوا بقصف البيوت. أطلقوا النار على البيوت المحيطة بالبرّادات).

يتوقّف هنا حديث الشابّ، على أمل أن ألتقيه مرّة أخرى، ليروي لي ما حصل بعد حصار المدينة، وكيف عاش الناس الحصار، لكنّ الشابّ لا يعود. أسأل عنه، فأعرف أنّه مريض، وأنّه منذ خروجه يعاني من التهابات نتيجة التعذيب الذي تعرّض له أثناء اعتقاله.

•

٢٠١١/٦/٨

أجلس لأكتب عن حادثة انتحار أحد الجنود في مدينة جسر الشغور:

الجنود الذين ركضوا بتثاقل في الحارات، كانوا يسمعون دقّات قلوبهم، ورنين معدّاتهم الثقيلة. ذلك الخيط الحارق الذي ترك أثرًا في خدّ أحدهم، انتبه إليه أحد ساكني البلدة الذين ركضوا إليه وحاولوا إنقاذه رغم الرصاص والموت. كان الجنود يستمرّون في الهرولة، والمدينة تفرغ من سكّانها. الكثير من سكّان جسر الشغور كانوا قد نزحوا ورحلوا عنها، بعد التظاهرات التي تمّ قمعها بشدّة من قبل الجيش والأمن والشبّيحة، وكانت هذه الحادثة تتوالى مع حوادث كثيرة انشقّ خلالها جنود وضبّاط عن الجيش، ولم ينصاعوا للأوامر بجعل رجال الأمن والشبّيحة يطلقون النار على الناس العزّل. الناس الذين خرجوا في بداية التظاهرات بأغصان زيتون وهم يطالبون بإسقاط النظام، وكان الردّ عنيفًا كما حصل في مدن أخرى، بالقتل والقنص والرشّاشات.

الفرق الذي أحدثته جسر الشغور أنّها استولت على أسلحة وعلى دبّابات، لم نعرف حتى الآن عددها، والجيش انشقّ فيها، فلزم تأديبها وتدميرها. رحل سكّانها وتحوّلوا إلى لاجئين في تركيا، وحلّقت مروحيّات فوقها، وكانت هناك أوامر بقتل الناس واقتحام المنازل، وحرق المزارع والأراضي وإفراغ خزّانات المياه. ببساطة، كان هناك أمر بسياسة الأرض المحروقة يجب تطبيقه على المدينة المتمرّدة. كنت أتابع الأخبار والقصص، كعادتي منذ بدء الانتفاضة، أسمع القصص، أكتبها، ثم أنتهي منها بسيجارة ودموع غزيرة. هذه القصّة تحديدًا جعلتني أقف عندها طويلاً، رُويت لي من قبل ضابط خائف، ولا يعرف إن كان ضروريًّا أن يقول ما قاله، لكنّه رواها وهو يبكي، قال لي: ليس بيد أحد حيلة، الكلّ ذاهب للموت. أعود لقصّة الجنود:

الجنود الأربعة الذين تلقّوا أمرًا بإطلاق النار، واقتحام منزل في إحدى الحارات، كانوا يهرولون ببطء. كلّ منهم لا يسأل الآخر: لِمَ يبطئ في مشيته؟ لقد رأوا في الأيّام الماضية من الدماء ما يكفي، ولم يكونوا جاهزين ليقتحم أحدهم هذه الأزقّة بقلب جامد وعين مغمضة، فمن يقتلون هم ناسهم، لكنّ الأوامر هي الأوامر. أحدهم قال إنّهم يجب أن ينفّذوا الأوامر دون تلكّؤ، هذا عملهم؛ حماية الوطن والناس، ويجب تخليص الناس من العصابات المسلّحة. الآخر الصامت نظر إليه، وكانت خوذته تلمع تحت الشمس، وقال له، كما أخبرني الرجل الباكي فيما بعد: ولكن عن أيّ عصابات مسلّحة، أنا لم أرَ عصابة واحدة، هؤلاء ناس مثلنا! ثم وقف صامتًا. كان ذقنه يرتجف. ردّ الآخر، وسيندم بعد ذلك على جملته تلك، وسيقول لرئيسه الضابط، إنّه لن يسامح نفسه أبدًا على ما قاله، سيقول: يا جبان.. تقدّم. يتقدّم الجنود.

الجنود أيضًا لهم حبيبات وأمّهات وإخوة. الجنود أيضًا لهم لحظات خوف، وقلوب هشّة تقطر ألمًا. الجنود أيضًا يبكون في الليل، ويضحكون مع الأطفال. الجنود كانوا يومًا أطفالاً، ويحلمون أن يكون لهم أطفال. لكن عليهم الآن تنفيذ الأوامر. أخبرهم القادة في الجيش أنّ البيت المشار إليه لاقتحامه، وقتل من فيه هو مركز للعصابات المسلّحة. أحدهم انعطف في طريقه ودخل بناءً قريبًا يبعد عن هدفهم، لحقه بتواطؤ الاثنان. كان مغمض العينين. خلع خوذته، وتأمّل بفزع رفاقه. نظر الرابع إليهما مستغربًا، كانوا يحدّقون بعضهم في وجوه بعض بقلق، الجندي الذي خلع خوذته، صار يضرب رأسه ويديه بالجدار، ظلّ يضربهما حتى أدمى نفسه، ثم خبط مرّة أخيرة رأسه بالجدار، وكانت دموعه تلمع، قبل أن يهوي ويغمى عليه. كان صديقه يحاول إنهاضه، لكن معدّاته الثقيلة منعته، فتهاوى على الأرض، وأحدث صوت ارتطامه مع أصوات إطلاق النار الكثيف في البلدة دويًّا غريبًا. الجندي الثالث، وقف مدهوشًا، والجندي الذي وقف في الوسط بينهما تراجع إلى الوراء. كان سلاحه على جانبه، يصل ركبتيه، وهو يؤرجحه، نظر إلى بقع السماء التي تبدو من فتحة المدخل، وازداد إطلاق الرصاص. سمع صراخًا، حمل سلاحه، وضع الفوهة تحت رقبته تمامًا، نظر في عيني الجندي الثالث، كانت نظرة لا تحمل أيّ معنى، مثل القادم الذي يليها، وارتفع صوت رصاصة، دخلت رقبته وخرجت من دماغه، عندما خرَّ صريعًا، شمَّ الجندي الثالث الرائحة، وكانت أليفة بالنسبة لجار الموت. نظر إلى الجندي المكوّم تحت قدميه، وقبل أن تتسنّى له الحركة، كانت أصوات طائرة تحوم في السماء، تبعتها زخّات طويلة لإطلاق الرصاص، وقبل أن يقترب من الجنديّين على الأرض، شعر بملوحة تغمر شفتيه، ثم انبطح أرضًا، فقد جاورته طلقات كثيفة للرصاص أفاق بعدها على غبار

غطّى مدخل البناء، لكنّه استطاع أن يلمح رغم ذلك جدار ذلك البيت، وقد انهار تمامًا. البيت الذي كان هدفًا لهم، ودمّره الآن جنود آخرون. لا يعرف كيف أتته الطلقات. كان كلّ شيء حوله مبهمًا، تفقّد صديقيه، أحدهما مات فورًا من الطلقة التي أردى بها نفسه، والثاني استطاع أن يسمع صوت أنينه، ويلمس الدماء التي خرجت من رأسه. الرأس الذي كان يضرب نفسه بالجدار قبل أقلّ من ربع ساعة. الثالث اختفى. هذه حادثة من حوادث كثيرة، مرَّ بها الجنود الذين دخلوا مدينة جسر الشغور.

الذين لم يقتلوا أنفسهم، ولم يطلقوا النار على المتظاهرين، قُتلوا جميعًا. بعد ذلك سيُنشر خبر كالتالي في مواقع الإنترنت والفضائيّات التلفزيونيّة. «أفاد أحد شهود العيان وهو طبيب ميداني في فرقة الإسعاف العسكري أنّه كان من بين الفريق الطبّي الذي قام بالكشف على أكثر من جثّة لجنود قد قُتلوا على يد إرهابيّين في منطقة جسر الشغور».

غير أنّه بعد الفحص الطبّي والعلمي تبيّنت عدّة عوامل تدحض الرواية الرسميّة بالمطلق، ومن أبرز ما جاء على لسان الطبيب الميداني الذي فضّل عدم الكشف عن اسمه خوفًا من بطش النظام السوري:
أوّلاً: أكثر الإصابات بالرأس وقد أطلقت من مسافة لا تتجاوز المترين ممّا يعني بأنّه قد تمّت تصفية هؤلاء الجنود أو إعدامهم. ثانيًا: آثار تعذيب واضحة على بعض الجثث ممّا يثبت بأنّهم قد تعرّضوا لتعذيب قبل الوفاة. ثالثًا: بعض الجثث يظهر عليها آثار التعفّن وتشقّق الجلد وفروة الرأس، ممّا يعني أنّ الضحايا قد توفّوا منذ أكثر من شهر ونصف تقريبًا. رابعًا: الجثث كانت في مكان لا يدلّ على اتّخاذهم تدابير قتاليّة، ولا وجود لأيّ آثار لإطلاق نار في المنطقة، ولا وجود لأيّ من القذائف الفارغة.

٢٠٠/٦/٩

غير بعيد عن تلك الأرض التي سكنتها الوحوش، وتحت أرصفة المدن المفتوحة على أقدام متعثّرة، متشقّقة، غاضبة لا تعرف قفزات فرح، امتدّ خيط رفيع ودقيق. خيط متعرّج أحمر، شربه إسفلت الطريق.

المرأة التي تراقب الروائيّة أقسمت أنّها لن تجرؤ ثانية أن تحمل لرَجُلِها في الحقيبة، ولو سرًّا، وردة حمراء.

المرأة التي صارت أخرى، وجلست في مكان قصيّ داخل أصابعي أقسمت أيضًا ألّا تنام في اليوم أكثر من ثلاث ساعات. هذا لم يكن مجازًا، كان لديّ قرار بالنوم ثلاث ساعات يوميًّا من دون الحبوب المنوّمة. مشروع هائل، إنجازه يتطلّب جهدًا كبيرًا، لكنّ ما ساعدني عليه هو الحركة الدائمة التي كنت أقوم بها، وكمّيّات الطعام الهائلة التي ألجأ إلى تناولها قبل النوم، لكنّ كلّ هذا بدا بلا جدوى، كسبت المزيد من الوزن، ولم أحظ بالنوم.

كنّا في الفترة الماضية نلتقي مع النساء لتشكيل مبادرة «نساء

سوريّات لدعم الانتفاضة» وتطلّب الأمر منّا بعض اللقاءات والتحرّكات. كانت مهمّة هذا التجمّع مدّ حركة المتظاهرين بالدعم اللازم، وخاصّة فيما يتعلّق بإسعاف الجرحى، وتغطية نفقات الشباب في التنسيقيّات، الذين يضطرّون للاختفاء نتيجة ملاحقة رجال الأمن لهم. وفي المقابل كان بعض الشباب يقومون بتشكيل تجمّع علماني. كان هناك الكثير من التحرّكات وخاصّة من الشباب الذين لم يكونوا راضين عن أداء بعض أسماء المعارضة المعروفة، وكانوا يجدون أنّ الوقت حان، لتجديد روح المعارضة. الكلّ كان يتحرّك ويقاوم، كلٌّ بطريقته، بعض الشباب يشتغلون مع التنسيقيّات في ضواحي دمشق، هناك من يقوم بتنظيم التظاهرات. النساء أيضًا نظّمن عدّة تظاهرات. المشكلة الآن لم تعد بما نقوم به من تحرّكات، فالانتفاضة الشعبيّة في كلّ أنحاء البلاد تسير وفق خطّها نفسه. كانت انتفاضة أرياف، وانتفاضة فقر واحتجاج ضدّ كلّ أشكال الظلم. القتل الذي اعتمدته السلطة حوّلها إلى مجزرة يوميّة. كان وقت الحوار قد انتهى، والنظام ما زال يدعو إلى الحوار بطريقة كوميديّة، وبعض أسماء المعارضة تجاوبت معه في البداية، لتجنيب البلاد الدم، لكن، وتحديدًا الآن، رفضت المعارضة في الداخل إجراء أيّ حوار، فكلّ يوم كانت تُرتكب مجزرة جديدة، وتزداد أعداد القتلى على أيدي قوّات الأمن وشبّيحته وعناصر الجيش. المدن تُستباح، المدن تحاصَر، المدن تُقصف بالطيّارات، جسر الشغور وقبلها درعا وحمص. كيف يمكن لنا أن نتحاور معهم؟ كان هذا السؤال هو الأهمّ أثناء اللقاءات التي كنت أواظب على حضورها مع بعض الشخصيّات المعارضة، لا حلّ إلّا بإسقاط النظام. النظام لا يريد إصلاحًا أو حلًّا. النظام مجموعة من العصابات المتشابكة مع العائلة الحاكمة والمستفيدة من الفساد والرشوة. النظام الذي يريد إشعال حرب طائفيّة، وسيجعل

من الطائفة العلويّة دروعًا بشريّة له. كلّ هذه الجولات والتحرّكات في الأيّام الماضية لم تؤدِّ إلى نتيجة كما توقّعت، كانت النتيجة ضعيفة، تشكيل مبادرة نسائيّة فقط لدعم الانتفاضة، هكذا كنت أشعر بالخواء والعجز، وأنا أرى السوريّين يتحوّلون إلى لاجئين، أبناء جسر الشغور رحلوا خوفًا من الحصار العسكري، والمجازر التي ارُتكبت في مدينتهم. استقبلتهم تركيا، وأقامتْ لهم مخيّمًا على الحدود. السوريّون لاجئون في تركيا وفي لبنان، أثناء اجتياح الجيش مدينة تلكلخ وقصفها تحوّل السوريّون إلى لاجئين أيضًا. في لبنان النظام السوري موجود أكثر من أيّ مكان آخر. قامت الحكومة اللبنانيّة بتسليم اثنين من اللاجئين، وشعر السوريّون بالفزع، فالهرب إلى لبنان يعني الهرب إلى سورية! تركيا أعلنت استياءها من النظام وطريقته الوحشيّة في قمع المتظاهرين، وتحويل الشعب إلى قتلى ومشوّهين ولاجئين مشرّدين. كيف يقتل النظام شعبه؟ كيف تحلّق الطائرات في سماء سورية وتقصف أبناءها؟ شيء غير مفهوم بالنسبة للسوريّين. إنّها المجازر تتكرّر يومًا بعد يوم. المدن تُباد مدينة وراء أخرى، والعالم كلّه يتفرّج، يدين ويطالب بالإصلاح، والسوريّون يموتون ببساطة. المهمّ الآن أنّ الانشقاق بدأ في الجيش. مقدّم في الجيش السوري خرج للقنوات الفضائيّة، وأعلن انشقاقه عن الجيش ومسؤوليّته عن قتل رجال الأمن الذين قتلوا الناس ورفضوا طلبه بمكبّرات الصوت، عدم قتل الأبرياء. كان هذا أمرًا جديدًا بحدّ ذاته.

كنتُ محبطة ولا أخفي ذلك. كآبة خفيّة بدأت تتسرّب إلى يوميّاتي، ليست الكآبة المعتادة واليوميّة، إنّها خيوط متشابكة من الإعاقة اليوميّة والشلل الفكري التامّ. أخبار القتل اليومي في المدن لا تسمح لي بالتأمّل. ما زلت تائهة، البارحة مساء قرّرت الخروج للتبضّع، قريبًا من بيتي المؤقّت، كنت أنوي التجوال لساعات في الأسواق، أردت منح

نفسي الفرصة للهدوء والتفكير فيما يجب فعله في عدّة أمور أشتغل عليها. كنت أدخل حيّ الشعلان، سوق التنابل، عندما رأيت بعض الصبايا يهربن، والناس تركض. عرفتُ أنّ هناك تظاهرة، فالذعر في عيون الناس يجعلني أعرف ما يحصل، ركضت إلى الأمام، وهناك رأيت عشرات الشباب والصبايا، يتجمّعون ويهتفون للحرّيّة، والأمن يركض باتّجاههم وينقضّ عليهم. كانوا يغنّون النشيد الوطني، ويصرخون: «لا للقتل، لا للعنف». تختلط عليّ الرؤية، ولا يمكن تمييز الشبّيحة في كلّ الأحيان، انقضّوا على المتظاهرين، وهم يطلبون من المارّة أن يقوموا بضربهم أيضًا. رأيتهم يجتمعون حول شابّ، كانوا أكثر من عشرة يقومون بضربه وركله. فجأة رأيت فتاة على الأرض، وكان أحد رجال الأمن يضربها ويصفها بأبشع الألفاظ. حاول رجل من خارج التظاهرة مساعدتها، فضربه الأمن بشدّة واجتمع عليه كثير منهم وقاموا بضربه، ثم اعتقلوه. كنت واقفة هناك، أسمع وأرى، وقلبي ينبض بشدّة. أتوارى مع الناس، وأفكّر أنّهم لو أمسكوا بي، فحتى الله لن يقنعهم أنّي لم أكن في التظاهرة، لكنّي لم أستطع المغادرة. تجمّدت قدماي والناس تتدافع خوفًا من رجال الأمن، خرج بعض أصحاب المحلّات ووقفوا يصرخون بالمتظاهرين، وتعاونوا مع رجال الأمن والشبّيحة، وأحدهم عندما قام بمحاولة لتغطية إحدى الصبايا، قام رجال الأمن وبعض رجال المحلّات الأخرى بضربه وتكسير محلّه. كان الضرب في كلّ مكان، وكلّ من يضربونه يسحبونه بعد ذلك ويختفي. رأيت أحد الشباب يرمونه في حافلة، ثم يعودون إلى الآخرين، كان الناس يراقبون خائفين، فهذه أوّل مرّة تحصل فيها تظاهرة كهذه في حيّ الشعلان، بعض الصبايا بدأن البكاء والركض، كنّ يشاهدن كيف يقوم الشبّيحة بالدوس على أجساد الشباب دون رحمة، ثم ظهر العشرات من الشباب والصبايا يتقدّمون من

جهة حيّ أبو رمّانة، ويحملون صور الرئيس ويهتفون وهم يصفّقون: أبو حافظ.. أبو حافظ. يرتدون قمصانًا قطنيّة بيضاء عليها صور الرئيس وكلمة «منحبّك». ساروا بهدوء بعد أن فضَّ رجال الأمن التظاهرة، ووقفوا على الجانبين يحمون المسيرة المؤيّدة التي مشت حتى أوّل شارع الحمراء. مشوا بهدوء، ولم يعترضهم أحد. يهتفون بصوت قوي وواحد: أبو حافظ.. أبو حافظ. راقبتهم حوالى نصف ساعة، أتظاهر أنّي أجول على المحلّات. كان رجال الأمن ما يزالون يحدّقون في الوجوه رغم انفضاض المظاهرة، وشبّيحة الشعلان كانوا يتجوّلون بين المحلّات ويراقبون، ما لفتني أنّ شبّيحة الشعلان كانوا مختلفين عن شبّيحة حرستا ودوما وساحة المرجة، كانوا أكثر أناقة ونظافة وتزيّن صدورهم سلاسل الذهب العريضة، وأشكالهم منحوتة، خصر نحيل وصدر منفوخ، وكأنّه مرسوم، ولكن كانوا يطلقون لحاهم. الشيء المشترك الذي يجمعهم مع كلّ الشبّيحة الذين رأيتهم في كلّ المدن هو أعينهم، نظرة العيون نفسها، ناشفة جامدة، بلا أجفان، بلا رموش، وهم أنفسهم من قاموا بضرب أحد الشباب حتى صار يقطر دمًا، واتّضح فيما بعد أنّه أحد رجال الأمن! وهم أنفسهم من صاروا يضربون الشباب الذين لا ينضمّون معهم لضرب المتظاهرين. هكذا كان عليّ البارحة أن أعود إلى بيتي دون أن أفكّر بأيّ شيء. أهرب من أخبار الإنترنت والتلفزيون والقتل، وفي الشارع لا أجد سوى الضرب والاعتقال والخوف. أيّ مدينة هذه التي أعيش فيها؟ في كلّ خطوة هناك مشروع ذلّ قادم إلى الناس.

المرأة الورقيّة التي في أصابعي قالت لي: «الدماء أو الذلّ، لا مفرّ من أحدهما»، طلبت منها أن تصمت عن روحي قليلاً وتتركني جثّة أعالج تحلّلي بهدوء.

كيف يصمت المثقّفون السوريّون عمّا يحصل! كنت متعاطفة مع الصامتين في بداية حركة الاحتجاج، فأنا أفهم الضعف الإنساني، ولأنّ الرحمة أحد الشروحات الدينيّة المقتضبة للديموقراطيّة، فقد صمتُّ عنهم. اليوم بعد اجتياح المدن وحصارها وتشريد الشعب السوري وتحويلهم إلى لاجئين، وقتلهم وتعذيبهم وترويعهم، لا أستطيع الرحمة! لقد سلبوا منّي الرحمة. الصامتون شركاء في الجريمة.

اليوم تستمرّ التظاهرات في المدن، في اللاذقيّة ودمشق وحمص وحلب. الجديد في حلب أنّ رجال الأمن حاصروا المدينة الجامعيّة بعد خروج تظاهرة فيها، ونزل الشبّيحة إلى داخل الحرم، وأُطلق الغاز المسيّل للدموع وعيارات ناريّة في الهواء. ويرتفع عدد اللاجئين السوريّين إلى تركيا في الساعات الـ ٢٤ الأخيرة إلى ٢٤٠٠ لاجئ، ولا يزال الغموض يلفّ الأوضاع بمدينة جسر الشغور.

يظهر اليوم أيضًا شريط ڤيديو مؤثّر: المتظاهرون في حيّ القابون في دمشق يحرقون صورة بشّار الأسد. الصورة غير واضحة، سواد وعتمة، وصورة الرئيس في الوسط، يبدأ الحريق من منتصف وجه الرئيس، يضعها المتظاهرون أمام الكاميرا مباشرة ويصرخون: الشعب يريد إسقاط النظام. يعلو صوتهم هادرًا، ثم يرمون ما تبقّى من حريق الصورة، على الأرض. هكذا هي صورة الغضب والثورة على الذلّ والفقر. أشعر بقلق مضاعف، فإحراق الصورة يعني اقتحام الشبّيحة ورجال الأمن لحيّ القابون، ويعني، أيضًا، المزيد من القتل والاعتقال.

٢٠١١/٦/١٠

«جمعة العشائر» اليوم مختلف؛ انشقاق «المقدّم» يوضح كيف يستخدم الجيش الناس دروعًا بشريّة. يقول «المقدّم» إنّ هناك مجموعات إجراميّة يتمّ اختيارها من قبل الأمن، وهم من يقوم بعمليّة القتل. كان قد ظهر على شاشات التلفزة وصرّح بكلّ ما لديه، صار واضحًا أنّ من يقوم بالقتل هم من جماعة النظام. المقدّم المنشقّ عن الجيش، والذي انضمّ إلى الانتفاضة، قال إنّ الجيش السوري يقتحم قريته في جبل الزاوية وسوف يقوم باعتقال أهله وإخوته من أجل ابتزازه. الخطير أيضًا أنّه يقول إنّه قد تمّت الاستعانة بعناصر من حزب الله وإيران. ويتابع المقدّم حسين هرموش: إنّ الأجهزة الأمنيّة هي المسيطرة على الإعلام. ويطلب من الشعب السوري والضبّاط الأحرار أن يقفوا بوجه النظام لإعلاء كلمة الحرّيّة.

بدت اليوم ملامح تغيّر نوعي، ففي جمعة العشائر، صارت تظهر أسماء علنيّة تتحدّث باسم تنسيقيّات الثورة السوريّة بشكل واضح، وتحوّل اسم حركة الاحتجاج من الانتفاضة إلى الثورة، ومع حركة

الانشقاق دخلت الانتفاضة في واقع جديد. أتابع ما يجري عبر التلفزيون. الوضع هادئ في دمشق. في الميدان تخرج تظاهرة، وحول بيتي تبدو دمشق وكأنّها تعيش حظر تجوّل. انتصف النهار، ولا أحد يمشي في الشوارع، الجمعة التي سبقتها كانت جمعة أطفال الحرّيّة، وسقط فيها أكثر من ٦٠ قتيلاً في حماة التي أعادت إلى الأذهان ذكريات مجزرة الثمانينيّات أيّام الرئيس حافظ الأسد، حيث دُمّرت المدينة وقتل فيها حوالى ثلاثين ألفًا، ويا للمفارقة فاليوم تصادف ذكرى وفاة حافظ الأسد، التي تمرّ، ولأوّل مرّة، على البلد بشكل عابر.

الموت يلفّ المدن منذ تسعين يومًا، وكلّ يوم يبدو أسوأ من الذي سبقه، وكلّ جمعة يزداد عدد المتظاهرين. تفاوت أعداد القتلى بين مدينة وأخرى، يبدو أنّ الخيارات المطروحة أمام النظام صارت ضيّقة، فإذا استمرّ الوضع على ما هو عليه، ستتحوّل التظاهرات إلى حالة عصيان مدني شامل، والأتراك يلوّحون بخيار عسكري. الأمور تضيق شيئًا فشيئًا، والخيار العسكري في مواجهة الانتفاضة مستمرّ. بالنسبة للعالم الخارجي يبدو الوضع مختلفًا عن مصر وليبيا وتونس، في سورية يتمّ تأخير إصدار القرارات والدماء تسيل، كلّ العالم اجتمع على السوريّين. السوريّون يموتون وحدهم. النظام يعرف أنّه قوي، يمسك لبنان بيد، ويمدّ يده الثانية إلى العراق، لذلك فقمعه العنيف كان مبرّرًا أمام نفسه، وأمام الغرب، والغرب الأميركي الذي يخاف على إسرائيل وأمنها، وهكذا يستمرّ النظام بإطلاق الرصاص بهذا الصلف والعناد.

اليوم في جمعة العشائر عدد القتلى ٣٩ والجرحى ١٠٠، كما أنّ التظاهرات خرجت من ١٨٥ مكانًا. في دمشق وريفها وضواحيها، وفي حلب وريف حلب، حمص وحماة وفي محافظة إدلب والحسكة ومنطقة الفرات والساحل وحوران. اليوم ولأوّل مرّة منذ بدء حركة

الاحتجاجات، أسمع في حيّ الروضة الذي يقع وسط العاصمة دمشق في الساعة الواحدة والنصف ليلاً إطلاق نار كثيف، وهو أمر جديد، فهذا الحيّ يتوسّط أبو رمّانة والشعلان والحمراء والصالحيّة، أي قلب دمشق. وهذا يعني أنّ الخطر قد يصل إلى أيّ بيت حتى لو كان في الأحياء الراقية.

لم أستطع أن أتحوّل إلى شخصيّة من ورق، في هذه الحالة التي أُجبر فيها على إغماض عينيّ، أفتحهما في قلبي على اتّساعهما. إغماض العينين هو أن يختفي العالم من حولي، أنا أكثر تعسّفًا من الدكتاتور، أمسح العالم كلّه بإغماضة عين، وأصير في مكان مختلف. الأصوات من الخارج تجلعني أكثر عصبيّة، أخرج إلى الشرفة، الساعة الثالثة فجرًا ربّما، يتقطّع صوت رصاص. الشوارع خالية، ساحة عرنوس وشارع الحمراء. يتوقّف الرصاص، هنا وحين أتحوّل من جديد إلى كائن بشري، يفعل الخوف فعله. أنظر إلى الساحة الفارغة والتي كانت مسرحًا للعديد من المظاهرات الطيّارة، كيف انقلبت في الليل!

الأمكنة جميلة، مع البشر ووجودهم مع كلّ هؤلاء القتلة، الذين ينبتون في شوارع دمشق، تصير الأمكنة متوحّشة ومرعبة.

١٢/٦/٢٠٠

أبدأ نهاري بخبر انشقاق آخر داخل الجيش.

الجيش يقصف معرّة النعمان، وفرع الأمن العسكري الذي انشقّ عن النظام في المعرّة. القصف متواصلٌ على معرّة النعمان، مع إنزال مظلّي. ودخول الشبّيحة إلى المعرّة، التي تظاهر فيها ١٥٠ ألف متظاهر ضدّ النظام، قتل الأمن منهم ستّة متظاهرين، السكّان في الليل بعد قطع التيّار الكهربائي نزحوا إلى مدينة حلب وبعض القرى القريبة.

أبحث عن أخبار القتل والموت في المدن الأخرى.

في جسر الشغور التي ما تزال تذكر مذبحة ١٩٨٢ في عهد حافظ الأسد، تعود اليوم إلى مذبحة جديدة في سنة ٢٠١١، المذبحة الأولى في هذه المدينة قتل فيها أكثر من ٩٧ شهيدًا، خلال مظاهرات شعبيّة هتفوا فيها بشعارات ضدّ النظام، فكان الردّ عليهم بالرصاص، وطغت في ذلك الوقت أحداث حماة على أحداث جسر الشغور، نظرًا إلى حجم المذبحة، التي وقعت في مدينة النواعير بعد عامين. في المذبحة

الآن هناك ما لا يقلّ عن ٧٠ شخصًا سقطوا برصاص رجال الأمن، والمؤكّد أنّ هناك انشقاقًا حصل في الجيش خلّف الكثير من القتلى في الجيش والأمن، فطُوّقت مدينة جسر الشغور، وحلّقت طائرات مروحيّة فوقها، واحتلّها رجال الأمن. أخبار كثيرة تصل من جسر الشغور المحاصرة، وأخبار أخرى عن عدد اللاجئين الذين عبروا الحدود السوريّة إلى تركيا، والذين وصل عددهم اليوم إلى ٤٣٠٠ لاجئ، وقوّات الجيش تقف عند مدخل جسر الشغور، ولا تدخلها ويتوقّع أن يصل عدد اللاجئين إلى عشرة آلاف. يُبثّ مقطع ڤيديو على شاشات التلفزيون واليوتيوب عن السوريّين الذي هربوا من جسر الشغور خوفًا من القتل. أشعر أنّي أنكمش، أصابعي تتحوّل إلى سكاكين حادّة تخدش جلدي؛ صور لم ألمحها من قبل، أتعرّف إلى السوريّين من جديد، أتعرّف إليهم مثل صور عهدناها ونحن صغار عن اللاجئين الفلسطينيّين. عائلات تبحث عن سكن لها بين الأشجار. عائلات تعيش في العراء. عائلة تضع أواني المطبخ في صندوق بلاستيكي، وينظرون إلى الكاميرا بأسى. أطفال يتكوّمون حول أمّهاتهم اللواتي يشتمن الرئيس ويقلن: لقد هجّرنا بشّار من بيوتنا. اللاجئون يبدون في حالة إرهاق واضح، والخيمة التي صنعها الأهالي الذين لم يجدوا لهم مكانًا في مخيّم اللاجئين تبدو مهترئة. المشهد مثل فيلم خيالي عن أناس مشرّدين تائهين ضائعين جائعين، يأكلون في العراء، ينامون في العراء بين الأحراش، مثل بشر بدائيّين عاشوا قبل ملايين السنين. جنود يظهرون مع اللاجئين يتحدّثون عن القتل الذي يتعرّضون له من قبل رجال الأمن، في حال لم ينفّذوا الأوامر بقتل الناس. نساء يظهرن ويصرخن بأنّ الدبّابات داهمتهم في منتصف الليل، وأنّ الجنود والأمن والشبّيحة قاموا بقتل الأبقار، وأحرقوا أراضيهم، حتى حليب الأطفال المجفّف كانوا يرمونه. لا

أصدّق هذه الفظاعات. أعرف أنّها حقيقيّة لكنّي أودّ أن أعود إلى لعبتي في الاختفاء. أعرف أنّها تحدث، لكنّي أقف مذعورة مشدوهة، كيف يقتل نظام شعبه، كيف يقوم هذا الرئيس القاتل بإصدار قرارات الموت؟ هل سيهجّر شعبه كلّه؟ هل سيتحوّل السوريّون إلى لاجئين بعد أن اقتحم الجيش في الليل جسر الشغور وأحرق المحاصيل وقتل الحيوانات، ومشّط القرى المحيطة بها؟

أنتقل إلى أخبار المدن الأخرى، لا أفارق جهاز الكمبيوتر، هناك توتّرات في حمص، وتعزيزات عسكريّة تصل اللاذقيّة. النهار انتصف، والأخبار ما تزال تؤكّد أنّ قصفًا عنيفًا يحدث الآن في جسر الشغور بعد دخول الجيش إليها. لا بدّ أنّ النظام قرّر تلقين المنشقّين عن الجيش درسًا قاسيًا، وأنا أنتظر خبر وقف إطلاق النار، الإنترنت انقطع، ولم أعد أستطيع معرفة ما يجري حولي. البارحة أيضًا كان الإنترنت شبه مقطوع، والأيّام التي أعيش فيها من دون إنترنت تزيد. يقطعون الإنترنت. يقطعون الطرقات. يبيدون المدن. كابوس لن ينتهي.

كنت أحاول تفريغ لقاء أجريته مع صبيّة، وحبيبها الذي اعتُقل معها لساعات في تظاهرة في سوق الحميديّة، ولكنّ رأسي مشوّش، فقد بتّ على يقين تامّ أنّهم قد يلجأون إلى إبادة المدن السوريّة مدينة مدينة قبل أن يفكّروا بالتنحّي، أو بتغيير النظام. ولأوّل مرّة أفكّر أنّهم قد يفعلون في دمشق كما يفعلون في جسر الشغور في حال قرّرت دمشق التمرّد عليهم. اليوم أيضًا لأوّل مرّة أدرك أنّه من الصعب الحديث عن سيناريو مختلف عن فكرة الخراب. لقد بات واضحًا أنّ الرئيس لن يتنحّى بسهولة، وأنّ الناس لن تعود إلى نقطة ما قبل ١٥ آذار. الشعب لم يعد يريد النظام بالمطلق، والنظام يوجّه آلته الحربيّة ضدّ شعبه، والدماء كثيرة الآن. في اللاذقيّة عدد القتلى ١٦ قتيلاً،

والنظام ما يزال يقول إنّه يقوم بمحاربة عصابات مسلّحة، لكنّ رواية الجنود الذين استطاعوا الفرار مع اللاجئين، إلى الحدود التركيّة، تفضح ما يقوله النظام، فالجندي طٰه علّوش الذي عرض بطاقته أمام الكاميرا، قال إنّ هناك من يقوم بقتلهم إذا لم ينفّذوا الأوامر بقتل الناس، وهذا أمر صرنا نسمعه يوميًّا على شاشات التلفزة، ونسمعه من الناس الذين نلتقيهم، لكنّ الجنود الأربعة الذين هربوا من الرستن أكّدوا ذلك بوضوح لوكالة الأنباء الفرنسيّة. طٰه علّوش روى عن عمليّة تطهير مدينة الرستن التي يبلغ عدد سكّانها ٥٠ ألف نسمة في محافظة حمص، قال إنّه فرَّ من الجيش بعد ثلاثة أيّام، فقد ظنّ هو ورفاقه أنّه سيواجه عصابات مسلّحة، واكتشف أنّ الناس عزّل وبسطاء. ومحمّد مروان خلف هو مجنّد أيضًا في وحدة متمركزة في إدلب قرب الحدود التركيّة، ولا يزال هو الآخر مصدومًا من هول الحرب ضدّ العزّل. وأكّد هذا المجنّد الشابّ لوكالة الصحافة الفرنسيّة: «عندما بدأوا بإطلاق النار على الناس، رميت بندقيّتي وهربت»، موضحًا أنّ هذه المجزرة التي أسفرت عن ٢٠ إلى ٢٥ قتيلاً وقعت في السابع من حزيران، ويؤكّد هذا الجندي الفارّ الذي كان محمرّ العينين وزائغ النظرات، أنّه فكّر مع رفقاء له بالتمرّد، لكنّه تراجع عن هذه الفكرة بسبب خطرها على حياتهم. وأضاف «يضعون قنّاصة على بعض النقاط المرتفعة ـ عناصر شرطة بثياب مدنيّة ـ وعندما لا يطلق الجنود النار على المحتجّين، يقتلونهم». ويؤكّد وليد خلف مخاطر عصيان الأوامر، ويقول: «قبلنا أراد ستّة أشخاص أن يفرّوا، فقتلهم قادتنا». ومع خمسة عشر من رفاق السلاح، اختار هذا المجنّد الفرار، مع ذلك، بدلاً من الدخول إلى مدينة حمص الخميس الماضي، قال «كنت أعرف أنّه إذا ما دخلناها فإنّنا سنقتل عددًا كبيرًا من الأشخاص». هذا الخبر منقول

عن وكالة الأنباء الفرنسيّة وعن قناة العربيّة، وأنا تأكّدت من أسماء الأشخاص وعائلاتهم.

ينتهي الخبر هنا، أنقله، وأتابع أخبار القصف في جسر الشغور وأحوال اللاجئين في بلدة «بيلا داغي» التركيّة حيث مخيّم اللاجئين السوريّين، والآن أسمع علماء مسلمين من لبنان، وأشعر بالخوف من وجودهم، علماء بلحى طويلة، أحدهم يخطب بحقد ويطالب النظام السوري بإيقاف المجازر، أرتعد من الصورة. من أيّام وعندما خرج الشيخ العرعور بخطابه الطائفي على إحدى القنوات الفضائيّة، شعرت بالرهبة. لا فرق، ولا غرابة فيما يحدث، الإسلاميّون المتشدّدون مخيفون، ولا بدّ أنّ ما يقوم به العرعور يُسيء لحركة الانتفاضة السوريّة أكثر من الوقوف إلى جانبها، فالنظام السوري يقول إنّ الناس التي تخرج للتظاهر هم متشدّدون إسلاميّون، وهذه الصور الإعلاميّة ستجعل روايته مؤكّدة.

أفكّر أنّي بحاجة للخروج قليلاً، منذ ثلاثة أيّام أجلس في البيت، خرجت لموضوع ضروري من أجل مبادرة «نساء سوريّات لدعم الانتفاضة» ولقاء أحد الشباب من التنسيقيّات، وأعود. تزداد شراهتي في تناول الطعام، نحن ننتظر، يجب الاتّفاق مع عدّة أطبّاء من أجل أيّام الجمع لإسعاف الجرحى، فقد أكّدت لي إحدى الممرّضات أنّهم لا يسمحون بإسعاف الجرحى إلى المشفى، وأنّهم يقومون بقتل الجرحى أيضًا، وأنّ عددًا من الجرحى ماتوا أمام المشافي ولم يسمح رجال الأمن بإسعافهم.

تتواصل عمليّات القصف من المروحيّات في شرق معرّة النعمان ومنطقة وادي الضيف، وتصل الدبّابات إلى المنطقة. اللاجئون يهربون من بين المزارع، والنظام يتابعهم ويقتلهم بشكل عشوائي، معظمهم

يأتون من عوائل متفرّقة، وغالبًا يأتي رجل واحد مع كلّ نساء العائلة ويبقى الشباب ليحرسوا بيوتهم. الأطفال والنساء بحالة ذعر وخوف ومعظم الرجال الذين في المخيّمات من العجائز. الناجون من الموت يتكلّمون عن فظاعات تُرتكب وقتل عشوائي وتصفية جسديّة للجرحى. جميع الناجين نفوا وجود أو دخول أيّ مسلّحين من الخارج.

اقتحام المدن يتمّ بدون أيّ إنذار ويستهدف البيوت بدون تفريق أو تمييز، بدأت بعض القرى القريبة والتي من المتوقّع أن تشملها أعمال القتل بالهرب باتّجاه المخيّمات، ويتوقّع قدوم أعداد كبيرة من اللاجئين غدًا. الجيش يسيطر على جسر الشغور واكتشاف مقبرة جماعيّة فيها، وكلّ شيء فيها محروق؛ المقرّ الأمني، برج الاتّصالات، المحلّات التجاريّة، كلّ شيء محروق، والمدينة فارغة تمامًا.

٢٠١١/٦/١٣

لم نحظ بساعة صمت منذ يومين في الليل، في النهار، أوقات الظهيرة، أوقات الاستحمام، أوقات الغائط! في كلّ الأوقات نجد تلك الأصوات. أصوات سيّارات تزعق بشدّة. سيّارات فارهة ومجموعة من مكبّرات الصوت تقف وسط ساحة عرنوس القريبة من بيتي. شباب وبنات يرتدون قمصانًا بيضاء عليها صورة الرئيس، ويصدحون بصوت عال، يغنّون مع مكبّرات الصوت التي تصدح بأغنية تتشدّق بحبّ الرئيس. تجوب هذه المسيرات شارع الحمراء والشعلان والروضة ليل نهار. مقارنة بسيطة بينها وبين التظاهرات التي تنادي برحيل الرئيس تغضبني، الشباب والصبايا في التظاهرات، لا يركبون السيّارات وليس لديهم مكبّرات صوت سوى حناجرهم وهم بالكاد يتجمّعون لدقائق حتى تخرج عليهم وحوش آدميّة تبتلعهم في سيّارات وتدوسهم في الشارع وتدميهم، دقائق لا أكثر وتنتهي التظاهرة. في البداية كنت أقول إنّ نصف الشارع مع الرئيس، الآن أنا واثقة أنّه لا يحظى بتأييد أكثر من ٣٠ بالمئة وأغلبهم من الأقلّيّات الخائفة.

لم نعد نعيش بأمان في بيوتنا، كلّ شيء معرّض للتلف، الشوارع تحوّلت إلى مسارح للفوضى والاستعراض، في قدرة أيّ كان من المؤيّدين أن يأتي بمسجّل ومكبّر للصوت، ويبقى تحت نافذتي يصدح لأيّام، ولن يجرؤ إنسان أن يقول له: اصمت، نريد أن ننام. لن يفعل، ستنبت من الأرض تلك الوحوش وتنهال عليه. هذا ما حصل مع جارنا الذي طلب من أحدهم أن يخفض الصوت لأنّ ابنه يدرس، ولديه امتحان شهادة بكالوريا، الرجل الذي كان واقفًا يتحدّث بهدوء، صار في لحظات تحت أرجل الرجال المؤيّدين، دعسوا عليه، وكأنّ الدعس صار شيئًا اعتياديًّا. خلّصه الجيران، ونشأ عراك لم ينته إلّا بحضور الشرطة، أخذوا الجار معهم، ولم أعرف بقيّة القصّة.

لا أقدر حتى على التنفّس، رئتاي تؤلمانني. جلدي الذي صار خشنًا يلوذ بالهواء فيؤلمني، أتابع أخبار الموت في البيت، ولا أستطيع الحركة، أحاول الوصول إلى المدن المحاصرة فتواجهني الدبّابات. أحاول رؤية الناس الذين خرجوا من الحصار، فأخشى عليهم من المراقبة الأمنيّة التي أخضع لها. عاجزة مثل كرسي خشبي عتيق، مهمل في غابة نسيها المصطافون قبل سنوات طويلة، أسمع خبر انضمام مائتين من الجنود للمقدّم المنشقّ عن الجيش، يعلن ذلك على التلفزيون، يقول إنّ من بينهم أربعة ضبّاط، وما يقومون به الآن هو حماية المدنيّين، ومساعدتهم على النزوح بأمان، يقول: نحن لا نفعل شيئًا، نؤخّر وصول الجيش حتى ينجو الناس بأرواحهم. وعلى الفور تخرج تلك الصور المتلاحقة لرجل فقد بصره جرّاء انفجار قنبلة أمام عينيه بعد خروجه في تظاهرة، وتشييع أحد القتلى الذين وصلوا إلى الحدود التركيّة، القتيل الذي وصل جريحًا وتوفّي حالما عبر الحدود، وكأنّه مقدّر له أن يموت في أرض غريبة، لكنّ الأرض الغريبة تحضن أوجاعه وموته، وبلاده تشرّده وتطرده.

آخر مرّة حاولت النزول فيها إلى الشارع، كان رجال الأمن يشيرون إليّ، كنّا في التظاهرة النسائيّة.

ماذا سأفعل! ابنتي مبعدة عنّي، وأمّي مبعدة عنّي، ومحرومة من الذهاب إلى قريتي ومدينتي، ولا أستطيع أن أفعل أكثر! أنا المقيّدة بالهواء، الآن كلّ ما أفعله أن أحوّل آلام الناس إلى كلام عبر حواراتي ولقاءاتي مع الخارجين من المجازر والمعتقلات.

«شهادة حبيبين متظاهرين»:

في لقاء جمعني مع شابّ وصبيّة تمّ اعتقالهما في تظاهرة الحميديّة في الجمعة الثانية ٢٥/٣ قال الشابّ: «كانت تصوّر التظاهرة، فهجم عليها مجموعة شباب، كانوا يحملون الأعلام وصور الرئيس، وحوّلوا عصيّ الأعلام إلى هراوات وصاروا يضربوننا بها، وهم جماعة من اتّحاد الطلبة، أخذوها من أمامي، وأمسك بي ١٢ واحدًا منهم، وجرّوني، والناس الذين كانوا بجانبنا حاولوا تخليصي، تمّ ضربهم أيضًا. تقاطعه هي، وتقول: أمسكني أحدهم من صدري بتحرّش واضح وقال: بدّك حرّيّة يا شرموطة، يا يهوديّة، فقلت لهم: أنا علويّة. يتابع الشابّ الحديث عن حبيبته، وهو ينظر إليها: أنا صرت أبحث عنها، تركوني واعتقلوها، فسألت ضابطًا عنها، فقال: سنربّيكم كلّكم يا كلاب. ثم جرّني وأخذني ووضعني معها في حافلة، وصاروا يضربوننا على وجوهنا وعلى رؤوسنا بشكل عنيف، ووصلنا فرع الأمن العسكري في كفر سوسة، ونزلنا وهم ما يزالون يضربوننا، هي ذهبت إلى الانفرادي. تقاطعه الصبيّة: اثنان جرّوني جرًّا. ثم يتابع الشابّ: دخلنا. نحن، معتقلي التظاهرات، كنّا من المرجة والبحصة والحميديّة، كان هناك ثلاثة أولاد تحت سنّ ١٨ ورجلان من العجائز ودكتور من مشفى المجتهد. أحد المعتقلين صار يرتجف، قال لهم الطبيب إنّ الرجل نتيجة

الضرب على رأسه تعرّض لارتجاج دماغ، الشابّ أخذوه، وبقي في السجن، وكان ذنبه الوحيد أنّه رأى حبيبتي تُضرب وأراد مساعدتها، لم يكن في التظاهرة حتى! يقول الشابّ: دعسونا، دهسونا بأقدامهم، ورمونا على الأرض، وطال الوقت ونحن نُضرب، ثم جعلونا نجلس وكأنّنا نجلس بطريقة الجلوس على الكرسي، وكنّا عمليًّا نستند على أصابعنا وتحتنا الفراغ، حينها تدخل أصابع الرجلين في اللحم، وزن الجسم كلّه يتركّز على الأصابع. كانوا يضربوننا طوال الوقت، وعندما عرفوا أنّني من ضربت رجل أمن، أخذوني إلى غرفة منفردة وضربوني بعصا كهربائيّة، أغمي عليّ، أيقظوني. الطبيب قال لهم إنّي غير قادر على الكلام، وهم أرادوا أن أقول إنّ أحد المتظاهرين كان يهتف أنّه يريد إسرائيل، وأنّ هناك صورة لشارون كانت تُرفع في التظاهرة، وأنّ هناك شعارات طائفيّة، وهدّدوني باغتصاب حبيبتي إن لم أفعل ذلك، حينها قلت للمحقّق، أنا أتيت هنا لأنّها تعرّضت للضرب، فما بالك لو لمسها أحدكم، جرّبني وسترى! في هذه الأثناء كانوا يحقّقون معها، ومنعونا من شرب الماء، والفلسطينيّون تحديدًا تعرّضوا لضرب مضاعف. كان الضبّاط يضعون أحذيتهم على رقابنا، ويطلبون منّا تغيير إفاداتنا كما يريدون، وطول الوقت نُضرب، ويدوسون علينا، كان هناك الكثير من الشباب الذين تختفي ملامح وجوههم من شدّة الضرب والانتفاخ، كانوا يروحون ويأتون بيني وبينها، يقولون لي: أنت ستخرج، وهي ستبقى، كانوا يخرجونني ويدخلونني من الزنزانة ويتحدّثون عن مؤامرة وعن الخوف من السلفيّين إذا سقط النظام.

تقول الصبيّة حبيبته: كنت أسمع أصوات حبيبي وهو يُجلد.

يقول هو معترضًا: كانوا يريدونني أن أصرخ من أجل أن تسمعني هي، وكان يضربني وهو يقول: اصرخ، اصرخ، بعض العناصر تعاطفت معي.

تتدخّل الفتاة هنا، وتقول: توقّف الضرب بعد خمس ساعات وكان المحقّق يسخر منّي ومن صغر سنّي ويجادلني بسخرية: تريدين حرّيّة؟ وكان رجال الأمن يحيطون بي، فنظرت إليهم وإليه وقلت: أنت شو رأيك؟ يعود الشابّ فيقول: كان أحدهم يدخل إلى المهجع، ونحن نُضرب، ويقول بصوت عال: ممنوع الضرب، وهو يقول ذلك. يدخل آخر ويضربنا. الشابّ الذي جاء من القصر الجمهوري، كان رجلاً أنيق المظهر وجميلاً، قال لنا: أنا هنا لآخذ مطالب المتظاهرين. لم يجب أحد من السجناء، فقال رجل الأمن: ردّوا يا حيوانات. الجميع صامت. تمرّ دقيقة أخرى. الكلّ صامت ويعود رجل الأمن ويقول: ردّوا يا حيوانات. فيقوم واحد وجهه ممزّق والدم يقطر من وجهه ويقول له: يا سيدي ما حدا ضربنا، ما فينا شي! ويجلس بهدوء».

الشابّ الذي روى الحادثة كان أكثر لطفًا من حبيبته الفتاة الغاضبة، وكان يرويها بسخرية وزهو.

اليوم دخلت قناة «العربيّة» إلى جسر الشغور، وقالت إنّ هناك مسلّحين يقتلون رجال الأمن، وإنّ هناك نقطة تحوّل حدثت بين المحتجّين والنظام. شيء غريب يحدث! بدأت أخشى أنّه ستتمّ تغطية دوليّة لما فعله النظام. خاصّة أنّ النظام سمح بدخول وسائل إعلام إلى مدينة جسر الشغور، ومن ثم فتح قضيّة المقابر الجماعيّة، وهي فبركة كنت أعرف سخافتها، لأنّي وفي الشهرين الأوّلين كنت أتابع التظاهرات، وكنت أسمع ما يقوله الإعلام الرسمي، وما أشاهده على الأرض، ثم إنّ قصّة المقابر الجماعيّة التي رُوي لي عنها نقلاً عن ضابط موثوق، أنّ هؤلاء الذين عُثر عليهم في مقبرة جماعيّة لم يكونوا سوى رجال من درعا، أتى بهم رجال الأمن ومزّقوا أجسادهم ورموهم في حفرة، ليقولوا إنّ هناك عصابات مسلّحة تقتل. والمقبرة الثانية لم تكن

لرجال الأمن بل كانت لمعتقلين تمّت تصفيتهم ورفض رجال الأمن تسليم جثثهم لأهلهم. الخطير الآن أنّ النظام يُطبِق الإعلام بشدّة، ويفتحه عندما يريد تمرير بعض الأخبار، وهكذا يضيع الدم السوري، وسط ألاعيب النظام الإعلاميّة وبين ألاعيب السياسة الخارجيّة وتوازنات القوى. مع ذلك استمرّ حرق وتدمير جسر الشغور، وسمحوا للتلفزيون السوري فقط بالدخول والتصوير. يقولون إنّ العصابات المسلّحة هي من تقوم بالحرق والتدمير والقتل. اليوم يمرّ بلا اعتقالات في جسر الشغور، من سيعتقلون؟ المدينة خالية من سكّانها! والجيش يقصف الجبال التي هرب إليها السكّان الذين قُتل قسم منهم أثناء الهروب.

٢٠٠/٦/١٥

الآن في منتصف الظهيرة، أعود من شوارع دمشق، المدينة الملوّثة. كيف يمكن أن تكون مدينة ملوّثة بالبشر! أشعر بقرف مفاجئ، وتعادوني رجفات البطن، الشوارع مزدحمة، والسيّارات الفارهة تضع الأعلام والصور الكبيرة للرئيس، منذ أيّام لم ننم جيّدًا بسبب هذا الوجود الكثيف لمناصري الرئيس، ولكن هل هم مناصرون فعلاً؟ اليوم رأيت كيف يجبر الموظّفون في الدوائر الحكوميّة، على المشاركة في المسيرات، جماعات جماعات، ويتّجهون إلى حيّ المزّة حيث قرّر النظام وأتباعه رفع أكبر علم، كانوا يريدون الاستمرار في لعبة الدعاية التي تقول إنّهم أقوياء، يجبرون الموظّفين والعمّال على الخروج، ليبدو أنّ كلّ هؤلاء مؤيّدون للنظام، ومن لا يذهب يتعرّض للتنكيل والملاحقة.

درت في عدّة شوارع، ومررت بعدّة مبانٍ حكوميّة، والحال نفسه، طرق المدينة تقريبًا سُدّت، وزحام خانق مع شمس فاقعة، كنت أعود من مقهى بجانب القصر العدلي، والتقيت هناك بصديقة، زوجها معتقل، وتنتظر الإفراج عنه، وكانت من قبله معتقلة، والآن هي مطلوبة للتحقيق،

شيء يشبه الجنون! جلسنا على طاولة ننتظر خبرًا ما وكان برفقتنا محاميان يقومان بالدفاع عن المعتقلين. أحد المحاميين، وهو معتقل سابق، لأنّه كان يقوم بالدفاع عن المعتقلين، حدّثني عن الصعوبات التي يواجهها حاليًا في الدفاع عن المعتقلين وعن الظروف الماليّة السيّئة التي يعاني منها معظمهم، عندما رنّ هاتفه، نظر في عينيّ، وكنّا نجلس في مقهى كلّ روّاده من الرجال باستثنائي أنا وصديقتي، وكنت كعادتي، أدخّن. صار التدخين مثل التنفّس بالنسبة لي، نظر إليّ وإلى من حولي من الرجال الذين كانوا يراقبونني، قال: سأردّ على الهاتف، وبعد ذلك سأروي لك قصّة «م» وأنا صرت أنتظر قصّة «م»، فقد قالها بغرابة. كان المكان موحشًا، وأنا التي أحبّ الألوان بدوت غريبة فيه. أنهى مكالمته فقلت مباشرة: شو قصّة «م»؟ ابتسم وروى لي قصّة «م»:

(قبل شهرين ونصف، يعني تقريبًا بعد بدء حركة الاحتجاجات في سورية، قام «م»، من الحجيرة، وهي من ضواحي دمشق، بدقّ إزميل في تمثال لرأس الرئيس، وقطع أذنه، وهو يصرخ فيه ويطالبه بالرحيل، وكان سيكمل عمله، لو لم ينقضّ عليه باعة العربات، والذين يعرف الجميع أنّ معظمهم من الأمن الذي تنشره الأجهزة الأمنيّة بين الناس لمراقبة تحرّكاتهم. انقضّ عليه الباعة، وأوقفوه، ثم اعتُقل من قبل أحد الفروع الأمنيّة، وهناك تمّ ضربه بشدّة حتى فقد عقله، هو الآن مُصاب بفصام نفسي، لم يجد والده من يدافع عنه، حتى التقى بي، وأنا قبلت الدعوة بكلّ سرور. في السجن تعرّض لضرب مبرّح رغم إصابته بالمرض، ونحن حاولنا رفع دعوى من أجل وضعه الصحّي الذي تسبّبت به الأجهزة الأمنيّة، وبعد جهد استطعنا أن نحصل له على إفراج، ولكن كانت هناك تهمة أخرى تنتظره، فقد أخلّ بالآداب العامّة كما قالوا، كان يخلع ملابسه في السجن، ويطالب بإسقاط النظام، وهو ما اعتبر عملاً شائنًا يضرّ بالأخلاق العامّة!).

هذه قصّة «م» الذي قطع أذن الرئيس.

أترك المحاميين وصديقتي التي دخلت القصر العدلي لتسمع خبرًا عن زوجها، كانت كلّ يوم تذهب إلى هناك وتنتظر، ومررت لأخبر إحدى الصديقات عن المحامي الذي كان سيدلّنا على أسماء المعتقلين وأهاليهم، لنستطيع معرفة ظروفهم الاقتصاديّة ولتقديم الدعم المالي لهم بعد أن أنشأنا باقتراح منها مبادرتنا «نساء سوريّات لدعم الانتفاضة». لم أجد الصديقة في بيتها، وكان عليَّ المرور في تلك الأحياء ومراقبة الموظّفين الذين يخرجون من المباني الحكوميّة للمشاركة بمسيرة تأييد. ما جعلني أكثر صلابة رغم الحرّ الخانق، هو بدء عملي مع شباب وصبايا الانتفاضة، بعد إنشاء «نساء سوريّات لدعم الانتفاضة». اخترت العمل الميداني، واللقاء بتنسيقيّات الثورة لدعمهم بشكل مباشر والتحرّك معهم. كنّا بدأنا اجتماعاتنا منذ عشرة أيّام، للخروج بمشروع يجمع الانتفاضة، نساء وصبايا من مختلف الأعمار. كانت الأولويّات بالنسبة إلينا هي الحركة على الأرض مع المتظاهرين. كنت مللت اجتماعات الأسماء المعروفة من المعارضة التي رأيت أنّ ما يقومون به لا يؤخّر ولا يقدّم ولا يساعد، أو ربّما يشكّل طيفًا ما. بالنسبة لي كان من المهمّ النزول مع الشباب، ومدّ الانتفاضة بأقصى ما يمكنني من دعم وقوّة. الخطوة الأولى التي ركّزنا عليها هي في وجود أطبّاء داخل أماكن التظاهرات، وبالتالي يجب أن نتّفق مع أطبّاء موثوقين وشجعان للتواجد داخل المناطق قبل يوم من التظاهرة، وهذا أمر لم يكن سهلاً، لأنّ الأجهزة الأمنيّة عندما تكتشف أنّ أيّ طبيب يقوم بإسعاف الجرحى كانت تقوم باعتقاله وتعذيبه أو قتله. إضافة إلى ذلك كنّا نقدّم أدوات التضميد والإسعافات الأوّليّة، وهذا الأمر جعلني ألتقي ببعض الأطبّاء الشباب الذين كانوا يسعون لتشكيل تنسيقيّة أطبّاء دمشق، وكانوا يريدون دعم

الانتفاضة. الأمر الثاني كان إنشاء صندوق دعم للانتفاضة وجمع التبرّعات من أجل المعتقلين وأهاليهم، ومن أجل بعض الشباب والصبايا الذين اضطرّوا لترك أشغالهم وأعمالهم والتخفّي والعيش سرًّا والعمل من أجل الانتفاضة. كانت هذه خططنا الأولى؛ وبالنسبة لي، كان هذا جزءًا من عملي معهم لأنّي كنت أواظب على لقاء العديد من الأشخاص ومعرفة إلى أين يتّجه الحراك السياسي في سورية؟

كانت سورية تغلي فعلاً. الناس تجتمع وتحاول القيام بشيء ما، التجمّعات تتشكّل، المعارضة تلمُّ نفسها، الكلّ يريد أن يساهم في عمليّة التغيير، لكن حتى الآن، لم يتشكّل تيّار قوي موحّد، لكنّي أعرف أنّ الكلّ يتحرّك، هذا مؤشّر جيّد.

غدًا سيكون يومًا حافلاً، سألتقي بعدد من التنسيقيّات في دمشق وضواحيها، وهذا بحدّ ذاته سيشكّل بداية عمل جدّي على الأرض. الآن في ليل الخامس عشر من الشهر السادس، أعود إلى البيت بعد لقاء تجمّع علماني شبابي، وأنتظر ابنتي، كانت تعود من رحلة طويلة، وكنت أشعر بخوف مضاعف عليها، لكنّها عندما وصلت سخرت من خوفي، وقالت إنّها كانت سعيدة في بانياس، وإنّ القلق الذي تشعر به في دمشق كبير جدًّا. أجلس على الشرفة. اليوم خسوف كلّي للقمر، أدخّن وأحادث ابنتي. السماء زرقاء تمامًا في الليل، والخسوف يتحوّل إلى الأحمر قبل أن يكتمل. ما زال قلبي يؤلمني، وما زلت أشعر أنّ الدبّابات التي تحتلّ المدن وتُبيد الناس لن تتوقّف. الدبّابات تتّجه نحو البوكمال ودير الزور، ومعرّة النعمان تخلو من أهلها، وأكثر من ٨,٥٠٠ لاجئ سوري يهربون من بيوتهم وقراهم ومدنهم. من يفعل هذا بشعبه؟ الرئيس القاتل! هل وُجد قتل من هذا النوع على مدار التاريخ! لا أعرف، ربّما لم يحدث منذ أيّام تيمورلنك؟ يجب أن أعود إلى كتب التاريخ لأعرف أكثر عن أشهر

السفّاحين وأشهر المجازر التي مرّت على هذه المنطقة.

الآن لم يجتاحوا المدن فقط، أيضًا احتلّوا فضاء السمع والنظر، السمع بأصوات مكبّرات الصوت التي لا تنتهي كلّ يوم، وهم يهتفون: بالروح بالدم نفديك يا بشّار. والنظر في شارع الحمراء والصالحيّة العريقين في قلب دمشق يتحوّلان إلى تهريج مميت، رجال الأمن ينتشرون على شكل باعة ملابس، باعة عرانيس ذرة، باعة كلّ شيء، مسألة مضحكة، البسطات تنتشر على الأرصفة، والناس تتكاثر حول البسطات، حجم البشر يتضاعف لأنّ البضاعة رخيصة، الأجهزة الأمنيّة تنشر رجالها في كلّ الشوارع وفي كلّ مكان، أصحاب المحلّات الأنيقة والأصليّة في الشارعين العريقين، يقفون مكتوفي الأيدي.

أهالي معرّة النعمان هربوا منها والجيش يزحف، وجسر الشغور مدينة أشباح، والناس يفرّون منها، وحماة تتظاهر من جديد، والحدود تفتح اليوم مع الأردن بعد شهرين من إغلاقها. ألفا متر طول العلم الذي رفعه المؤيّدون، وعلى الحدود التركيّة يقف اللاجئون يطالبون بإسقاط النظام. اللاجئون يصرخون على شاشات التلفزة: طلبنا شويّة حرّيّة قتلوا نصف الشعب السوري، الثوّار يقرّرون أن يطلقوا على هذه الجمعة اسم جمعة «صالح العلي» الرجل الثائر الذي رفض عرضًا فرنسيًّا لإقامة دولة علويّة، وبقي مصرًّا على وحدة سورية. أيضًا اليوم انشقّ ضابط جديد، إبراهيم منير، وهو نقيب، أعلن انشقاقه معطيًا الأسباب التالية: «توريط الجيش في الدخول إلى المدن الآمنة وقتل المدنيّين وترهيب الأهالي، وتوريط الجيش في حماية الشبّيحة». واليوم دعوة لعقد مؤتمر إنقاذ وطني، ونساء درعا يخرجن للتظاهر رغم الحصار ويردّدن: «يلّلي بيقتل شعبه خاين». وأهالي مدينة حماة يُنزلون تمثال الرئيس، يُسقطونه أرضًا، التماثيل تسقط في المدن. التمثال تلو التمثال.

٢٠١١/٦/١٦

كان صباحًا رماديًا، وعاودتني الكوابيس، منذ الثالثة صباحًا وحتى التاسعة وأنا أحاول التغلّب على الكابوس المرعب الذي رأيته. قرّرت التوقّف عن سماع القصص والذهاب إلى أماكن التظاهرات. يجب أن أهدأ قليلاً، البارحة وأثناء الاجتماع بأحد شباب التنسيقيّات التقيت بشابّ، مخرج سينمائي، وروى لي عن اعتقاله في السجن، وكيف أنّ أسوأ ما حصل معه لم يكن التعذيب الذي تعرّض له بل مشاهدته لعذابات رجل عجوز وأبنائه الثلاثة. كانوا يقومون بأخذ أحدهم إلى التعذيب، يغيبون به ساعات، وينتظر الإخوة والأب، وعندما يعودون به، يكون في حالة إغماء وجسده مشوّه والدماء تنزّ منه. ينتظرون حتى يفيق من إغمائه وهكذا طول النهار والليل، كان هذا العجوز وأبناؤه يبكون، وهم يشاهدون عذاباتهم تتوالى عذابًا تلو عذاب. الأمر الثاني الذي كان قاسيًا بالنسبة للمخرج الشابّ كان في جعلهم بعضهم يدوس فوق بعضهم الآخر، فالممرّ في السجن كان ممتلئًا بالمعتقلين، وكانوا يرصفون الممرّ مثل حجارة طريق، وكان يطلب من معتقلين آخرين أن

يقوموا بالمشي عليهم. المخرج وجد ذلك صعبًا عليه، لكنّ الذي لا يقوم بالمشي على المعتقلين كان يُضرب فيقع فوقهم ويكون الألم أكبر، حتى إنّ أحد المعتقلين المرميّين في الممرّ قال له: أرجوك دُسْ علينا هذا أهون من أن تسقط.

في الكابوس، رأيتُ نفسي أمشي فوق بركة الدماء، وكان هناك عجائز، وأجساد غريبة، وألوان تشبه النحاس، لا أعرف إن كان ما رأيته كابوسًا أو استعادة لما أسمعه يوميًا، لكنّه جعلني منذ الثالثة صباحًا أجلس، وأنتظر الصباح. عادتي اليوميّة الاستيقاظ في الرابعة، ولكنّ كلّ شيء تغيّر منذ أن بدأت الانتفاضة، وصار نومي مرهونًا بالمهدّئات، وعندما أحاول التغلّب عليها وأمتنع عنها، أنام ساعة ثم أصحو، ثم أغفو قليلاً وأصحو. يومي طويل. كان من المهمّ إجراء بعض الاجتماعات من أجل إطلاق تجمّع النساء بشكل جدّي، كنت أفكّر أنّنا بحاجة للخروج بشكل مؤسّساتي بجهودنا، حتى نكون فاعلين على الأرض. تصلني معلومات بأنّ الإسلاميّين يشتغلون على الأرض، وأنّ قوّتهم الماليّة هائلة، لكن ذلك لا يعني شيئًا.

أحضر ثلاثة اجتماعات لهذا النهار مع شباب التنسيقيّات، ومع الصبايا اللواتي سيتحمّلن مسؤوليّة الصندوق المالي الداعم للانتفاضة. واللقاء بالطبيب الشابّ الذي سيشكّل تنسيقيّة أطبّاء. خرجنا من الاجتماع بضرورة توحيد جهود الأطبّاء، من أجل الحصول على تنسيقيّة مشتركة، وهم الأطبّاء الذين سيعتمد عليهم في إسعاف الجرحى وإنقاذ ما يمكن إنقاذه في المدن المحاصرة والأحياء والضواحي أيضًا. ورغم أنّ الخطر الذي يتعرّض له أيّ طبيب يساعد المتظاهرين أو يسعفهم لا يقلّ عن خطر الاعتقال أو الموت، إلّا أنّ الأطبّاء والطبيبات تطوّعوا بشكل كبير، وكان يجب ربط هؤلاء مع جماعة النساء. أهمّ مطالب التنسيقيّات

كان إنشاء صندوق دعم مالي يضمن تأمين المعدّات الطبّيّة والاهتمام بالمعتقلين وأهاليهم، وانطلاق حملات توعية بين الناس. كلّ هذا يعني أن نعمل على تأسيس مؤسّسات مدنيّة بأقصى سرعة ممكنة للحاق بالانتفاضة ودعمهما بشكل جدّي. كنت أخشى أكثر ما أخشاه أن لا نستطيع أن نقوم بالعمل المطلوب منّا.

أعود إلى بيتي شبه منهارة من التعب. لا أغسل وجهي، أندسّ في سريري، وكآبة مضاعفة تحتلّني. كان قلبي أسود، وأخبار أهلي تؤلمني أكثر من أيّ أمر آخر. البارحة في جبلة قامت معلّمة بتوبيخ ابنة أختي أمام صديقاتها، قالت لها بأنّها ستلاحقها هي والكثير من مدرّسات جبلة وستلاحقني وأنّي يجب أن أبدأ بإصلاح نفسي، وبأنّه لا يوجد علوي واحد من جبلة خرج بكلّ وقاحتي وأنّي خائنة وأنّي عاهرة وأنّي وأنّي.. وأنّ كلّ العلويّين بريئون منّي. أمّا التهديدات الهاتفيّة فقد تناقصت، والضابط الكبير توقّف عن ملاحقتي منذ عشرة أيّام.

٢٠١١/٦/١٧

«جمعة الشيخ صالح العلي».

يعود بعض سكّان جسر الشغور إليها، فتحصل بعض حالات اغتصاب واعتداء وضرب، عائلة تُقتل. وفي حماة يرفعون علمًا بحجم كبير في حركة مواجهة للعلم الذي رفعه النظام البارحة. المدن السوريّة تستمرّ في التظاهر. تسعة وعشرون قتيلاً يسقطون هذه الجمعة. في حمص ثمانية منهم، وشرطي واحد. الشهر الرابع، والمتظاهرون يخرجون، والنظام لا يتوانى عن القتل والاعتقال. في دمشق يخرجون بكثافة، وفي حلب تخرج مظاهرة. ودرعا المدينة المحاصرة والمكلومة، تخرج للتظاهر. إعلام النظام الكاذب ما يزال يقول إنّه يحارب إرهابًا وعصابات مسلّحة. لا ينتهي الموت، والقتل يصل إلى لبنان، ستّة قتلى وعشرات الجرحى، مرة أخرى رسالة من النظام إلى لبنان: إذا لم يأمن النظام السوري فهم ليسوا بخير.

في كلّ جمعة يخرج السوريّون أكثر من الجمعة التي قبلها، ويُسفك

المزيد من الدم. عدد اللاجئين يزيد عن عشرة آلاف، واليوم أيضًا الجيش يمنع تدفّق اللاجئين، بعد محاصرة القرى التي تؤدّي إلى تركيا، يبدو أنّ النظام قرّر حصارهم ومنعهم حتى من هجر ديارهم، لكنّ العودة كانت مستحيلة، لأنّ هناك أخبارًا مروّعة عن قتل من عاد وتعذيب عائلات.

أتساءل: أين سيذهب السوريّون؟ كانوا يخرجون إلى الفضائيّات في المخيّمات، ويقولون إنّه لا توجد عصابات مسلّحة، وإنّ الجيش هو من قتل، وإنّهم لن يعودوا حتى انهيار النظام وسقوطه. كان هناك بعض اللاجئين الذين لم يستطيعوا تجاوز الحدود ويعيشون في العراء، ويناموت تحت الأشجار، هؤلاء كانوا يعيشون حالة كارثيّة، وظروفًا لا إنسانيّة، أفكّر بالأطفال الذين يلتحفون السماء، وألمح عيونهم المرهقة، وهم ينظرون إلى عين الكاميرا. سينفجر رأسي من هذه الأخبار، لا بدّ من حبّة منوّمة، لتغمض عيناي.

٢٠١١/٦/١٩

اليوم نسمع أنّ الرئيس سيُلقي خطابًا في الغد، ولا أنتظر شيئًا مهمًّا منه. بالنسبة لي هو قاتل فقط ويجب محاكمته على هذا الأساس.

كلّ يوم يمرّ في هذا المكان يجعلني أشعر أنّ شيئًا ما في جلدي يتحوّل إلى حراشف. عادت التهديدات الهاتفيّة، وقام الضابط الكبير باستدعائي مرّة أخرى، ويبدو أنّهم يعرفون ما الذي أفعله، كان حديثه مقتضبًا، وجعلني أعرف أنّه يراني. كنت أظنّ أنّ صمتي وعدم نشر المقالات سيجعلني غير مرئيّة، أو كنت أعتقد أنّي انتهيت منهم، لكن يبدو أنّ شيئًا ما حدث، شيئًا لا أفهمه، كأن يكون تمّ تسريب خبر عن «نساء سوريّات لدعم الانتفاضة السوريّة» أو تسرّب خبر أنّي ألتقي بالتنسيقيّات، وأعمل معهم. المؤكّد أنّ لديهم مخبرين، فليس من المعقول أن يتعقّبوني على هذه الدرجة من الدقّة. نقلت مخاوفي للشباب وتمنّيت عليهم الحذر. فعلاً شعرت بالخطر على الشباب والصبايا، وكان يجب أن ألتقي بمنسّقة المجموعة في مبادرتنا «نساء سوريّات لدعم الانتفاضة» وإخبارها أنّي يجب أن لا أجتمع بهنّ حفاظًا عليهنّ، كنت

أكثر من مستاءة، فثلاثة مواعيد كان من المفترض أن تُنجز، ولم يتحقّق منها شيء.

أعود وأفكّر بالشغف اللازم لإنجاز أعمال كهذه في هذه الأوقات الصعبة، كنت غير راضية، وفعلاً يبدو أنّي لا أستطيع العمل ضمن إيقاع جماعي بطيء إلى هذه الدرجة. تتالت الاجتماعات والنتائج بطيئة لا تواكب حركة الشارع. أعرف أنّ العديد من النساء في المبادرة تظنّ أنّي مندفعة أكثر ممّا يجب، لكنّ الحقيقة أنّي كنت أكثر إحباطًا ممّا يجب، وأنّي أعرف أنّ الوقت لم يعد يسعفنا، وأنّ الناس التي تخرج للمطالبة بالحرّيّة أسرع من حركة النخبة المتثاقلة. بدأت أتأكّد أنّ المفهوم الأخلاقي الذي تأسّس لقرون طويلة على أساس ديني، ليس هنا فحسب، بل وفي العالم كلّه، يجب إعادة إنتاجه بنظريّات عن الأخلاق تؤسّس لمفهوم مختلف، أثبتت الشعوب انحيازها له، فجوهر الانتفاضة السوريّة كان أخلاقيًا بالدرجة الأولى.

أعود لتفاصيل الواقع، اليوم تأكّدت أنّ الأجهزة الأمنيّة لن تتركني، كانوا يلاحقونني بشكل مباشر. في الواقع كان هو فقط، الضابط الكبير، الذي يعتقد أنّ موقفي من الانتفاضة موجّه ضدّه شخصيًا كعلويّ، وكنت بدأت أملُّ من صبري عليه. قال لي إنّه يعرف من ألتقي واحدًا واحدًا، وأظنّ أنّه يكذب، لكنّ لديهم معلومات أنّي صمتُّ كي أعمل في السرّ، وتفصيلات أخرى لا أظنّ أنّهم يملكونها، ربّما تجمّعنا المسائي مع نساء لدعم الانتفاضة عرفوا به، ولكنّي فكّرت أنّ وجودي بين أيّ مجموعة بعد الآن سيشكّل خطرًا عليها.

لا أستطيع أن أكتب.

لا أستطيع أن أشتغل على الأرض مع شباب التنسيقيّات.

لا أستطيع أن أفعل شيئًا.

أستطيع فقط أن أتألّم الآن.

أعرف أنّ التنفّس محسوب عليَّ. الشهقة محسوبة. الحركة. الخطوة. كلّ شيء محسوب ومُراقب. هناك سجن في داخلي. لن يقوموا باعتقالي. هذا أمر مؤكّد. ولكنّهم سيدفعون بي إلى الجنون، كانوا يعرفون أنّي لن أستطيع البقاء هكذا، ويريدون أن يقولوا لي إنّهم يراقبون حتى الهواء الذي أتنفّسه، فكّرت بالتخفّي نهائيًا، ولكنّ وجود ابنتي أعاقني، سيكون من الصعب أن تختفي معي.

اليوم أيضًا تظهر أنجلينا جولي على الشاشات التلفزيونيّة، وهي تزور اللاجئين السوريّين، ينفطر قلبي، السوريّون تحوّلوا إلى مشرّدين، والمشاهير يتزيّنون بهم، والسياسيّون الأتراك يقبّلون الأطفال السوريّين أمام عدسات الكاميرا، ولعبة السياسة القذرة تمتدّ وتمتدّ.

أسمع أنّ هناك مجلسًا وطنيًّا يتشكّل لمواجهة النظام، ويطرح نفسه ممثّلاً للقوى السياسيّة في الداخل والخارج، والجيش يقوم بتعزيز وجوده على الحدود التركيّة، وقرية خربة الجوز تُحاصر ويُلاحق أهلها ويُعتقلون لأنّهم ساعدوا اللاجئين من جسر الشغور، مع ذلك يستمرّ انشقاق الجيش، ولكن هذه المرّة من القوى البحريّة، حيث يظهر الضابط محمود حبيب، ويعلن انشقاقه، كما يظهر الرقيب إسماعيل الشيخ صالح من المخابرات الجويّة، ويعلن انشقاقه أيضًا. ينتهي يومي بظهور شابّ على شاشة الجزيرة كممثّل للجان التنسيق المحلّيّة. أشعر بقليل من الرضا، فهذا على الأقلّ شيء جيّد لهذا اليوم.

٢٠١١/٦/٢٠

مواتُ عقل. مواتُ قلب. آن أن تنصرفوا، أريد العودة إلى رقص موسيقى القصب، فهو حياتي الوحيدة في هذا العدم.

أريد استعادة شغفي بالكلمات، بإيقاع الحروف، وولعي بهبوط الجيم نحو مستقرّ عميق، وطيران حرف الألف في مدد لا متناه، وانكسار الياء في صعودها نحو تشكيل الحاءات والهاءات الداعية إلى الهمس، والنون في رحمها الحنون.

أريد استعادة حرارة أصابعي، وهي تتحرّك كعود قصب في كفّ ريح، وهي تقنص الكلمات وترسم الصور تلو الصور في عالم من هواء. عالمي الذي أنتمي إليه. أريد العودة إلى شغفي بزهد التفاصيل الواقعيّة لحياة البشر. أريد العودة إلى ازدراء المواعيد والحوارات واللقاءات ورنين الهواتف. إلى تأمّلي الخاصّ في حديث يجمعني مع فنجان قهوة.

أريد استعادة حكمتي في تبدّد الأحوال. أريد ليلة واحدة للنوم بعمق، دون أن تنغرس مسلّة نار في قلبي، وتخرج كصدأ من عيني. أريد

ترف انتقاء الوجوه التي أغمرها بتفاصيلي.

فقط، وهكذا ببساطة، أريد العودة إلى عزلتي المزدحمة بشخصيّاتي الروائيّة. الكلّ ينتظرني هناك في مكان ما من عقلي المريض بهم، والواثق منهم. إنّهم ينتظرون أن تنصرفوا أيّها الحمقى. أريد القليل من الأشياء البسيطة، كأن لا تدمع عيناي كلّ ساعة، أو ألّا أرتجف عند سماع صوت قوي، أو ألّا أقفز كمجنونة عندما تصرخ جارتي العجوز في البناء التي تسكن لوحدها مع زوجها العجوز. أترقّب موت أحدهما في كلّ لحظة، كنت كتلة من الأعصاب المستفزّة، وكيف لا أكون كذلك، وأنا أنام على أخبار القتل وأصحو على رائحة الدماء وقصص الاعتقال والتعذيب!

هذا النهار، كان رنين جرس البيت مبكرًا في الخامسة والنصف صباحًا، في البناء الذي أسكنه لا يوجد سوى شقّة العجوز، وفي الطابق الأوّل طبيب أسنان، عمليًّا كنّا الساكنَين الوحيدَين، أنا وهذه العجوز التي تعيش مع زوجها شبه المقعد. كانا وحيدين لدرجة مؤلمة، وكنت أثناء مروري وصعودي الطابق الأخير الذي أسكنه أمرّ بخفّة أمام بيتهما، لأنّها بالتأكيد ستفتح باب بيتها، وستجعلني أقف لوقت طويل لتحكي لي عن وحدتها وعن حزنها على وفاة ابنتها الوحيدة. في البداية كنت أقف وأستمع إليها وأزورها، لكنّ ذلك يعني بالنسبة لي انقضاء نصف النهار، ومن جهة أخرى، يعني أن أقضي نهاري معكّرًا. كان هناك شيء موجع في حياة هذين العجوزين، يجعل من فكرتي عن العدم تزداد رسوخًا. عجوزان وحيدان من أبناء مدينة دمشق، لا أولاد لهما، والأقرباء بالكاد يظهرون، يعيشان في بيت ذي رائحة عطنة، يدلّ على أنّهما كانا من أصحاب الثروات، ليست مشكلتهم في الفقر بل في تأخّر الحياة عنهم، أو في درجة متساوية تأخّر الموت. هذا مؤلم بالنسبة لي. اليوم سقط

زوجها على الأرض وتقيّأ، وأنا كنت قد نمت وكالعادة على خبر جعلني أفيق وأسناني تؤلمني من اصطكاكها، أخبار اللاجئين كانت محزنة.

لا أعرف ما الذي يتوجّب عليّ فعله للجارة العجوز، الرجل العجوز شبه فاقد للوعي، والمرأة تبرطم وتلعن حياتها، وبيت برائحة عطنة وغبار وكراكيب تتوزّع في كلّ أنحاء المنزل. ساعدتها وبقيت معها. كنت أرتجف وأنا أخرج. فكّرت لثوان أنّ أعصابي مرهقة حتى أبدأ في البكاء أمام كلّ مشهد مؤلم. العجوز تنظر في عينيّ، وبدا وجهي أحمر أكثر ممّا ينبغي، وأنا أخبرها أنّ عليها فقط أن تطلبني في أيّ ساعة تشاء، وأنّي هنا مثل ابنتها. طفرت الدموع من عينيها ورمت نفسها في حضني، كانت ضئيلة، وأنا كنت أرتجف. قالت: آه يا بنتي لو بتعرفي حرقة قلبي عليها. قلت لها: يا خالتي الله يرحمها هذا قضاء الله وقدره، وقمت برفع غطاء رأسها الذي سقط وتركتها فورًا حتى لا تلمح دموعي، حتى إنّي لم أنظر في وجهها. صعدت الدرج بسرعة، لا شيء يستحقّ، نعم لا شيء يستحقّ أن نحتفل بالحياة من أجله.

كانت الصور تعود أمام عيني، الصور المرعبة التي بدأت منذ أن بدأ السوريّون يُقتلون ويُعتقلون ويُرمون في مقابر جماعيّة وتُقطّع أجسادهم. والآن تظهر صور اللاجئين على الشاشة، وكيف يعيشون. الناس البسطاء يقولون إنّهم هربوا من الدبّابات، لأنّهم لم يفرّقوا بين طفل وعجوز وامرأة ورجل، كلّ يوم يظهرون على الشاشات، يتحدّثون عن هروبهم المتلاحق، وأنّهم تركوا كلّ شيء وراءهم، هربوا بأرواحهم، والجيش السوري ما يزال يعزّز وجوده. الغريب أنّهم هجّروهم من بيوتهم، ومن ثم يقومون باللحاق بهم أثناء هروبهم. لا يكتفون بالقتل والتشريد والتنكيل، بل يلحقون بمن تبقّى من الأحياء! هذا شيء جنوني.

اليوم ألقى الرئيس خطابه الذي كان مفاجئًا ومخيّبًا وأسوأ من الخطابين السابقين. كان يبدو في شكله أقرب منه إلى الغباء اللئيم. شعر السوريّون بالغضب وخرجوا في مظاهرات رفضًا للخطاب، بقي الرئيس يقول إنّ هناك مؤامرة، وإنّ هناك عصابات. لم يعترف بالأزمة الخانقة التي تعاني منها البلاد، وكان بين وقت وآخر يضحك ويقوم بشرح البديهيّات. كان يبدو مثل فرانكشتاين كرتوني، يتفوّه بخطاب إنشائي ركيك حول آليّات جريمة منظّمة ومدبّرة. والشعب السوري يردّ: التظاهرات في المدن تخرج في حمص وحماة وإدلب وحلب والعديد من المدن السوريّة، كان هذا الخطاب باختصار استهزاء بالدم السوري، ويعني باختصار استمرار الحلّ الأمني العسكري.

بعد خطاب الرئيس يعلن التلفزيون الرسمي عن اكتشاف مقبرة جماعيّة في جسر الشغور، ويقولون إنّها لعناصر من الأمن والجيش، وهي المقبرة الثالثة التي يعرضونها. الجثث مقطّعة الأوصال، ومشوّهة، وتُعرض ببساطة أمام الكاميرات. أهالي جسر الشغور والمنشقّون من الجيش يقولون إنّ عناصر الأمن وبعض عناصر الجيش هم من يقومون بالقتل، ويصنعون مقابر جماعيّة من أجل إلصاق التهمة بالمسلّحين، والتأكيد على الرواية الرسميّة «إنّ إبادة المدينة كانت بهدف تطهيرها من المسلّحين».

الجنون يستمرّ والقتل يستمرّ، والنظام يقول يومًا بعد يوم: أنا أو سياسة الأرض المحروقة، وما يتبقّى من أشلائكم أيّها السوريّون.

أنا انتظرت شيئًا ما رغم عدم ثقتي، لكنّي فعلاً كنت أتمنّى حدوث معجزة تنقذ هذا البلد من الدمار.

•

٢٠١١/٦/٢١

اليوم مسيرة كبيرة مؤيّدة للرئيس، خرج كلّ الموظّفين بالإكراه، من لا يخرج يُفصل من وظيفته ويُنكّل به. كانوا يحوّلون كلّ العاملين في مؤسّسات الحكومة إلى رجال أمن، ومن لا يفعل يتمّ طرده. كنت أمشي في الشوارع وألمح وجوه المؤيّدين، وكالعادة دموعي تسبقني. مرّت أربعون سنة هي كلّ حياتي، رغم كلّ الآلام التي واجهتها لم أبك كما يحدث الآن. شهور قليلة تكفي كي تعرف امرأة مثلي ما يعنيه فيضان الدمع. شهور قليلة من عمر مضى، عمر حزين، أشعر أنّي لست نادمة على ما مرّ فيه، لقد ردّت لي الانتفاضة إيماني بأفكاري عن الحياة والعدالة والقوّة. وكنت في الشوارع أبحث عن شيء ما ضاع منّي، شيء أتخيّله، وألمحه في وجه الشباب والفتيات الذين يعتلون السيّارات الفارهة التي تدور في دمشق، وتحمل الأعلام وصور الرئيس. الفتيات كنّ متبرّجات، وجميلات، وكأنّهنّ مدعوّات لسهرة للاحتفال، والسيّارات السوداء اللامعة تتحوّل إلى موكب يسدّ طرقات دمشق، أنتحي جانبًا وأراقب.

لم يكن بإمكاني البقاء في البيت، ولكنّي فكّرت أنّه يجب العودة، وإضافة قصّة جبلة، وما حدث فيها. جبلة مدينتي التي وُلدت بها، هي الآن محظورة عليّ. الأشياء المحظورة كثيرة، لكنّي رغم ذلك أشعر بالرضا الذي يدغدغ في قلبي خيطًا رفيعًا من السعادة، يكاد يكون خيطًا من غبار.

قصّة جبلة

صديقتي الرائعة التي تطوّعت كي تذهب إلى مدينة جبلة، وتأتي لي بالقصص والحكايا التي حدثت، كانت من المدينة نفسها، ويعيش أهلها في المدينة، وللأسف كان من غير الممكن أن أرسلها إلى قرى العلويّين لأنّها، بحكم المولد، تنتمي للطائفة السنّيّة، لكن تمّ الاتّفاق بيني وبينها على إنجاز هذه اليوميّات التي تتعلّق بما حصل على أرض الواقع، ونقل حقيقة الأحداث.

كانت فكرتنا أن ننقل ما حدث في المدينة التي نشأنا فيها، والتي غطّتها الكثير من الأخبار الضبابيّة، وغير الواضحة نظرًا للانتشار الكثيف للأمن ورجال الشبّيحة أتباع آل الأسد فيها. روت صديقتي بعد جولة قامت بها لمدّة عشرة أيّام، أجرت من خلالها العديد من اللقاءات، أنّ دمي مهدور بين غالبيّة العلويّين. كانوا يعتبرونني خائنة، أمّا أهل جبلة البلد فكانوا متعاطفين معي، ويعتبرون أنّي وقفت إلى جانبهم، يا لهذه التراجيديا الكابوسيّة! ما هو منطق العدل، وما هو منطق الحقّ؟

هذه الشهادة لشابّ من جبلة:

يقول: بعد خروج بثينة شعبان بخطابها المليء بالوعود الخدميّة والسياسيّة، كانت جبلة تشهد يوميًّا مظاهرات مؤيّدة واستبشرنا خيرًا

بداية التغييرات في سورية وتفاءلنا بحذر.

أصبحت مسيرات التأييد التي تشهدها شوارع جبلة يوميًا استفزازيّة ومتعبة للروح والأعصاب، فكيف لا ننزعج وليس هناك أيّ تعاطف إنساني معنا؟ وبدأت محاولتنا الأولى، رغبة إنسانيّة وبشريّة بالتعبير عن رفض الظلم ورفض الكذب من وسائل الإعلام الرسمي. بدأنا بالتنفيذ في الجمعة التالية لمجزرة درعا، وكادت حركتنا الاحتجاجيّة أن تنجح من جامع أبي بكر الصدّيق، لولا أنّنا فوجئنا، لدى خروجنا، بمحاصرة الجامع بواسطة سيّارات الإطفاء، والتعامل بوحشيّة مع شابّ اعترض بصوت عال على تواجد عناصر الأمن عند الجامع. انفضّت أوّل جمعة باعتصام داخلي، وكان حجم التأييد والتشجيع كبيرًا من قبل كلّ المصلّين في الجامع.

في الجمعة التالية نجحنا في الخروج من الجامع، ومن ساحته التي أسميناها ساحة الحرّيّة، لأنّها أوّل ساحة شهدت محاولات انطلاقنا وبداية تنظيم صفوفنا، وأكثر مناطق التجمّع أمانًا، وكانت جمعة كبيرة وضخمة بحشودها ومؤيّديها، وشعاراتنا تنادي بالحرّيّة، وبدعم أهلنا في درعا وفي دوما، مع التركيز على شعارات تطمئن إخوتنا من الطائفة العلويّة، وتحضّهم على الانضمام إلينا في التعبير عن رفض لغة الدم والقتل. واستمررنا بالخروج يوميًّا بعد صلاة العشاء، وكانت أعداد الناس في تزايد يومي، ومن مختلف المستويات، من أطبّاء ومهندسين وعاطلين عن العمل وشباب جامعيّين، حتى النساء انضممن إلينا كما شاركنا بعض إخوتنا من الريف ومن القرى المجاورة، وشعاراتنا هنا لم تتجاوز مطالب الإصلاح ومحاربة الفساد وطلب الحرّيّة.

أتوقّف هنا عند هذه التفاصيل، أعرف ما يعنيه الشابّ بالفساد في مدينة جبلة، وكيف يسيطر عليها رجال الأمن وشبّيحة النظام، وكيف

يقوم بعض من الضبّاط العلويّين والفاسدين ورجال الأعمال، الذين أثروا بطريقة غير مشروعة ومفاجئة بشراء المدينة وتحويل ناسها إلى أدوات في أيديهم. يحوّلون السّنّة الفقراء، والعلويّين الفقراء، على حدّ سواء، إلى عبيد لديهم. فالأمكنة والشوارع أعرفها، كبرت وتحوّلت فيها من طفلة إلى شابّة، ولي معها الكثير من الذكريات. كانت مدرستي في حيّ أغلبه من الطائفة السنّيّة، ولكن حينها لم يكن هناك أيّ مشكلة لدينا، أغلب صديقات مراهقتي من السّنّة، ولم أكن أعرف حينها ما الذي تعنيه كلمة سنّي، وكلمة علوي، عرفتها لاحقًا حين كبرت قليلاً. ودخلت في مرحلة الثانويّة.

يتابع الشابّ:

استمررنا بالخروج على مدار أسبوعين يوميًا، دون أن يقترب منّا أحد من الأمن، أو الجيش والشبّيحة، وإن كان هناك تحرّك على صعيد ممثّلين، يبدو أنّهم كُلّفوا بالقيام بوساطات لمعالجة مشاكلنا الخدميّة والمعاشيّة، مع مساع جدّيّة لتأمينها، وإن بشكلها الظاهري، دون معالجة جذريّة لها. وكان جوابنا نحن أنّنا نطالب بالعدالة، ولم يفهموا أنّ مطالبنا ليست فقط خدميّة ومعاشيّة، وإنّما أكبر من ذلك، فهي مصيريّة وتتعلّق بالحرّيّة، التي لم نشمّ رائحتها طوال واحد وأربعين عامًا، وبالديموقراطيّة وبتعدّد الأحزاب وبتغيير الدستور، الذي يؤلّه الحزب الواحد ويكرّس الحاكم الواحد، كما نطالب بتكافؤ الفرص ومعاقبة المفسدين والسارقين الذين نهبونا ونهبوا مستقبلنا وطموحاتنا، وبحياة كريمة عادلة تحقّق تكافؤ الفرص للجميع، دون الوساطات أو المحسوبيّات، التي تعاني منها مدينة جبلة، ربّما أكثر من سواها من المدن والمحافظات. فجبلة بالذات مليئة بالفاسدين ومتخمة القصور لدى أصحاب النفوذ، مقابل أحياء وقرى لا ترى الكهرباء والماء ولا

حياة لها ولأبنائها، لأنّها ليست من أصحاب النفوذ.

ووصل الفساد في جبلة إلى درجة أنّها أصبحت ملكًا لاسم أو اسمين، بعد شراء أغلب عقاراتها وأراضيها بأسماء أشخاص آخرين للتمويه والتغطية، والقاصي والداني يعرف كلّ التفاصيل ويعرف هذه الحقائق عن ظهر قلب.

بلغت ذروة احتجاجاتنا يوم ٢٢/ ٤ وأطلقنا عليها اسم الجمعة العظيمة، وكانت أكبر تظاهرة احتجاجيّة شهدتها جبلة، وشارك فيها أكثر من ثلاثة آلاف، مع أعداد أكبر من النساء، حتى إنّ إحدى النساء، وهي الناشطة والدة «ط. ب» المعتقل لغاية اليوم، حُملت على الأكتاف وهي تهتف: يا جبلة وين رجالك يا جبلة. كانت شعاراتنا: واحد واحد واحد سنّي علوي واحد، يا شرفاء جبلة لبّوا نداء الحرّيّة. مع شعارات دائمة تحضّ إخوتنا من الطائفة العلويّة على الانضمام إلينا. بعد انضمام بعضهم إلينا، وإن كنّا ندرك جيّدًا حجم الضغوط والصعوبات التي تُحيط بانضمامهم، ومع الوقت، ارتفعت شعاراتنا وأصبحنا نطالب بكلّ جرأة ووضوح بإسقاط النظام. في هذه الجمعة تجوّلنا في كافّة أنحاء جبلة مع حشود ضخمة، ووصلنا إلى منزل عائلة المدعوّ عاطف نجيب، ننادي بمحاسبته على كلّ قطرة دم هدرها في درعا ومعاقبته على جرائمه. وهنا كان أوّل احتكاك لنا مع بعض أبناء الطائفة العلويّة الرافضين لخروجنا ولشعاراتنا. تصدّوا لنا وقابلونا وهم مسلّحون بالعصيّ والسكاكين، مع أعداد ضخمة من سكّان المنطقة، وهنا تدخّل أحد شيوخ المنطقة، وخطب بالشباب وحضّهم على العودة إلى بيوتهم، فانفضّت الجموع حقنًا للدماء والمشاكل، وعادت الجموع أدراجها باتّجاه دوّار السينما القريب من بلديّة جبلة، حيث أدّوا صلاة العصر في الشارع بشكل جماعي وانقسموا؛ قسم عادوا إلى بيوتهم، والقسم الآخر أرادوا المضيّ

قدمًا في تظاهرة، واختاروا المضيّ إلى دوّار العمارة، وهم يهتفون للحرّيّة والشهيد، وأعدادهم لا تتجاوز المئة وربّما المئتين، وهنا كان الاحتكاك الثاني من نوعه مع الطائفة الكريمة من العلويّين، الذين منعوا المتظاهرين من الوصول إلى الدوّار، قاطعين عليهم الطريق بسيّارات الإطفاء، التي بادرت برشّ المتظاهرين بالمياه، كما ساهم سكّان المنطقة برمي المتظاهرين بالحجارة والنباتات، مع شتائم متبادلة. ويروي شاهد عيان أنّ أحد سكّان منطقة العمارة استخدم إطلاق النار في الهواء لإخافة المتظاهرين، بعد رواج الشائعات بينهم أنّ المتظاهرين جاؤوا إلى المنطقة لقتلهم واقتحام بيوتهم وسبي نسائهم. هم في مظاهراتهم المؤيّدة تجوّلوا في كلّ المناطق ولم نعترضهم أو نزعجهم، لماذا لا يسمحون لنا بالتظاهر السلمي مثلهم مع شعاراتنا؟ هل الشوارع ملك لهم؟ وانقضت الجمعة مع توتّر كبير بين الطائفتين، والشائعات المسيئة للطرفين مع الوعد والوعيد، ولا أحد يعلم من هو صاحب هذه الشائعات، ومن أين مصدرها.

في اليوم التالي قامت مسيرة مؤيّدة بالسيّارات والدرّاجات الناريّة، تؤازرها سيّارة كبيرة (من نوع توسان) يتقدّمها رشّاش كبير واضح للعيان، بالتجوّل في جميع أرجاء جبلة، وعند مرورها عند كورنيش البحر، قام شبّان المنطقة من الطائفة السنّيّة بقطع الطريق عليها بحاويات القمامة، وهم يحملون العصيّ وبنادق الصيد استعدادًا لأيّ احتكاك مباشر بين الطرفين، خاصّة أنّ أخبار هجومهم مع تسلّحهم انتشرت في جميع أنحاء جبلة. وفعلاً كان الاحتكاك الفعلي بين الطائفتين، بعد إطلاق النار من قبل سيّارة توسان وهروبها السريع من الساحة، بعد إشعالها متجاوزة الرصيف بسرعة رهيبة. ويقول شهود عيان من المنطقة إنّ شابًا من قرية زاما أصيب بجروح، وقام الشبّان من الطائفة السنّيّة بإسعافه، كما ساهم

الشباب في فضّ الاشتباكات، وتخليص شباب الطائفة العلويّة من الساحة وإيصالهم إلى منطقة آمنة بعيدًا عن ساحة التوتّر.

بعد هذه الحادثة الخطيرة، قامت وساطات كثيفة من قبل بعض سكّان جبلة المعروفين اقتصاديًا وتجاريًا، لإصلاح ما بدأ يتكسّر بين الطائفتين، من خلال زيارات متبادلة بين الطرفين لتهدئة الوضع وإعادته كما كان سابقًا. وفعلاً نجحت الوساطات وخرج الطرفان معًا بمسيرة جماعيّة ينادون «سنّي علوي واحد» مع تبادل للقبل والسلام. وانتهت البوادر الواضحة للعيان للتوتّر، وانتهت معها قصّة الحواجز الشعبيّة التي أُقيمت بعد رواج شائعات عن هجوم كلّ طائفة على الطائفة الأخرى، لقتلها وإنهاء وجودها، والتي انتشرت في مدينة جبلة وقراها انتشار النار في الهشيم، بعد بدء خروجنا منادين بالحرّيّة. ولغاية الآن، كلّ طرف يجهل حقيقة ومصدر الشائعات، وإن كان هناك ظنّ يصل لليقين بأنّها صناعة الشبّيحة وأجهزة الأمن. ارتأينا الخروج من ساحة الحرّيّة عند جامع أبي بكر الصدّيق تجنّبًا لأيّ احتكاكات مع الطائفة الأخرى. معركتنا ليست مع الطائفة، مشكلتنا هي مع النظام، ونفهم جيّدًا محاولاته في الاختباء وراء الطائفة العلويّة، واستغلال مخاوفها كي يحافظ على بقائه ووجوده.

في الجمعة التالية، وبالتحديد في يوم الأحد ظهرًا، وبعد تعيين محافظ جديد في اللاذقيّة، جاءنا المحافظ راغبًا بالاجتماع مع ممثّلي مدينة جبلة وبعض شبابها في جامع ساحة الحرّيّة، للاستماع لمطالبهم وحاجاتهم. وانتهى الاجتماع بين الطرفين بعد ساعتين بإعلان الشباب «نريد إسقاط النظام» وهنا خرج المحافظ غاضبًا متوعّدًا بكلمة «هلّق بفرجيكن». وفي اليوم نفسه شهدت المدينة حضورًا مكثّفًا لقوّات الأمن والجيش مع أعداد كبيرة من شبّيحة النظام باللباس المدني. وبعد انتهاء

الاجتماع بساعتين كانت مدينة جبلة مقسّمة أمنيًا على أساس طائفي، مع متاريس ترابيّة مزروعة في كافّة الأحياء السنّيّة، وبخاصّة، وحسب قولهم، في أماكن الشغب. ويبدأ التقسيم من أمام نقابة المعلّمين حتى ملعب جبلة، بواسطة شاحنات كبيرة مع متاريس ترابيّة ورمليّة عند مدخل جبلة ومداخل الحارات المعروفة (العزي ـ الدريبة ـ الجركس ـ الصليبة ـ الفيض) مع وجود انتشار القنّاصة فوق الأبنية الحكوميّة، في أماكن تجعلهم يتحكّمون منها برؤية الشارع وكشف تحرّكاته، حتى إنّهم قاموا بالقضاء على أيّ مساحة خضراء لكشف أيّ منطقة أمامهم، كمقبرة جبلة التي قُطعت أغلب أشجارها الخضراء المعروفة بقدمها وعمرها الطويل.

يومها كانت حركة البلد غير طبيعيّة، وهي ترى هذا الانتشار الأمني الكثيف والمخيف والمباغت، في يوم هادئ وطبيعي، لا يشي بضرورة وجود هذه العناصر في بلد صغير كجبلة. لم تمرّ ساعتان ونصف الساعة حتى بدأت المدينة تسمع أصواتًا كثيفة للرصاص العشوائي، واستمرّ إطلاق الرصاص المنهمر طوال اليوم ولساعات طويلة، ممّا دفع الكثير من الناس إلى الاختباء في أماكن تواجدهم ومحلّاتهم، تجنّبًا لغدر الرصاص الذي يجهلون أسبابه ودوافعه. ووقعت مجزرة حقيقيّة بحقّ أبناء جبلة، وعن سابق إصرار، لم يشهد تاريخها مثل هذه الوحشيّة والقسوة، وسقط في هذه المجزرة الوحشيّة تسعة شباب مع العديد من الجرحى، ومنعوا وصول سيّارات الإسعاف التي كان من الممكن استهدافها. استطعنا سحب بعض المصابين وبعض الجرحى إلى جامع داخل الحارة، كي نسعفهم ونمنع سرقة أعضائهم من قبل شبّيحة النظام في المشفى الوطني، كما جرى مع شابّ من آل جمعة أسعفه «خ. ق» على مسؤوليّته كعضو مجلس شعب، ليخرج الشابّ مذبوحًا من عنقه حتى أسفل بطنه، رغم أنّ إصابته كانت في القدم. واستعنّا ببعض

الأطبّاء الذين لم يسلموا من الاعتقال والتعذيب بتهمة مساعدة المجرمين والإرهابيّين والمندسّين. وكان واضحًا جدًّا أنّ شبّيحة النظام تستخدم أسلحة متطوّرة، ونوعًا من الرصاص المتفجّر، الذي إمّا أن يقتل وإمّا أن يعطب بشكل كامل، فعندما كنّا نسعف شابًّا أُصيب بطلق من قنّاص في رأسه، كان غريبًا أنّ الدماغ كلّه خرج خارج الرأس، وهنا استعنّا بطاقيّة شيخ الجامع كي نستطيع إدخال الدماغ إلى الرأس، وكان مشهدًا لا يُنسى بالمطلق. وأغلب الشهداء تمّ دفنهم بطريقة سرّيّة وبعيدًا عن الأعين. أمّا الباقون فاشترط الأمن السماح بدفنهم وتسلّم جثثهم، على أن يوقّعوا على ورقة تقول إنّ من قتلهم هم من المسلّحين والمخرّبين، على أن يقتصر الأمر على أعداد محدّدة من العائلة بحضور عناصر من الأمن.

منذ هذه المجزرة تحوّلت مدينة جبلة إلى مدينة أشباح، ولا أحد يتجرّأ على الخروج من منزله، خوفًا من رصاص قنّاص. كما لجأ أغلب سكّان جبلة بعد هذه الحادثة إلى تغيير أبواب منازلهم، التي لطالما كانت خشبيّة ومفتوحة، تحجب الداخل عن الخارج ستارة قماشيّة، وباتت الآن معظم الأبواب سوداء حديديّة صمّاء خوفًا من مجزرة جديدة مثل السابقة. بعد هذه المجزرة الوحشيّة اكتفينا بالخروج في مظاهرات ليليّة، بعضها طيّارة وبعضها كثيفة تشاركنا فيها النسوة، ولكنّ مساحة انتشارنا قلّصناها لحدود ضيّقة جدًّا تجنّبًا لأعين الأمن، الذي يخترقنا بقوّة في جبلة رغم صغرها وضيق مساحتها، إلّا أنّ حجم الاختراق رهيب ومرعب، ولا أحد فينا يثق بالآخر، وهذا ما يفسّر حجم الاعتقالات الضخمة التي تتعرّض لها المدينة لغاية الآن تحت تهم مختلفة، رغم أنّهم، ومنذ انطلاقة شرارة الثورة السوريّة، أطلقوا سراح كلّ مجرميهم والمعروفين بتهم التهريب والمخدّرات، وباتت مدينة جبلة تعيش يوميًّا

على جديد الشائعات والتكهّنات، وتترقّب يوميًّا غزوًا جديدًا ومجزرة جديدة. سكّان منطقة الدريبة أخلوا بيوتهم من النساء والأطفال خوفًا من اقتحام قريب ومباغت. ونعتمد الآن في خروجنا في التظاهرات، طلبًا لإسقاط النظام، لعبة حرب الشوارع.

أستطيع تخيّل حرب الشوارع في جبلة، هي مدينة صغيرة، وأعرف أزقّتها الفقيرة التي يتحدّث عنها الشابّ، كنت أحاول نقل الأحداث بحياديّة، وكان هذا صعبًا عليّ، أحاول قراءة مشهد مدينة تحتلّني في زواياها، وأحبّها الآن أكثر. أتابع شهادة الشابّ:

في أوّل يوم بدأت به مدينة جبلة بالتكبير «الله أكبر» من داخل البيوت تعامل الأمن وشبّيحته معها بوحشيّة، حيث كان الردّ الأمني فظيعًا وعنيفًا جدًّا ويستهدف كلّ شيء متحرّك إن وجد. ونامت المدينة ليلتها على أصوات الرصاص والديناميت حتى ساعات متقدّمة، وللأسف نتج عن ذلك استشهاد الشابّ أحمد العتّال.

الاقتحام الثالث لمدينة جبلة ٥ ـ ٦ ـ ٢٠١١: عندما أُشيع نبأ اعتقال «ح» اندفع بعض الشباب المقرّبين والمتعاطفين معه، مع أسلحة خفيفة (سلاح الصيد) وتقدّر أعدادهم بعشرة، واشتبكوا مع عناصر الأمن عند المدرسة الشرعيّة، التي تحوّلت إلى مركز أمني عند الساعة السادسة والنصف مساءً وسُمعت أصوات إطلاق النار، ونتج عن هذا العمل المغامر استشهاد ثلاثة. مساءً بقي التوتّر في مدينة جبلة، ولم يسكت الأمن بشبّيحته على هذه المحاولة الفاشلة، وتعمّد إرهاب المناطق السنّيّة بأصوات الرصاص الكثيف والعنيف، والذي استمرّ طوال الليل مع أصوات هادرة لسيّارات جيب ومرسيدس تجول الشوارع.

مدينة جبلة صغيرة وشبه معزولة عن العالم الخارجي وتتبادل

تجارتها مع سكّان القرى المجاورة القريبة منها. لا مصدر آخر لعيشها، فهي بؤرة للفقر، ونسبة التعليم فيها محدودة، أغلب المسؤولين منها ومن قراها المجاورة، وعاطف نجيب استطاع تملّك أغلب عقاراتها وبيوتها تحت أسماء مستعارة وأسماء يستعملها كواجهة. وظهرت طبقة تجّار جديدة نسمّيها بمحدثي النعمة، بعد تهميش تجّارها الأصليّين والمعروفين تاريخيًّا، وظهور طبقة مختلفة تمامًا معروفة بعلاقاتها مع أزلام السلطة، وتعمل لأجلها. حاليًّا مدينة جبلة تعيش على مبدأ الكرّ والفرّ، وحرب الشوارع لإرهاق الشبّيحة وتشتيت انتباههم، كي يخرج المتظاهرون ولو لدقائق معدودة يوم الجمعة مطالبين بإسقاط النظام، لهذا تراهم متعطّشين لأيّ معلومة قد يحملها الوافد، خاصّة أنّ نعمة الإنترنت معدومة في جبلة، ولا مصدر لأخبارهم ومعلوماتهم سوى التلفاز بقنواته.

تنتهي هنا قصّة جبلة، المدينة التي ينتمي إليها عاطف نجيب، وهو قريب الرئيس، والمسؤول عن اعتقال أطفال درعا وتعذيبهم، نحن أبناء هذه المدينة نعرف سطوته، وكلّ ما يقوله الشباب عنه من فساد وثراء وطغيان، لكن لم يخطر في بالي يومًا أنّ هذا المجرم من مدينتي سيكون طغيانه وهدره لكرامات الناس سببًا لاشتعال الانتفاضة السوريّة.

أنا والقتلة من مدينة واحدة.

في دمي يجري بعض من دمهم.

جزء من أقاربي منهم، هؤلاء الذين يقرّرون القتل وسفك الدماء، وأنا أمام هذا الموت أجد نفسي أنوء بحمل كبير.

٢٠١١/٦/٢٣

التقيت اليوم مجموعة صبايا من التنسيقيّات، كنّا نفكّر بتسجيل ڤيديو نساء من الطائفة العلويّة ضدّ نظام بشّار الأسد، وكانت غايتنا تأكيد الوحدة الوطنيّة بين مختلف طوائف وشرائح الشعب السوري.

كان الأمر مضحكًا لنا بالفعل، فقد اجتمعنا في بيت صغير لإحدى الفتيات. كانت في أوائل العشرينيّات وتخرج مع المتظاهرين. وقفنا نضحك ونشرب القهوة وندخّن السجائر بانتظار اكتمال العدد. نكتب اللافتات لتصويرها، تصوير ڤيديو منزلي، اعتصام في المنزل، سوف نقوم ببثّه لأنّنا لا نستطيع التظاهر علانيّة. كتبنا على إحدى اللافتات: «نختبئ لأنّنا نخاف أن لا نعود إلى أطفالنا». الصديقات اللواتي التقيتهنّ كنّ متحفّزات ومتحمّسات. كنت أكثر فرحًا ممّا تخيّلت، وجوههنّ مدّتني بقليل من الفرح، أنا المشدودة الأعصاب طول الوقت. قمنا بالتصوير، أعدناه عدّة مرّات بعد أن قرأنا بيانًا: نحن نساء الساحل السوري نعلن إدانتنا لجرائم النظام ووقوفنا إلى جانب انتفاضة الشعب. قام شابّ بتصويرنا، ونحن لم نكفّ عن التعليق على وجوده وحيدًا بيننا.

كنت أراقب النساء، وأشعر بنسغ أخضر يبرعم في قلبي. أشعر بالحبّ نحوهنّ جميعًا. أُعيد ترتيب نبضات قلبي، لقد اختفت كلّ مشاعري السلبيّة تجاه الجميع. إن كان لي أن أُدين لتحرّر روحي من أيّة مشاعر سلبيّة، فأنا أُدين بها للانتفاضة.

عندما ننهي تصوير الشريط، نعود بحذر ونغادر. كنت أشمّ قبل خروجي من البيت رائحة أجساد بشريّة غامضة، انتبهنا أنّنا أثناء التصوير تعرّقنا، كانت روائحهنّ تعبق في الغرفة، وتذكّرت فجأة وجه أمّي حين كنّا صغارًا، وهي تقف بي مع إخوتي البنات، لمراقبة نظافتنا قبل أن نخرج من الحمّام مع البخار. النساء الضاحكات كنّ يفرزن رائحة عائلة، بدت لي لوهلة أنّها رائحة تعب، وتشبه رائحة مغارة. تركت البيت، وأنا أكثر فرحًا.

كان المساء قد حلّ، فتحت باب بيتي. اليوم أشعر بسعادة طارئة، التقيت عدّة مجموعات، للتنسيق فيما بينها، وكنت أفكّر بالمزيد من الحركة بينهم، قبل أن ينفد وقتي، أربعة لقاءات متتالية في يوم واحد، والنتيجة رائعة!

أضع رأسي على مخدّتي، وأنا أشعر برضا. قليلة هي متطلّبات سعادتي، قليلة جدًّا لدرجة تجعلني أشعر بالحنق من هذا الوجود الأعمى، وتجعلني، وأنا أعود من نهار ومساء مثقلين بالحركة والعمل، أفكّر بما يفكّر به القتلة لحظة يطلقون الرصاص على صدور الشباب العزّل. أفكّر في تلك اللحظة، اللحظة التي تشبه العدم، أفكّر بآلاف السوريّين الجياع، وبطني الممتلئ، بالذين يعيشون في العراء، وبيتي الدافئ. أفكّر بالسجناء الذي رأيتهم صدفة من تحت العصابة المشدودة حول عينيّ، أثناء ذهابي للمرّة الثالثة إلى التحقيق. لا أعرف إن كان تحقيقًا، هذا يُسمّى اختطافًا! سيقول لي فيما بعد أحد الضبّاط أثناء

اتّصال هاتفي، وهو يحاول جرّي إلى صفّ القتلة، إنّه لم يكن يعرف بأمر استدعائي هذا، وإنّ الأمر كان يتمّ بصفة شخصيّة، ولا يوجد أمر رسمي باعتقالي أو ضدّي، وإنّ الشائعات والتشهير الأخلاقي، والمقالات في الإنترنت، والمناشير التي وُزّعت في منطقة الساحل ضدّي، لم يكن رجال الأمن هم المسؤولين عنها. ويقول لي إنّ جماعتي في المعارضة هي من تسيء إليّ وتشوّه سمعتي. سيقول أشياء كثيرة: إنّي لم أتعرّض لظلم قطّ، وإنّ من الجحود إنكار ذلك، وإنّي ابنتهم، ويجب أن أحميهم كما قاموا بحمايتي! وسأردّ عليه بهدوء استغربته لاحقًا: الشعور الإنساني لا يحتاج أن يحترق جلدي، لأصرخ، أنا رأيت وسمعت ما يكفي لأن أحمي الطائفة منكم، لا تلعب معي على هذا الوتر!

نعم رأيت ذلك اليوم تحت العصابة السوداء، في الاختطاف الثالث لي، كيف كانوا يطرحون السجناء على الأرض، أظنّ أنّها كانت باحة، لأنّ ضوء النهار كان ساطعًا، ورأيت ظهورهم تحت خيط من الضوء، والنعال تدوسهم، ورأيت بعضهم يقوم من مكانه وهو يُضرب بكرباج، وسمعت صرخاتهم، صرخات حادّة تشبه صفيرًا لا يغادر أذني حتى اللحظة. والأقدام التي كانت تدوس ظهورهم الشابّة والصغيرة، لم تكن بوطات عسكريّة، كانت أحذية رياضيّة وأحذية من النوع الرخيص، استطعت أن ألمحها، ولمحت لوهلة ظهر شابّ ينتفض، كان نصف عار، ورأيت آثار سياط حمراء فوق جلده.

الاختطاف الثالث أذكره اليوم بوضوح. كان مختلفًا، كان واضحًا لي أنّ ما يفعله الضابط الكبير يتعلّق بأمر شخصي بيني وبينه. كان يريد أن يكسر عيني كما يفهم. يريد أن يشعر أنّي خائفة منه، وهو أمر كنت حريصة على ألّا يشعر به، كما حدث في المرّات السابقة، رجال يأتون،

ويأخذونني ويضعون العصابة، هذه المرّة رفضت الخروج معهم، قلت لهم لن أذهب، ولم أتمّ جملتي، حتى قبض أحدهم على مرفقي وشدّه بقسوة، شعرت بحريق في أصابعي، كانت الساعة التاسعة صباحًا وابنتي التي لا تستيقظ حتى الواحدة ظهرًا سألت بصوت ممتعض، من غرفة نومها: «شو في ماما؟» قلت لها: «ما في شي ماما، هدون أصدقاء رايحة معاهن وبرجع»، وصمتُّ ثم خرجت معهم. في كلّ مرّة كان هاجس وحيد يسيطر عليّ ويجعلني أرتجف: ماذا لو لم أعد؟ ماذا سيحلّ بابنتي؟

كان الضابط يتحرّش بي! شعرت بذعر مضاعف، فقد ذكر ابنتي وأشياء مقزّزة. عندما أفكّر أنّي سمعتها أُصاب بنوبة قيء. لو قدّر الزمن لي ورأيت هذا الرجل، لن أتردّد في قتله، هذا أيضًا ما لن أسامحهم عليه. لقد جعلوني أعرف ما يعني أن تفكّر بإنهاء حياة شخص ما، كان ذلك فقط في تلك اللحظات، ولكنّي عندما كنت أعود إلى بيتي، كنت أرتجف لمجرّد فكرة أن أقتله يومًا. لكنّي جرّبت إحساس الرغبة بالقتل، في تلك اللحظات، وهو يتحرّش بي، قرّرت أيضًا أنّي سأسافر مهما كانت النتائج، وصارت تأتيني الصور التي كنّا نسمعها ونحن فتيات في الجامعة في مدينة اللاذقيّة، عمّا يفعله آل الأسد وأقرباؤهم بالفتيات، وأعود بذاكرتي إلى نهاية الثمانينيّات عندما كنّا طلّابًا في الجامعة، وكيف كنّا نشعر بالخوف من السيّارات السوداء المسرعة، ومن الرجال الذين يقودونها. كنّا نعرف أنّها لشبّيحة آل الأسد أو أنّها لواحد منهم. كنّا نحن الفتيات خاصّة نشعر برعب لا مثيل له، بعد موت إحدى صديقاتنا في الجامعة، وكانت فتاة جميلة جدًا، قيل لنا إنّها تتعرّض لمضايقة من أحد أبناء جميل الأسد، وإنّها لم تعد تأتي إلى الجامعة لأنّه يتربّص بها بعد أن أُعجب بها، ولكنّنا فوجئنا ذات مرّة بخبر موتها، كانت ملقاة جثّة

هامدة وقد تعرّضت للتشويه بعد أن اغتُصبت، الحادثة طُويت، لكنّنا خفنا وبقينا أيّامًا بعد هذه الحادثة لا نخرج من بيوتنا، فكلّ فتاة تعجب أحد شباب آل الأسد، ولا تقبل بإقامة علاقة جنسيّة معه، قد تتعرّض للمصير نفسه، فكّرت بابنتي الشابّة الصغيرة، وفكّرت أكثر أنّي سأقتله قبل أن أسمح له بإهانة كرامتي.

الآن أذكر، وأنا أتابع ما حدث هذا اليوم، أتذكّر التفاصيل، وأكتب ما فعله القتلة اليوم: ٦٠٠ لاجئ سوري يتحرّكون باتّجاه الحدود مع تركيا خوفًا من عمليّة عسكريّة. المدرّعات تنتشر على بعد ٥٠٠ متر عن الحدود. ودخلت القوّات السوريّة قرية منبج، بعد اقتحامها قرية خربة الجوز ومقتل ٥ من طلّاب جامعة دمشق، وهناك جرحى ما يزالون من الطلّاب في مشفى المواساة، ومناطق عدّة نفّذت إضرابًا عامًّا في كلّ من حمص وحماة ودرعا والمعضميّة ودير الزور واللاذقيّة. وفي القامشلي أضربت عشرات المحلّات. وفي الحسكة أضربوا في السجن المركزي، وعرض التلفزيون السوري تشييع ٢٦ قتيلاً من شهداء الجيش والأمن. أشعر بالمواساة، فما يحدث معي لا يساوي شيئًا أمام الجرائم التي يرتكبونها بحقّ الناس. يا لهذا الشعور المتوحّش داخل الإنسان، يجعلني أنتفض، دائمًا نشعر بالمواساة عندما نرى مصائب أكبر من مصائبنا، هذه سُنّة الحياة: الحياة المتوحّشة.

٢٠١١/٦/٢٤

«جمعة سقوط الشرعيّة»:

١٥ قتيلاً أغلبهم في ضواحي دمشق، اتّحاد تنسيقيّات الثورة يعلن عنهم، في برزة والكسوة وفي حمص وحماة، عشرات الآلاف نزلوا إلى الشوارع في حمص، حلب، دير الزور، دمشق، القامشلي، درعا. لافتة تظهر على التلفزيون تقول في الزبداني: «يا جراثيم وجرذان العالم اتّحدوا»، في سخرية من بشّار الأسد الذي وصف المتظاهرين في إحدى خطبه بالجراثيم! اتّسعت رقعة الاحتجاجات وكبرت وأعلنوا رفض خطاب بشّار، كانت الإرادة قويّة، إرادة تغيير النظام. «لا شرعيّة لمن يقتل الشعب»، «لا حوار مع القتلة»، هكذا يرفع المتظاهرون شعاراتهم.

في دير الزور يخرج المتظاهرون يهتفون للحرّيّة ولنصرة المدن السوريّة الأخرى. كانوا يغنّون المووايل ويصدحون بالأهازيج، وكانت حركة الاحتجاج الشعبي تشتدّ والمظاهرات تتوسّع. بدأت أرجّح أنّ الجيش سيقوم بحملة عسكريّة ضدّ دير الزور، كما حدث في درعا وفي

بانياس، أذكر هذه المدينة من طفولتي، كنت أعيش مع أهلي في مدينة الطبقة الواقعة على نهر الفرات. أعرف وجه الفرات، هذا النهر جعل من روحي نديّة. وأعرف الرقّة ودير الزور، وأحفظ تضاريس النهر الذي يربط هذه المدن التي يمرّ نهر الفرات بها كانت تسبّب لي حنينًا غامضًا إلى بهجة مفقودة. شعرت بالخوف على دير الزور التي رأيت أنّها لن تسلم من وحشيّة النظام، وهي تتمرّد ويصرخ أبناؤها طلبًا للحرّيّة.

مائة يوم ويوم حتى الآن. عقوبات أوروبيّة تتّسع وتصل حتى طهران، عقوبات وضغوط جديدة على النظام، لكنّي أشكّ بأنّها تؤثّر عليه. اليوم أُضيف أربعة مسؤولين إلى قائمة العقوبات: ذو الهمّة شاليش ورياض شاليش، واثنان من رجال الأعمال الشركاء لماهر الأسد، وأربع شركات، اثنتان منها لرامي مخلوف ومجموعة حمشو الدوليّة ومؤسّسة الإنشاءات العسكريّة.

المفصل الجديد في حركة المعارضة هو الدعوة للقاء تشاوري، وكان هذا اللقاء ينال رضا النظام، لقد أراد النظام أن يقول: نعم لدينا معارضة، وهي تقول ما تريد، ولكنّ من نقتلهم هم العصابات المسلّحة! كنت أعرف منذ البداية النوايا المخلصة لأصحاب هذا اللقاء، لكنّ خلافي مع الصديق الذي دعا إليه كان خلافًا حول التكتيك وحول التوقيت. قلت له إنّ النظام يريد الاستفادة من أسماء في المعارضة لخدمة مصالحه، وهو كان يقول إنّه يريد الخروج بأسلم طريق ممكن نحو التحوّل الديموقراطي في سورية. أظنّ أنّه كان خائفًا، خوف الأقلّيّات المعروف، لذلك لم أشارك في هذا اللقاء. كنت على يقين أنّ الإصلاحات المزعومة والكاذبة التي قال بها بشّار الأسد، هي مجرّد واجهة وفرصة لانتهاز الوقت للالتفاف على حركة الاحتجاج، والانقضاض على المتظاهرين بيد من حديد، لذلك كنت مستاءة أيضًا

بعد ذلك، من الاتّصالات التي دارت بين هذا الصديق وبثينة شعبان وفاروق الشرع. أنا رفضت اللقاء بأيّ شخص يمثّل النظام، فقد رأيت أنّ فكرة إيجاد بديل سياسي للنظام عبر تأسيس كتلة سياسيّة معارضة لا يجب أن تكون تحت موافقة ورعاية النظام، حتى لو بدا ذلك موقفًا متشدّدًا وحادًّا، ولكنّي لم أكن لأهتمّ بخطّة العمل السياسي أو المناورة بين بعض أطراف المعارضة والنظام، كنت يائسة، وعلى يقين تامّ أنّ كلّ ذلك لن يؤدّي إلى نفع، إضافة إلى أنّ غياب العمل والحراك السياسي جعل من فكرة الحوار الديموقراطي والاختلاف بين أطراف في المعارضة، أمرًا غاية في الصعوبة. كنت أتابع مع الجميع ما يقولون، وبدا لي أنّ المعارضة التقليديّة في بعض رموزها تحمل ملامح الاستبداد التي زرعتها عقود طويلة من التعسّف.

٢٠١١/٦/٢٥

اليوم تعود التهديدات الهاتفيّة بشكل مروّع، وأنا كنت أشعر بالرهبة من فكرة أن أكون مراقبة إلى هذا الحدّ من الجنون. الغريب أنّي بدأت أقتنع أنّ ما يقوم به الضابط الكبير تعدّى كلّ حدود، إشارة واحدة تأمرني بإغلاق صفحتي على الفيسبوك، كنت كتبت تعليقًا حول إقدام آل مخلوف على بيع المنطقة الحرّة لمستثمرين كويتيّين، ولم يمض أكثر من ربع ساعة حتى جاء ذلك الهاتف، قال لي بالحرف: «سكّري صفحتك أو بجي بقصف بيتك وبنايتك بمدفع يمحيكن عن وجه الأرض».

أغلقُ الصفحة، وأفكّر فيما يجب فعله، حتى الكتابة على الفيسبوك كانت ممنوعة؟ كنت أُحرجهم، أعرف ما كنت أسبّبه لهم من إقلاق، وكنت أفكّر أنّ ما يفعله الضابط المجنون بي هو انتقام من كلّ المعارضين الذي ينتمون للطائفة العلويّة. هل سأقف أتفرّج على السوريّين يُقتلون وأصمت؟ هل سأتخلّى عن ثورة الفقراء والمهمّشين؟ هذا يعني أنّي سأصاب بالجنون. لن أقف متفرّجةً على ما يحدث من حولي، من قتل وترويع وسجن واختفاء وإبادة مدن. كيف يقف الإنسان

على الحياد في مثل تلك اللحظات! كيف يمكنني أن أكون بعيدة إلى هذه الدرجة الممكنة من الألم اليومي الذي ألمحه كيفما تحرّكت! أفكار كثيرة حوّلتني إلى كائن أكثر عصبيّة ممّا كنت عليه. كنت أتمنّى الابتعاد عن الأصدقاء حتى لا يكونوا على تماسّ مع توتّري الشديد، وأتفرّغ لتدوين الحوارات التي أجريتها.

اليوم أضع رواية شابّ من العلويّين، قريته مجاورة لمدينة جبلة، يطلب السرّيّة الشديدة والتكتّم حول هويّته، ليس قبل إسقاط النظام، بل وبعد إسقاطه. قال لي قبل أن نبدأ حوارنا: هل تعتقدين أنّك وبسقوط نظام بشّار الأسد، ستعودين إلى حياتك الطبيعيّة في الساحل؟ أنت مخطئة، الكلّ يعتبرك خائنة، ويلزمك سنوات حتى تستعيدي طمأنينة المجيء إلى هناك.

أرعبتني كلماته، ولم أكن بحاجة لمزيد من الرعب، أنا التي اعتدت الخروج عن المجتمع والتقاليد والسائد، أشعر بالرعب، فهي المرّة الأولى التي أكون فيها مستهدفة بالكامل من طائفة بأكلمها، أو على الأقلّ أغلبها، فأنا أعرف الكثير من نشطاء الانتفاضة الذين ينتمون للطائفة العلويّة.

رواية الشابّ العلوي

(في قرية قرب جبلة قاموا بشنّ حملة على أهل جبلة، قبلها لم يكن هناك رصاص أو أيّ انتشار أمني كثيف، وكان المحافظ يلتقي بأهالي جبلة، ووصل إلينا، في قرى العلويّين، أنّ المحافظ التقى بأهل جبلة المتظاهرين وقاموا بتحقيره وتوبيخه، وأنّهم عبارة عن مجموعة من الزعران وقد ضربوا سائق مدير المنطقة وكسروا سيّارته، ومن كان يقوم

بنشر الشائعات هم رجال حزب البعث ورجال الأمن. يوم المجزرة في جبلة ٢٠١١/٣/٢٥ كان الهدوء يعمّ جبلة ومنذ ثلاثة أيّام لم نسمع خبرًا أو إطلاق رصاص، وعند الساعة الرابعة والربع سمعنا صوت إطلاق نار كثيف قرب قريتنا، وأنا ذهبت ورأيت المسلّحين يطلقون رصاصًا في الهواء، فركضنا وحملنا السلاح في القرية، وقطعنا الطريق الدولي باتّجاه المسلّحين. كنّا نسمع إشاعات يوميّة يقوم ببثّها البعثيّون ورجال الأمن، بأنّ السّنّة من أهل جبلة سيهجمون علينا، وأنّه يجب أن نستعدّ، فخاف أهالي القرى وحملوا السلاح، جاء رجل من المخابرات وصرخ على أهالي القرية وطلب منهم الرجوع. استمرّ إطلاق النار والناس عادت للضيعة، وبقي منهم من يحمي مخارج ومداخل القرية بالسلاح. في هذه الأثناء كانت تمرّ كلّ نصف ساعة سيّارة فيها مسلّحون يطلقون النار على اللجان التي حمت القرية، كانوا يطلقون النار بشكل عشوائي وأُصيب أحد رجال قريتنا. في الليل أمسكوا أحد المسلّحين، وقالوا إنّه أحد المطلوبين، وكنّا نظنّ أنّه من السُّنّة الذين يريدون قتل المتظاهرين، واتّضح أنّه من قرية صغيرة قريبة من القرداحة، وهذا الرجل معروف أنّه يعمل بتهريب السلاح، في هذه الأثناء وبينما الرصاص ينهمر على الطرقات تمّ توزيع منشورات تتّهمك بالعمالة، وتحرّض على قتلك.

صمتَ، وحدّق في عينيّ. تجاهلت ما قاله بشأن ما فعله الأمن بي، لكنّي شعرت أنّ خيطًا ناريًّا يتحرّك ببطء في ظهري. تابع الشابّ: إنّها مصادفة غريبة أن يتمّ توزيع المناشير في حالة كهذه! أجهزة الأمن تحديدًا في منطقة الساحل تتمتّع بعقليّة إجراميّة وانتقاميّة، كانوا غاضبين، ويشعرون أنّ لهم ثأرًا معك، تمامًا كما كان لكلّ المسيحيّين ثأر مع يهوذا!

يقول جملته هذه وينظر في عينيّ، يعتذر: أنا آسف ولكنّي كنت

هناك يوم توزيع المناشير التي تحرّض على قتلك. أصمت ثانية، ولا أجعله يلمح رجفة أصابعي، أخفيها بالدفتر، ويتابع الحديث: في اليوم الثاني بدأت الإشاعات عن الأسلحة الكثيرة التي وُجدت في جبلة، وعن عمليّات يتمّ التحضير لها لإبادة العلويّين، وأنّ الجيش دخل جبلة وقتل المسلّحين، ووجد الأسلحة. في هذه الفترة كانت جبلة مدينة مغلقة في الليل والنهار، وغادرها أغلب العلويّين، ونحن مُنعنا من النزول إلى جبلة، وكان لدينا خوف بسبب إطلاق النار الكثيف واليومي. كان يبدأ في العاشرة ليلاً، وينتهي في الثالثة صباحًا، وكان هذا يتمّ في منطقة الفيض. بدأ أهل جبلة يتظاهرون بعد ذلك وبدأت الأحداث تتصاعد، وصلنا أنّ السُّنّة يتظاهرون ويسبّون الإمام عليّ بن أبي طالب والرئيس، وعلى الرّغم من أنّ الأهالي من وجهاء السُّنّة والعلويّين كانوا يحاولون لمّ الأزمة، إلّا أنّ التصعيد كان واضحًا من طريقة الإشاعات، فالعلويّون والسّنّة من المشايخ تكاتفوا في مسيرة مشتركة ضدّ الطائفيّة، وصلّوا معًا في جامع الحسن في حيّ العمارة، وذهب وفد من أهل السُّنّة لعزاء في قرية زاما وحرف متور، وكان من ضمن وفد العزاء إمام جامع سنّي. كان الأهالي من الطائفتين يحاولون استيعاب الفتنة، ولكن في اليوم التالي تخرج إشاعات تحرّض على الفتنة، كالإساءة إلى شرف النساء العلويّات من قبل رجال السّنّة، ونسج قصص حول هذا الأمر وبثّها بين قرى العلويّين، وطبعًا من كان يبدأ الإشاعات غير معروف. تبدأ الإشاعات مثل الأشباح، ثم تتغلغل. كانت الإشاعات المصدر الوحيد بالنسبة للعلويّين، فالإنترنت في الغالب مقطوع داخل جبلة، وقناة الدنيا والتلفزيون السوري هما مصدر الأخبار. كان واضحًا أنّ هناك من يريد إبقاء التوتّر الطائفي، واقتنع الناس بعد يومين من المجزرة بأهمّيّة وجود الجيش لحماية العلويّين من السّنّة. وحتى إنّ هذه الرواية اقتنع بها بعض

أهل السُّنّة. في هذه الأثناء كان أزلام بيت الأسد موجودين في جبلة ويقومون بزيارتها يوميًا. وكانت الشائعات تصلنا بأنّ المتظاهرين يقومون بضرب الجيش بالديناميت والسلاح الفردي، وكان التوتّر بين العلويّين والسّنّة متقطّعًا، لكن ضخّ الإشاعات لا ينتهي، وصار المتظاهرون يخرجون كلّ يوم، ولم يكن يصلنا من مظاهراتهم إلّا أنّهم كانوا يريدون الهجوم على العلويّين ويشتمونهم ويدعون إلى قتلهم. وكان الأمن ورجال البعث يستمرّون في توزيع المناشير في القرى ومعها أسماء المطلوبين من أهالي جبلة، ويقولون في المناشير إنّهم مسلّحون، ويضعون أسماءهم وأسماء أمّهاتهم، ووزّعوا مناشير يقولون فيها إنّهم قبضوا على ثلاثة ضبّاط إسرائيليّين، ويشرحون أنّ هذا هو السبب الذي دعا إلى تدخّل الجيش وإطلاق النار، وانتشرت إشاعة غريبة خوّفت العلويّين أنّ هناك عشرة من المسلّحين السّنّة يحملون أسلحة ثقيلة ويتّجهون إلى حيّ «ضاحية جبلة» ذي الأغلبيّة العلويّة. أصحاب المحلّات العلويّون يغلقون عند الساعة الرابعة أو الخامسة، كانوا خائفين وكان اثنان من الوجهاء العلويّين يقومان بفتح محلّاتهم، بالنسبة لمحلّات السّنّة كانت محلّاتهم مغلقة، وصار تقليدًا منذ ذلك الوقت أن يقاطع العلويّون محلّات السُّنّة، والذي كان يريد من العلويّين التبضّع من محلّات السّنّة، كان يخشى من العلويّين الآخرين. يتوقّف الشابّ عن الحديث.

أذكر مدينة جبلة وأذكر الساحة التي كان معظم سكّانها من السّنّة. لم نكن نفكّر بأنّهم من الطائفة السُّنّيَّة، كنّا نشتري منهم، والقوّة الشرائيّة كانت من أبناء القرى. كانت الحالة التي تجمع هؤلاء التجّار مع العلويّين هي علاقة تبادل مصالح وحاجات، ولم أكن أعتقد أنّ الأمور ستكون سيّئة إلى هذا الحدّ بينهم.

يتابع الشابّ: بعد هذه الحوادث زادت نسبة التسلّح بين العلويّين، فجأة وُجد السلاح في قراهم، وكان رجال الأمن يرون السلاح بيد العلويّين ويتغاضون عنه، ورجال الأمن كانوا أنفسهم يقومون بالتشهير برجال السّنّة، ومنهم أطبّاء وناس مشهود باستقامتهم وصدقهم بين الناس، فقط لأنّهم قاموا بمساعدات إنسانيّة للجرحى أثناء التظاهرات. في إحدى المرّات، وزّعوا في المناشير اسم رجل ميّت، ولكنّ هذه الأسماء تتحوّل لدى العلويّين إلى أسماء قتلة ومسلّحين ومجرمين يريدون ذبحهم، كما كان رجال الأمن والبعث والشبّيحة يروّجون في منشوراتهم. كانوا يضعون أسماء مجرمين حقيقيّين مع أسماء أناس محترمين، وكانوا حريصين على الطعن والفتنة بين السُّنّة والعلويّين، عبر موضوع الشرف والنساء وتلطيخ سمعة النساء العلويّات، وهذا جعل خوف أهالي قرى العلويّين يتعاظم. نشروا مرّة إشاعة بين القرى أنّ هناك فيلم بورنو لرجل سنّي مع بنات علويّات يقوم بتوزيعه بين المتظاهرين. كان التحريض يصل إلى أبشع وأقذر صورة ممكن أن يتخيّلها إنسان. هناك أمر نسيته، وهو أنّه وقبل مجزرة جبلة جاء رجل من بيت الأسد إلى قرية بستان الباشا، وصار يوزّع أسلحة بدون مقابل على الناس، ولكن كان هناك شرط، وهو أن يأخذ هويّة كلّ من يمتلك سلاحًا. وفي قرية دمسرخو التابعة لمدينة اللاذقيّة جاء الشخص نفسه، وسألهم إن كانوا بحاجة لسلاح، فقام أهالي القرية بطرده).

يتوقّف حديث الشابّ هنا، وأنا أنهي تدوين ما قاله، ويكون موعد لقائي بأحد شباب التنسيقيّات قد حان.

كان لا بدّ من ترتيب أمور تتعلّق بصندوق دعم الانتفاضة الذي كان من المقرّر تحويله لصالح شباب التنسيقيّات، وكان ربط هذا الصندوق بالشباب بشكل مباشر يحتاج لبعض الدقّة. لقد رأيت أنّ الحركة بطيئة

ولا توازي، ولا بأيّ مستوى، حركة الناس في الشارع، الناس العاديّين الذين لم يحصل أغلبهم على ثقافة ولا على تعليم، وخرجوا دفاعًا عن كرامتهم، مطالبين بحرّيّتهم. لذلك كنت في أغلب الأحيان أتأفّف من البطء، ولكن لم أكن أنظر إلى الأمر بهذه العين. كان يجب، وعلى الفور، البدء بتحرّك يدعم الناس. قبل أسبوع التقيت أحد الشباب المهمّين في حركة التنسيقيّات، أبدى خشيته من أن يتحوّل هذا المشروع، مثله مثل غيره من الأفكار التي كانت تدور حولهم وتنتهي إلى الفشل، قال لي، وبكثير من التصميم، نحن نريد دعمًا حقيقيًّا، الكلّ يقول سيدعمنا، ولا نرى شيئًا، الدعم الحقيقي يكون عبر تأمين الدعم المالي، ويتلخّص في ثلاث نقاط: متابعة أحوال المعتقلين وأهاليهم، الأطبّاء، تنظيم حركة المظاهرات. رأيت في عيني الشابّ تصميمًا وتحفّزًا آلمني أكثر ممّا أفرحني. أجل رأيت في عينيه التوثّب والحركة والنشاط بينما كنت أرى في بعض شخصيّات المعارضة، من نساء ورجال، الخمول والبيروقراطيّة والتلكّؤ، لذلك وفي لقاء اليوم مع الشابّ الآخر، عقدت العزم على ربطه بمجموعة من الصبايا الفاعلات لتحريك صندوق الدعم، واتّصلنا بإحدى النساء، وتركت الشابّ ثم ذهبت لرؤيتها مباشرة، كانت توافقني فيما أقوله، وقمت بوصلها بالشابّ. بعد جلسة، اتّفقنا فيها أن تكون على اتّصال مباشر بهم دون الرجوع لأيّ تجمّع كان، حتى لو كانت مجموعة نساء لدعم الانتفاضة. كان هذا الحلّ الوحيد للتعجيل بمساعدة الناس. فكّرت أنّي يجب أن أتحرّك بسرعة وأربط المجموعات التي أعرفها بعضها مع البعض الآخر، فهذا على الأقلّ، سيجعلهم على اتّصال، حتى لو لم يسفر هذا الاتّصال عن شيء، ولكنّني أثق في الكثيرين والكثيرات منهم، لذلك بعد أن تركت المرأة التي ستتابع موضوع صندوق الدعم، عدت مباشرة إلى

البيت. في طريقي كنت أشعر أنّ جلدي متّسخ، وأنّ طبقة من الشمس الحارقة تستقرّ بين مسامّي، وأنّي أريد حمّامًا ساخنًا لأكثر من ساعة، يرخي مفاصلي، ويجعلني أستعدّ لغضب ابنتي عندما أعود في نهاية النهار إليها.

٢٠١١/٦/٢٦

كان يجب أن ألتقي بأحد شباب التنسيقيّات من أجل محاورته بشأن بيان سوف يصدرونه حول اللقاء التشاروي في فندق سميراميس. كانوا يريدون أن يعلنوا رفضهم له، وأنا كان لي رأي مختلف، رغم قناعتي الداخليّة أنّ هؤلاء الشباب على حقّ، ولكنّي كنت أحاول زرع المزيد من الرحابة بين كافّة الأطراف، وهذا أمر كنت أفتقده بيني وبين نفسي، وأحاول التغاضي عنه. كان الشابّ معتدلاً في رأيه وقال: سنحاول، لدينا اجتماع اليوم وسنقرّر إن كنّا سنصدر هذا البيان. وأنا طلبت منه برجاء التفكير بأمر تأجيله، حينها كنت أستعدّ للبدء في مرحلة جديدة. الإشاعات التي أطلقها الأمن عنّي كانت قد وصلت حتى إلى المعارضة. أحد أصدقائي المثقّفين كتب إليّ: والله أنا زعلان عليك، ارجعي واسكتي وتخلّصي من كلّ هذه الآفات. حينها لم أفهم كلامه، كنت ألتقيه من أجل الحديث عن هيئة تنسيق وطنيّة، وكنت أريد للجميع أن يعلم أنّي لست بصدد الدخول في تجمّع أو مجلس، وأنّي أفضّل البقاء بصفتي كاتبة مستقلّة. كانت فكرتي عن المثقّف النقدي أكثر أهمّيّة من

فكرة التواجد ضمن حركة مجموعة، أنا كنت أعرف أنّي سأكون أوّل المنتقدين للجماعة التي ستستلم الحكم في سورية بعد إسقاط النظام، لأنّ المرحلة التي ستتمّ فيها عمليّة التحوّل الديموقراطي تحتاج منّي أن أكون ضميرًا وشاهدة حقّ، مع ذلك كان البيان الذي أصدره مؤتمر سميراميس جيّدًا، وكانت الأفكار التي نادى بها تتوافق وأفكار الناس الذين يخرجون في المظاهرات. كنت راضية، رغم معرفتي الأكيدة أنّ هذه الخطوة التي تنازل النظام عنها، ليسمح بمؤتمر كهذا، ما كانت لتمضي دون دماء السوريّين، هذا من جه،ة ومن جهة أخرى كانت تنازلاً من النظام في سبيل الحصول على خطوة يتقدّم بها، مع ذلك صمتُّ، وصمتُّ أيضًا عن الڤيديو المنزلي الذي قمنا بتصويره واحتاج وقتًا طويلاً حتى ظهر تحت اسم «حرائر الساحل السوري» وهو ما أغاظني. اتّصلت بالفتاة التي تابعت الموضوع في التنسيقيّات، وحاولت الاستفسار منها عن الأمر، ولماذا تمّت تسميته بحرائر ذات الدلالة الإسلاميّة ضمن سياقها الثقافي واللغوي، ولم تتمّ تسميته بالنساء؟ لكنّ الحديث بوضوح على الهاتف كان صعبًا، قالت لي إنّنا سنلتقي قريبًا، واتّصلت ثانية، ولم أستطع أن ألتقيها. كانت امرأة فاعلة في الانتفاضة، تشتغل في تنظيم التظاهرات وتبدو دائمًا مرهقة وبالكاد تتحدّث، قليلاً، حتى يصير موعد لقاء ثان لها، لذلك قلت إنّي يجب أن أصمت، فالكثير من الأخطاء ستحدث وعلينا تجاوزها، وكان علينا الإشارة إليها ونقدها.

٢٠١١/٦/٢٧

أمام القصر العدلي كنت أنتظر القاضي كي يحضر، كان عليّ تحضير موافقة سفر ابنتي، ما زلنا هنا محكومين بقوانين غريبة تحظّر على الأمّ أن تسافر مع ابنتها إذا كانت تحت سنّ ١٨ بدون موافقة والدها، لقد عشت طوال عمري مع ابنتي وحدي، وكنت أحتاج لإذن والدها، الذي لم يكن يومًا مسؤولاً عنها. في الحقيقة لم أكن بحاجة للشعور بظلم يفوق المظالم التي كنت أراها يوميًا، كنت غاضبة! نعم أستطيع تعريف ما يحصل معي بالغضب الدائم. عليّ انتظار ورقة من والد ابنتي. عليّ الذهاب إلى القاضي لأحصل على موافقة، ومن ثم العودة إلى مبنى الهجرة والجوازات ليتأكّدوا أنّ والدها موافق حتى يتمّ إعطاء تأشيرة لها! هذه القوانين المتعلّقة بالأحوال الشخصيّة، والتي كنت أكتب ضدّها بشكل دائم، كانت تمسّني. لا أستطيع الخروج عمّا يمسّني، ليست قضايا لها علاقة بمظالم الآخرين فقط، إنّها أشياء تعنيني، تجعلني طوال الوقت أفكّر بمعالجة الغضب في روحي من كلّ ما يحدث حولي، ومن ثم التفكير بتحويل هذا الغضب إلى كلمات، كلمات تأخذها الريح في

أغلب الأحيان، وتثير استياء الكثيرين، ولكنّ هذا بحدّ ذاته يجعلني أشعر أنّي بخير، أن أنال الرضا ممّا يحيط بي، كان يجعلني أشعر أنّي لست بخير، خاصّة أنّي أعيش في بيئة سكونيّة. نعم المثقّفون يعيشون في بيئة جامدة، العالم سبقهم. والحراك الذي حصل في سورية، من دفع به إلى الشارع ليس الكتّاب ولا الشعراء ولا المثقّفين. المثقّفون حتى الآن لم يكونوا على مستوى شجاعة الشارع، والكتّاب، مع استثناءات قليلة، وقفوا خائفين مذعورين، وأنا كنت أنتظر من الذين وقفوا على الحياد ألّا يوجّهوا سهامهم وحقدهم إلى كلّ من وقف إلى جانب الانتفاضة. أحيانًا يضطرّ الإنسان ليشعر بأهمّيّته لتحقير من حوله. كنت أفهم هذا لدى الكثيرين وأتغاضى عنه، وهذا كان ظلمًا يضاف إلى المظالم المحيطة هنا، المضحك أنّ القاضي الشرعي في المحكمة قال لي إنّه يجب أن تكون هناك موافقة جديدة من والد ابنتي، وإنّ هذه الموافقة قديمة وهذا يعني المجيء مرّة خامسة إلى المحكمة، وانتظار المزيد من الأوراق. قلت للقاضي الهادئ بينما تصطفّ ورائي عدّة نساء: ولكنّي أمّها وهذا واضح، فنظر إليّ بهدوء، وقال: يا سيّدتي، هذه قوانين وليست لعبة. وأشاح بوجهه عنّي، وتحدّث إلى السيّدة التي كانت تقف ورائي مباشرة. خرجت من القصر العدلي غاضبة. كنت شبه مفلسة، وأنتظر وصول مبلغ من ترجمة رواية إلى الإيطاليّة. لذلك كان سخطي مضاعفًا، وكنت حينها ألجأ إلى التفكير بالناس الذين يُقتلون كلّ يوم ويُعتقلون ويختفون. أفكّر بهم، لأكظم غيظي وأقول لنفسي: يا بنت، الناس تموت من أجل حرّيّتها، وأنت لا تحتملين من أجل أفكارك فقط، الناس تضع حياتها ثمنًا لحرّيّتها، وأنت لا تحتملين ما حولك! كنت أقرّع نفسي دائمًا، لأتابع الحياة. في البيت تكون ابنتي بانتظاري، وأهرع إلى الإنترنت لأعرف ما نُشر عن اللقاء التشاوري الذي حاولت السلطة أن تظهره

بمظهر كاريكاتوري. لأوّل مرّة يتمّ نقل مؤتمر على الهواء مباشرة في الإعلام الرسمي، كان القصد منه إظهار التشرذم الذي تعيشه المعارضة، تشوّه المعارضين والمعارضات من جهة، وتقول لهم أهلاً وسهلاً من جهة ثانية. تضربهم بعضهم ببعض وتحاول جرّ بعضهم إلى صفّها. كنت أعرف بعض الذين يلتقون ببعض الضبّاط، ولكنّ خشيتي الحقيقيّة كانت من ضابط مقرّب إلى الرئيس، ويجمّل صورته بين المثقّفين دائمًا، لكنّه كان يقوم بضرب إسفين بينهم ويشقّ صفوفهم، وبالتالي لا تبقى صورة نقيّة لأحد من أسماء المعارضة. كنت أقول للبعض من أصدقائي الذين يلتقيهم وأعبّر لهم عن مخاوفي: هذا الضابط وبشّار الأسد واحد، وبشّار الأسد قاتل، كيف يصير مقرّبًا منكم إلى هذه الدرجة؟

٢٠١١/٦/٢٨

اليوم.. إطلاق نار كثيف في جبل الزاوية ومظاهرات عدّة تطالب بإسقاط النظام، بينما تستمرّ عمليّات الاعتقال.

اختتام لقاء وفد المعارضة في موسكو، الذي طلب تدخّلاً روسيًّا. موسكو تقول إنّ روسيا صديقة للشعب السوري، والمعارضون يعرضون عدالة قضيّتهم، ويطالبون موسكو بالوقوف إلى جانبهم وإقناع بشّار الأسد بالاستقالة.

اليوم أذهب مع أحد شباب التنسيقيّات لألتقي بإحدى المعتقلات، كان لقاء سريعًا. الفتاة محجّبة، لطيفة ومهذّبة وتتحدّث عن الاعتقال بهدوء غريب. أتّفق معها على لقاء آخر، وأترك الشابّ، وأذهب إلى موعد مع شابّ آخر من لجان التنسيق. أريد توثيق كيف ابتدأت حركة اللجان وكيف نظّم الشباب السوريّون أنفسهم من أجل استمرار الانتفاضة، ثم كيف تكوّنت لجان تنسيقيّات الثورة على أرض الواقع؟

اللقاء في بيتي، وهو المكان الأكثر أمانًا بالنسبة لحديثنا، فقد سبق

أن التقينا في أحد المقاهي، وأظنّ أنّ رجال الأمن راقبونا. حضّرت الطعام لنأكل معًا، وكان الشابّ من الذين أثق بهم، وأقول له دائمًا، هو وشابّ آخر، بأنّي مثل أمّهما، كان هذا يرضيهما على الأغلب، لكنّه كان شعورًا حقيقيًا. انتهينا من الطعام، وبدأت بالحوار، يقول الشابّ الذي سيُعتقل مرّتين:

«قبل أن يبدأ الحراك في العالم العربي، وقبل ثورة تونس، كانت لدينا مجموعة مشاريع ثقافيّة واجتماعيّة وتنمويّة مع عدد من المثقّفين، كنّا شبابًا ونلتقي ببعض المثقّفين الأكبر سنًّا، بعد حراك تونس تفاءلنا وقمنا باعتصام أمام السفارة التونسيّة، قبل سقوط بن علي. قُمعنا ومُنعنا من قِبل رجال الأمن. وبدأ الحراك في مصر، وتأكّدنا أنّ الدور سيصل إلى سورية، وبدأ سقف النقاش يعلو بيننا: هل يمكن أن نبدأ بالتظاهر والاعتصام في سورية. وفعلاً في ٣ شباط قمنا باعتصام ضدّ شركتي الاتّصالات الوحيدتين في سورية (سيرياتل وإم تي إن). كان الاعتصام الساعة الثالثة بعد الظهر، ولكن عندما وصلنا إلى مقهى الروضة، كان المكان يعجّ برجال الأمن، وخارجه كان التواجد الأمني كثيفًا، فنقلنا الاعتصام واعتُقل شباب منّا. ثم بدأنا نعدُّ العدّة للتحرّك، ولم نكن نظنّ أنّ الحراك سيكون بهذا الحجم، كبُرت المجموعات بعد مصر وليبيا، وبدأ الشباب يهتمّون بالشأن العامّ، وتدفّق العديد من الشباب المحايدين للتحرّك، وخاصّة بعد سقوط مبارك وفضائح النظام في ليبيا. في ١٤ شباط اجتمعنا حوالى ١٠ أو ١٢ شابًّا وفتاة وكنّا من عدّة إثنيّات وطوائف وقوميّات، وكان هذا اجتماع مصادفة، وكان هناك اجتماع في ١٥ آذار، وكنّا قلقين حول سؤال: هل من الممكن إنزال الشعب السوري إلى الشارع؟ كنّا قرّرنا النزول إلى الشارع في ١٥ آذار بصفة مراقبين، لأنّنا اعتقدنا أنّه إذا نضج الشارع فإنّه سيتحرّك، وإن لم يحدث

هذا فسنعمل ما بوسعنا لجعله يتحرّك. وكانت لدينا فكرة التحرّك عبر مجموعة من الصفحات على الفيسبوك مثل صفحة «كلّنا خالد سعيد» في مصر، هذه الصفحات لها علاقة بالمطالب الاجتماعيّة والاقتصاديّة والخدميّة للمواطنين، وسوف تُلقي هذه الصفحات الضوء على أثر قوانين الطوارئ وأثر الاستبداد السياسي، والمادّة الثامنة من الدستور وأثر استئثار البعثيّين بمراكز السلطة ومقاعد الجامعة. في صفحة التعليم التي تظهر الفساد في أجهزة التعليم وخاصّة الجامعي، كنّا ننشر ملفّات الفساد، على سبيل المثال صفحة عن المنافقين في سورية، وهمّها أن تظهر الأفراد الانتهازيّين في النظام.

في ١٥ آذار فوجئنا أنّ الناس خرجت للتظاهر، وهذا يعني أنّه لا داعي لأن نتحرّك ونحرّضهم، الناس جاهزة للخروج وقد خرجوا من الجامع الأموي في قلب دمشق، وكان هناك خمسة شباب هم من حرّكوا التظاهرات، بعد ذلك كان هناك قصّة أطفال درعا في ١٨ آذار، وكنّا بدأنا التحرّك في دمشق للاعتصام. كان في ذهننا، في بداية التظاهرات، أن تكون في الساحات على غرار نموذج ساحة التحرير، حاولنا التظاهر داخل دمشق وفي الساحات، كان هناك تشدّد أمني وحواجز عسكريّة، ولم نستطع الوصول إلى الساحات.

أذكرُ تلك التحرّكات، كنت أقول لنفسي لا بدّ أنّ هناك من يقف وراءها، وكنت أنزلُ أثناء هذه التحرّكات لأراقب الشارع. كان التحرّك فعلاً حينها ضعيفًا.

يضيف الشابّ: الإشارات بدأت من درعا، وبدأنا ندخل الحراك، كنّا جزرًا معزولة، رغم أنّ الشارع ناضج، ونحن لم نستوعب بعد حركة الشارع بسبب فقداننا الخبرة السياسيّة والميدانيّة وحتى الأمنيّة، ولم تكن لدينا هواجس أمنيّة رهيبة. كانوا متوحّشين معنا. في يوم السبت ١٩ آذار

سقط قتلى في درعا، كنّا مجموعة تدرس إمكانيّة احتجاج لدعم درعا، وكانت مظاهرات بسيطة تخرج إلى الشارع. في يوم الإثنين ٢٠ آذار خرجت مظاهرة صباحًا في البرامكة تهتف ضدّ النظام وفُرّقت بقوّة وعنف، وكنّا قد نفّذنا إضرابًا أمام وزارة الداخليّة يوم ١٦ آذار، أثناء الأسبوع بدأنا التحضير للخروج يوم الجمعة. كان النموذج المصري قد أثّر في عقلنا الباطن، رغم أنّ هذا السبب لم يكن الوحيد لتفكيرنا بالجامع. كان لدينا من الصعوبات الكبيرة التي تجعل الحشد خارج الجامع أمرًا مستحيلاً، بعد الانتشار الأمني الكثيف في دمشق، وكنّا معروفين بالنسبة للأمن. كلّنا، في الغالب، حاولنا أن نخرج بمظاهرات أكثر من مرّة وفشلنا، نحن كعلمانيّين خارج التوجّه الديني، لذلك كان لا بدّ لنا من توجيه حركة الاحتجاج من داخل الجامع، لأنّ هناك حشدًا شعبيًّا لا يستطيع النظام قمعه، ونعوّل أنّنا إذا هتفنا هذه المرّة فسينقاد الجمهور معنا. كنّا مؤمنين أنّ الناس ترفض النظام لأنّ الناس خرجت قبلنا، فإذا وقفنا وهتفنا سيدعمنا الناس، ونحن بصراحة كنّا كشباب أغلبنا من اليسار والعلمانيّين تخلّصنا من عقدة الإسلام وخوفنا منها. دخلنا في يوم ٢٦ آذار إلى الجامع، دخلنا بالكاميرات وخرجنا بالمظاهرات تهتف لنصرة درعا والحرّيّة والشهيد، وتندّد بعلميّات القمع، وتحرّكت أكثر من مظاهرة في دمشق، وهذا بحدّ ذاته كان مؤشّرًا لحراك شعبي كبير ضدّ النظام. يومها خرجنا من الجامع الأموي واتّجه البعض إلى المرجة وآخرون إلى البرامكة ومظاهرة إلى المزّة، وهذا يعني أنّنا لم نكن وحدنا، وتأكّدنا بما لا يقبل الشكّ أنّ الحراك الشعبي بدأ في الغليان ولن يتوقّف. هناك ملاحظة أودّ قولها، وهي أنّنا كنّا نخرج من دون تنظيم في دمشق، والأمن بدأ بتقطيع أوصال دمشق، وتراجعت حركة الاحتجاج إلى الضواحي بسبب القمع الأمني الشديد، وصار

الأمن يأخذ هويّات الناس الذين يريدون دخول الجامع الأموي، فبحثنا عن جوامع أخرى وحاولنا الخروج من جامع الرفاعي في كفر سوسة، وصار هناك تمترس أمني شديد».

بينما الشابّ يتحدّث أتذكّر ذهابي إلى الجامع الأموي، وأحدّثه عن الوجود الأمني المكثّف الذي كان يحيط ليس بالجامع فقط بل بالمنطقة كلّها، من باب توما وحتى باب الحميديّة، يوافقني ويتابع:

«أهالي الميدان تحرّكوا معنا نظرًا لصلة الدم بينهم وبين أهالي درعا تاريخيًّا، والأحياء القريبة من الميدان هي أحياء أغلب ساكنيها من حوران. وأهل القابون أيضًا تحرّكوا نظرًا لصلات الدم والقرابة مع درعا. كانت الصلات العشائريّة وقرابة الدم أكثر من الصلات الإسلاميّة. في جامع الرفاعي وقع حصار، وبدأنا بالبحث عن جوامع أخرى، لم يكن خطيب جامع الرفاعي متعاونًا معنا في البداية وكان يميل إلى النظام. وفي حيّ الميدان خرجت التظاهرات دون أن نتدخّل فيها، فصرنا نلحق بتحرّكاتهم. وكان خطيب جامع الميدان متعاونًا معنا. في هذه الأثناء تحرّكت دوما وبانياس التي اجتاحها الجيش فبدأنا نشعر أنّ رقعة الاحتجاج تتوسّع، وصار الجوّ العامّ أكثر فاعليّة وبدأنا التحضير لشيء مختلف، وشعرنا أنّنا فعلاً قد دخلنا في الانتفاضة، وبدأنا بالتواصل وتسمية أيّام الجمع مع الشباب الناشطين في الخارج، ومنهم شباب «صفحة الثورة السوريّة» مثلاً. كنّا بحاجة للتواصل وكانت تلك الصفحة «الثورة السوريّة» هي من تسمّي أيّام الجمع في البداية من دون استشارتنا، فاعترضنا نحن جماعة الداخل، وصرنا نتدخّل في تسمية أيّام الجمع. بعد توسّع رقعة الاحتجاج كان النشاط يكبر وشعرنا بضغط أكبر ومسؤوليّة أعظم، هنا بدأ الحراك يفرز الشباب. كنّا نتعارف في المظاهرات ولقاءات أيّام الجمع، وكلّ واحد يأتي بمجموعة. كنّا شبابًا

وصبايا نعمل طوال الوقت، ولمّا اشتدّ الضغط الأمني صار الشباب يجتمعون لوحدهم، والصبايا لوحدهنّ، لاعتبارات اجتماعيّة وأمنيّة. بدأنا من خلال المجموعات التي نعرفها نتواصل اجتماعيًا على الأرض، وعلى الفيسبوك، فكان تواصلنا عاليًا، فكلّ واحد يجمع مجموعة ونشبك كلّ مجموعة مع الأخرى، وهذا حدث أكثر في الجامعة، واستطعنا شبك طلّاب العلوم مع طلّاب الطبّ والفنون والتربية والاقتصاد، وكلّهم قاموا باعتصامات داخل الحرم الجامعي، هنا بعد مرور شهر تقريبًا ونيّف على الانتفاضة، بدأ التحضير لتحرير الساحات. أردنا استغلال رمزيّة يوم الاستقلال لدعم الاحتجاج، وقعنا في أخطاء. الخطأ الأوّل كان أنّنا نقود الحركة ضمن تجمّعات، ولم نتحوّل بعد إلى تنسيقيّات. والثاني أنّهم كانوا يرون أن تأتي الناس من أطراف المدينة وتعتصم في الساحات، وبالذات دوما وحرستا والتلّ. نحن استطعنا أن نمنع الرأي الثاني لكنّ أحد الشباب منّا، في زيارة خاصّة إلى دوما قام بإيصال رسالة في جلسة شفهيّة، بأن يأتي أهالي دوما وحرستا وجوبر والتلّ وعربين وزملكا إلى الاعتصام بساحة الأمويّين، وبالفعل حدث هذا يومها، والأمن نفّذ مجزرة راح ضحيّتها ١٢ أو ١٣ قتيلاً، وبدأ تقطيع أوصال دمشق وضواحيها بطريقة وحشيّة، وصار هناك الكثير من الحواجز بين الضواحي ودمشق. كان هذا خطأ استراتيجيًا. هنا شعرنا بالحاجة لضبط الحركة وتوجيه الاعتصامات، وبدأت تتبلور حاجات لم نكن قد تنبّهنا إليها: وهي الحاجة المادّيّة لعائلات الشهداء والمعتقلين والحاجات الطبّيّة والمساعدات. بعد ربط هذه المجموعات بعضها ببعض ومناقشات وحوارات بدأ فرز العناصر الأكثر نشاطًا وإيمانًا، وبدأ كلّ واحد منّا يعمل في مجال اختصاصه، وأدركنا أنّ مواجهتنا مع النظام متعدّدة الجبهات. وفي الوقت نفسه صار النظام أكثر عنفًا ووحشيّة،

وبدأنا نسقط بين أيدي الأمن، واحد يُعتقل، وآخر يُقتل وثالث يختفي. . إلخ.

عندما ربطنا المجموعات، صار هناك اصطفاء على أساس النشاط والقدرة على خدمة الحراك، وحاولنا أن نجتمع في حلقات ضيّقة بعد الضغط الأمني علينا. تقريبًا في بداية الشهر الخامس بدأ يظهر على السطح مصطلح تنسيقيّات، كان قد مضى على بداية الاحتجاجات شهر ونصف، وتوزّعت مهمّات التنسيقيّات. في جوانب متعدّدة: سياسيّة وإعلاميّة وتنظيميّة وطبّيّة. عرفنا أنّه وفي مناطق الاحتجاج الدامي مثل دوما ودرعا وحمص وبانياس، لم يكن هناك وقت للثقافة والفنّ، وتركّز نشاطنا على الدعم الإنساني وعلى الجانب السياسي. وأصبح لدينا مجموعة منظّمة من الشباب والصبايا في التصميم الفنّي والملصقات والجرافيك والتواصل والصفحات الإعلاميّة والصفحات الإلكترونيّة. آخرون لا يفقهون في السياسة لكنّهم قادرون على جعل الناس تخرج للتظاهر. والشباب لديهم علاقات إعلاميّة، وكثير من الشباب لديهم وعي سياسي وعملوا في البيانات التي نصدرها. وبالوقت نفسه دخلنا في جلسات تفاوض حقيقيّة حين نزلنا إلى الشارع، لأنّ الشارع لم يكن لونًا واحدًا مثل الحراك في دوما، الذي كان يقوده الاتّحاد الاشتراكي، وهم قوميّون عرب، وفي جهة أخرى كان هناك شباب إسلاميّون ذوو فكر إسلامي، ولكن ليسوا بالضرورة متحزّبين وبالوقت نفسه ليسوا أصوليّين أو متعصّبين.

أدركنا أنّ الحِراك الشعبي سبقنا، فكانت هناك محاولات لجرّه لصالح كلّ طرف، فقرّرنا بعد جلسات نقاش أنّ جرّ هذا الحِراك إلى أيّ جهة هو نصر للنظام، ونهاية للحراك الشعبي وتشويه له، فدخلنا في جلسات تفاوض معهم. وكان الشباب متفهّمين ومنفتحين سواء القوميّون

أو الإسلاميّون أو اليساريّون. والجميل أنّ الكلّ مدرك أنّ الحراك ذو مضمون ديموقراطي ليس في سورية فحسب بل في العالم العربي. حاول بعض الشباب شدّ الحراك الذي حصل على الأرض باتّجاه ما يحملونه من إيديولوجيا، ولكن من خلال جولات وصولات حوار ماراتونيّة، استطعنا الوصول إلى حقيقة أنّ تبديل إيديولوجيا البعث بإيديولوجيّة أخرى لن يفيد أحدًا، وسيفقد الحراك زخمه الشعبي، وسيطرح قضيّة تخوّف الأقلّيّات من الإسلاميّين على أرض الواقع، وهي الفزّاعة التي يخوّف النظام الأقلّيّات بها. وفي الآن نفسه سيخلق شرخًا بين الشباب العلمانيّين والإسلاميّين والليبراليّين. هنا وصلنا إلى أنّ المهمّ هو عملنا على الأرض بعيدًا عن الإيديولوجيّة. الفكرة أنّ الإسلاميّين لم يكونوا متحزّبين بالعموم. بعد وصول الحراك الشعبي إلى مرحلة متقدّمة وجدنا أنّه من الأفضل تقسيم اللجان إلى تخصّصات، وكلّ مجموعة من الشباب تعمل ضمن تخصّصها. كانت اللجنة السياسيّة مسؤولة عن التفاوض بين التنسيقيّات، وتوحيد الرؤية السياسيّة وصياغة أفكار البيانات، والتي بدورها تتحوّل إلى اللجنة الإعلاميّة، التي تصوغها بشكل نهائي. اللجنة الإعلاميّة في الداخل في لجان التنسيق تضمّ شبابًا من مختلف المحافظات، ومن العاملين في الحقل الإعلامي، وهم مسؤولون عن إيصال الأخبار إلى الفضائيّات والوكالات، من خلال شبكة أصدقاء تحوّلوا إلى مراسلين على الأرض، وبدأنا نتعرّف على أناس لديهم رغبة في توصيل الخبر في ظلّ غياب وسائل الإعلام. وبالوقت نفسه، ولدواعٍ أمنيّة، وضعنا ناطقين باسم لجان التنسيق المحلّيّة من الخارج هم أربعة (عمر إدلبي، رامي نخلة المعروف بملاذ عمران، ومحمّد العبد الله من واشنطن وهوازن إبراهيم)، وهؤلاء لا يصرّحون إلّا بالتنسيق مع الداخل. في اللجنة التنظيميّة مجموعة من الشباب القادرين على الحراك

في الأرض، أي يتمتّعون بعلاقات واسعة، واستطاعوا تنظيم أغلب التظاهرات في دمشق وضواحيها. اللجنة الثقافيّة والفنّيّة، هذه المجموعة تتألّف من التقنيّين على الإنترنت والقادرين على التعامل مع برامج الكومبيوتر من الشباب الموسيقيّين والرسّامين، مع هؤلاء وضعنا خطّة عمل؛ على أن يبدأ كلّ منهم بالعمل في مجاله واللجنة الإعلاميّة تنشر في وسائل الأعلام. خطّة عملنا كانت تعتمد على النفس التهكّمي من النظام (لا للاستحمار، أنا مندسّ) وأيضًا على مبدأ اللوحات التي نشرها النظام (أنا متفائل أنا متشائم أنا مع القانون). قمنا بحملة شبيهة على الفيسبوك (أنا متشائم... منحبّك) كنّا نتهكّم (أنا مع القانون... بس وينو)، (أنا طريقي هو طريقك بس الدبّابة واقفة على الطريق). اشتغلنا على أكثر من جانب، حاليًّا لدينا أكثر من جهة تقوم بتصميم ملصقات للثورة، تحمل هويّة بصريّة تنمّ عن طابع الثورة السلميّة أيضًا. لدينا شباب للتوعية التي ننشرها بين الناس، لجسّ النبض من شرائح مستهدفة في المجتمع السوري، ومعرفة اتّجاهات الشارع. واتّفقنا كلّ خميس أن نوزّع بعضنا بعضًا حتى نخرج إلى أماكن التظاهر، والشباب يخرجون للتظاهر كي يسيطروا على شعارات التظاهرات، لتأخذ الطابع السلمي والمدني. إحدى النساء الحقوقيّات اشتغلت معنا بشكل كبير، وكان عملها ربط التنسيقيّات عن طريق الأصدقاء في كافّة المدن، نحن لم نستطع استخدام الهواتف، فصرنا نعتمد التواصل الشفهي بسبب القبضة الأمنيّة الشديدة. هذا على مستوى دمشق.

فكّرنا بما يجب فعله للتواصل مع المدن الأخرى عبر قنوات تواصل أتاحها الإنترنت. كانت المرأة الحقوقيّة هي من ربطت مجموعة التنسيقيّات فيما بينها في دمشق والمحافظات، واستطعنا الوصول لصيغ مشتركة للعمل ورؤية سياسيّة واحدة. في النهاية من ساعدنا على ذلك

هو مناخ الثورات في العالم العربي ورؤيتنا الديموقراطيّة لها. كانت هناك مجموعات أخرى من الشباب تعمل على الأرض، لكن بسبب صعوبة التواصل والحذر الأمني لم نستطع التواصل بشكل جيّد، هؤلاء نسّقوا مع طرف آخر، وأعلنوا صفحة على الفيسبوك اسمها «اتّحاد التنسيقيّات»، فأقمنا تعاونًا بيننا وبينهم. نحن نعمل بشكل جماعي معًا ولا يوجد حدود فصل بين العملين، نعمل حاليًّا على توحيد التنسيقيّات بشكل كامل في جميع أنحاء سورية، تحت اسم أوّلي «ائتلاف التنسيقيّات» وذلك لأنّنا لا نختلف على الأرض معًا، وسنبذل جهودنا، خلال عشرة أيّام، لعقد لقاء للخروج بصيغة واحدة تجمع لجان التنسيق واتّحاد التنسيقيّات».

٢٠١١/٦/٢٩

رأسي مشغول بما يحدث من حراك سياسي. لجان إحياء المجتمع المدني تعود للظهور. الإعلان عن تنسيقيّات جديدة. الشباب والصبايا يجتمعون ويشكّلون ائتلافات وتجمّعات. حراك سياسي لم تشهد له سورية مثيلاً منذ نصف قرن تقريبًا، سيذكر التاريخ لاحقًا هذه الأيّام بوصفها أيّامًا استثنائيّة. لا أفق يلوح أمامي، متهدّجة بالأرق ومأخوذة بالتفاصيل التي صنعتها الأشهر الماضية في حياتي. شقاق بيني وبين ابنتي، قطيعة نفسيّة بيننا، بيني وبين أهلي، إنّهم بعيدون لدرجة لا يمكن تخيّلها، بيني وبين أصدقاء الطفولة، بيني وبين كلّ محيطي في القرية، بيني وبين طائفتي. لم أفكّر بيوم كهذا، طائفتي التي تُظلم للمرّة الثالثة في التاريخ، المرّة الأولى عندما تعرّض العلويّون للكثير من المذابح والمجازر. المرّة الثانية عندما صار التوصيف السياسي للحكم ولنظام آل الأسد في سورية بأنّه نظام علوي وهذا خطأ تاريخي. المرّة الثالثة الآن عندما يتعرّضون لعمليّة خداع كبيرة من الإعلام الرسمي ومن أجهزة الأمن، ومن قبل بعض المستفيدين من النظام الذين جعلوا العلويّين

يصطفّون وراء النظام ويدافعون عنه، رغم أنّه جعلهم دروعًا بشريّة في حال ضاقت به السبل، وبقي أمامه فقط قتل أبناء هذه الطائفة وزجّها في حرب أهليّة مع الطوائف الأخرى. كنت أستعدّ مع صديقة لي لزيارة الفتاة التي اعتُقلت، صديقتي تقول لي جملتها المعتادة: «ليش إنتِ كئيبة؟»، فأنظر إليها تلك النظرة التي اعتادتها لسنوات وتبتسم، لأنّ جملتها هذه كانت جملتي عندما ألتقيها. كنّا نجلس صامتتين لكثير من الوقت، ولا نتحدّث، ومؤخّرًا بعد الانتفاضة، صرنا أكثر صمتًا.

الفتاة في الثلاثين من عمرها، اعتُقلت مرّتين، تعمل مهندسة، المرّة الأولى كانت في ١٦ آذار، وبقيت في السجن ١٦ يومًا، استغربتُ هذه المعلومة، قلت لها إنّي كنت هناك في الاعتصام ولم ألمحها، فابتسمت وقالت: «ومين شاف مين؟». ضحكنا، لأنّ كلامها صحيح فعلاً، فنحن ما كدنا نتجمّع للمطالبة بالإفراج عن المعتقلين أمام وزارة الداخليّة، حتى انقضّ علينا رجال الأمن وفرّقونا بالضرب والاعتقال والركل. المرّة الثانية لاعتقالها كانت عبر كمين نصبه لها رجال الأمن، فقد كانت تحضّر هي ومجموعة من الشباب لقافلة غذائيّة لفكّ الحصار عن درعا من قبل الجيش وقوّات الأمن. الأمن كان يعتقل كلّ من يساعد أهالي درعا، حتى الأطبّاء والمسعفون يقتلونهم. قبضوا على أحد الشباب، كان يساعدها، اتّصلوا من هاتفه الجوّال وادّعوا أنّهم هو، وقعتْ في الكمين وقبض عليها رجال الأمن وسط الشارع وهي تصرخ، حاول الناس تخليصها، لكنّ رجال الأمن قمعوهم بشدّة. استطاعت أن تصرخ باسمها عاليًا حتى يعرف الناس أنّ من اعتُقلت هي نفسها. تقول:

كانوا يريدون أن أبصم لهم على كلام فلم أقبل، وهدّدوني بمجيء المقدّم. جاء المقدّم سألني: لِمَ لا تبصمين؟ وأنا رفضت فقال لي: لدينا طريقتان هنا للتعامل، طريقة إنسانيّة وطريقة حيوانيّة وعليك الاختيار،

حينها بقيت أنظر إليه بقوّة وتحدٍّ، ولم ترفّ عيناي. ضربني بقوّة فصرخت بصوت عال، ثم عادت الضربات واللكمات، لم أتزحزح من مكاني، فعادت الضربات إلى وجهي وصرخ بي: اوقعي عالأرض. كان يريد أن أقع. بقيت واقفة، وبدأ يشدّ رأسي من الحجاب، فقلت له: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال لي: حزب البعث فوق كلّ شي. ضربني بشدّة على وجهي ونزف دم من أنفي وصار يشتمني بألفاظ مقذعة وبذيئة ورخيصة وسبّ مدينة درعا وأهلها، وهدّدني بالاغتصاب، حينها وقّعت على الأوراق المطلوبة، ثم دخلت الزنزانة. وأخرجوني مرّة أخرى وقالوا: المقدّم يأمر بأن تنزعي حجابك، فرفضت بشدّة، لكن بعد ذلك خلعته. كان أحدهم لطيفًا فقال: دعوها تدخل المنفردة وتخلع حجابها في الداخل، فحصل الأمر على هذا النحو، تركوني ليلتها، فنمت بعمق. في اليوم التالي مبكرًا أيقظوني، وكان هناك برد شديد ولا يوجد سوى بطّانيّة على الأرض، وجاءت سجّانة، وسألتني: لِمَ لا تتناولين الطعام؟ وقالت إنّي إذا لم آكل سيقوم المقدّم بتعذيبي، فخفت، وهي جاءت ببرتقالة وأكلتها. كان بعضهم لطيفًا، حاربوني بأساليب نفسيّة فظيعة، منها أنّهم كانوا ينادونني باسم السجّانة، ولمّا كنت أقول لهم اسمي، كانوا لا يكترثون ويقولون أنت فلانة، وحينها خفت أن يقوموا بإخفائي نهائيًّا، وتعرّفت على سجناء مجاورين، وصرت أخبر الجميع عن اسمي ليصل الخبر إلى أهلي، بقيت من الإثنين إلى الجمعة وكانوا قد نقلوني إلى زنزانة مختلفة أفضل من زنزانتي، وكان السجناء يحيطونني بالرعاية متى استطاعوا. السبت أخرجونا إلى الأمن السياسي، وكان الشباب يسيرون والجنازير في أيديهم، متّصلة بعضها ببعض، وتهمتهم هي إيصال موادّ غذائيّة إلى درعا المحاصرة. في فرع الأمن السياسي دخلنا وأخذوا منّا أغراضنا وسبّونا. كان عناصر الأمن قساة ووضيعين،

أمّا الضبّاط فكانوا ألطف منهم، ودخلت زنزانة منفردة وبقيت وحدي، كانت قذرة ومفروشة بالصراصير بشكل كامل، ولكنّي كنت متعبة ولم أشعر ونمت بين الصراصير، أيقظوني بعد الظهر ودخلت إلى مكتب الرائد وكان لطيفًا، حاول أن يحدّثني عن المعارضة فقلت له إنّي لست معارضة، واعتذرَ عن وجودي في السجن، وقال إنّه لا يتمنّى وجود بنات سجينات، وقال بأنّي يجب أن آكل، وأن لا أمتنع عن الطعام، لأنّي في المساء سأفتح لهم صفحتي على الفيسبوك. وفي المساء فتحت صفحتي على الفيسبوك، كنت أخرج للباحة في السجن ولا آكل، ولكنّ عناصر من الأمن السياسي كانوا متعاطفين معي، وأحدهم أعطاني برتقالة. لم أكن أستطيع تناول طعام السجن الوسخ، أحدهم كان علويًّا من منطقة الساحل، كان لطيفًا جدًّا وجاء بطعامه الخاصّ وأرغمني على تناول الطعام، وصارت بيننا أحاديث إنسانيّة وقال لي مرّة: إنتِ اللّي حطّيتي حالك بهيك موقف. وقلت له: وإنت كمان حطّيت حالك بهيك موقف، لأنّني كنت قد قلت له إنّي أشعر بالوحدة هنا، فقال لي، إنّه أيضًا وحيد!

بدأ الضغط بطريقة مختلفة، كانوا يريدون أخذ أقوالي من جديد وبدأ التحقيق، وكان ضابط يصرخ باستمرار وبدا غاضبًا جدًّا وغير مهذّب، وكنت أجيبه باقتضاب. بقوا طوال الوقت يأتون بآخرين ويقارنون كلامي بكلامهم، ويتحدّثون عن الخيانة، وعن قافلة الغذاء التي ستذهب إلى درعا، ولكنّي بقيت مصرّة أنّي كنت أحاول المساعدة الإنسانيّة. في ذلك اليوم بكيت من البرد، كنت أتوجّع من البرد، وأخذوا أقوالي من جديد، وأكّدت لهم أنّي لم أكن أنوي الاتّصال بالوسائل الإعلاميّة، وأنّي فقط أريد إيصال مساعدات إنسانيّة، ونشر بيان عن حصار درعا. أخذونا في اليوم التالي إلى القصر العدلي، ولم

تنته القضيّة فتحوّلنا إلى مركز الإيداع في كفر سوسة، وهو المكان الذي يودعون فيه العاملات الأجنبيّات (فليبينيّات، أثيوبيّات، وأخريات). كان هذا المركز غير إنساني ولم أصدّق أنّه قد يكون في سورية مكان مثل هذا. أوضاع الناس سيّئة جدًّا وهناك ظروف قاسية، الخادمات موجودات منذ سنة أو سنتين لأنّه لا يوجد من يدفع ثمن بطاقة سفرهنّ، إحدى الخادمات كانت صامتة، لا تأكل، وكانت تشبه حيوانًا خائفًا، وتتصرّف بعنف، وامرأة في الغرفة المجاورة لغرفتنا تريد الانتحار، وفي غرفة أخرى امرأة أُصيبت بالجنون، وخادمة أخبرتني عن ممارسات فظيعة من قبل الناس الذين خدمت عندهم. أشياء مرعبة لا أستطيع أن أرويها. إحدى النساء اقتربت منّي وكان معي سندويشة، فطلبت منّي نصفها. أعطيتها النصف، فقسمت النصف الذي معها إلى لقمتين، وأعطته إلى امرأة أخرى، المرأة الأخرى قسمت ما عندها إلى لقمات صغيرة جدًّا، وصارت توزّعها على النساء الأخريات. كان مشهدًا فظيعًا ومؤلمًا! كنّا في الغرفة أكثر من ٣٠ امرأة، الغرفة صغيرة، ونحن مكدّسات بعضنا فوق بعض. في اليوم الثاني، ذهبنا إلى القصر العدلي، حقّق معي القاضي وكنت مربوطة مع باقي الشباب بجنازير مثل المجرمين، وهذه الجنازير أيضًا متّصلة فيما بينها. هناك انتظرنا في القصر العدلي في النظارة قليلاً ولمحت أخي السجين أيضًا، وصرخ باسمي، وصرخت باسمه، رأينا بعضنا بعضًا وغبنا، ولم أعرف عنه شيئًا.

هذه القصّة ترويها مهندسة من عائلة مثقّفة وثريّة، جسمها نحيل، وبشرتها مثل بشرة الأطفال، وبالكاد صوتها يخرج، وتضحك بشكل دائم. عندما انتهت من روايتها لم أصدّق أنّ هذه الشابّة الرقيقة كانت يومًا ما في السجن. تركتها وشعرت أنّي سأختنق، طلبت من صديقتي

التي كانت تقود السيّارة، بعدما تركنا الشابّة تتوقّف لأتابع وحدي. توقّفت سيّارة صديقتي، وأنا نزلت إلى الشارع. كانت الشمس حارقة وشعرت أنّي سأتهاوى في الشارع. وقرّرت أنّه يجب أن أتوقّف عن لقاء المعتقلات والمعتقلين، وإنّي بحاجة لعدّة أيّام أخلو فيها إلى نفسي. كان نفسي يضيق، وتوقّفت سيّارة أجرة، صعدت إليها وأنا أفكّر كم قتيلاً سيكون قدر هذه البلاد منذ الصباح وحتى هذه الظهيرة، كنت أستعدّ للسفر، وكنت أكثر من خائفة من أن لا أتمكّن من العودة.

في المساء أذهب لمجلس عزاء، كيف سأمشي الآن بين الحارات، كيف سأواجه هذا الجنون المحيط بي، كنت أبتعد عن رؤية العيون مباشرة، أنا أخاف العيون، لا أخشى الكلام، العيون وحدها تربكني.

البيت الذي سأعزّي فيه صار أمامي، وأمّ الشهيد الشابّ تقف في نهاية ممرّ ينفتح مباشرة من الباب الرئيسي، كنّا ثلاثة، وأنا أحاول الابتعاد عن المواجهة، لا أريد النظر في عين الأمّ، ولا أريد البكاء. من قال إنّ اللغة ليست عاجزة؟ لم أجرؤ على النظر في عينيها. وعندما أردت أن أقول لها نحن أولادك صمتُّ، أنا أمّ وأعرف سخف جملتي هذه. صمتُّ وجلست قليلاً. كان الصمت مهيبًا لولا أن خرجت امرأة وصارت تتحدّث عن الشهيد، تزغرد النساء، فأشعر بالتواء في قلبي. يتحدّثن عن الشهيد، وعلّقت عليها امرأة أخرى، يتحدّثون عنه كشخص حيّ، وأنا التي تقضي أيّامها في سماع قصص المعتقلين ولقاء من خرج منهم، ومتابعة أخبار الدم والقتلى، والركض في الشوارع من مكان إلى مكان. تحوّل دمي إلى مبخرة، هكذا كان شعوري الحقيقي. جلدي غطاء تبخّر دائم. وأنا أحاول النظر في وجه الأمّ الصامت الوقور، وأراقب هالة حمراء حول عينيها، ثم ظهر وجه ابنتي أمامي فجأة، وحدّقتُ في عيني الأمّ، التي أدارت وجهها ونظرت إليّ بإمعان. كانت

تلك لحظة. لحظة لا تتجاوز حتى الثانية الخاطفة، لكنّها كانت كافية بيننا، ذلك الحزن الثاقب. تلك الكرات البلّوريّة المدوّرة وسط فضاء عبثي، وهي تتناثر أمامي، تلك اللوعة التي لن يعرفها أحد، ولمحتها في عيني الأمّ الخمسينيّة، شعرتُ أنّ حنجرتي على وشك التفتّت، وأنّي كتلة البخار التي ستنفجر، وركضت من المجلس، ثم خرجت إلى الشارع. لحقت بي صديقتي وقالت: «شو بك؟»، وهناك أجهشت ببكاء، ليس بكاء صامتًا، سمعت صوتي الذي لم أسمعه من وجه الأمّ الهادئ الوقور. سمعت صوت الأمّ الثكلى التي فقدت ابنها قبل أيّام في تظاهرة يوم الجمعة الماضي، صوتها يخرج من حنجرتي، وكنت أعرف، وكلّي يقين، أنّها تستطيع أن تخمّن لمَ ركضت امرأة مذعورة مثلي من المجلس وجلست تنوح، لا بدّ أنّها عرفت كيف خرج وجه ابنتي أمام وجه ابنها. كانت التعليمات تقضي أن لا نبقى في مجالس العزاء أكثر من خمس دقائق تحسّبًا لمداهمات رجال الأمن الذين كانوا يقتحمون مجالس العزاء بشكل دائم. لذلك أمسكت صديقتي بيدي، وقالت ونحن نخرج إلى الشارع: أعتقد أنّك بحاجة لاستراحة طويلة. كنت سمعت الكثير من القصص عن شباب يموتون أمام آبائهم، ورأس شابّ يتدحرج ميّتًا أمام عائلته وإخوته يخرجون جسده فيتدحرج دماغه منفصلاً عن جمجمته ويستقرّ بين أقدامهم، ونساء يُقتل أطفالهنّ أمامهنّ، وبيوت تُخرّب وتُهدم وتُحرق أمام أعين أصحابها. والأهمّ من كلّ هذا أنّني كنت سمعت من النساء قصصًا لا تنتهي، وعرفت كيف كان السوريّون يساعدون بعضهم بعضًا وكأنّهم عائلة واحدة، ضدّ ممارسات رجال الأمن والشبّيحة. قصص سأعود إليها في يوم ما.

٢٠١١/٦/٣٠

في هذا الصباح أجلس لأكتب ما سجّلته عن مدينة حماة، وأنا أنتظر حلول الظهيرة، التي تحوّلت في دمشق إلى ما يشبه حظر التجوّل الاختياري. روت لي سيّدة من مدينة حماة قصّة الطبيبة التي جاء إليها رجل، ومعه سبع جثث لوضعها في برّاد المشفى، ريثما يتمّ دفنها. قالت الطبيبة إنّ الرجل كان يبدو نصف مجنون، وهو يحاول إقناعها بإيواء الجثث حتى وقت الدفن، لكنّ الطبيبة ظنّته مخبولاً، وقالت له إنّه لا يوجد لديها إلّا مكان لجثّتين، وكانت تقول الصدق. يذهب الرجل، وستكتشف الطبيبة أنّ كلامه صحيح، وأنّ هناك أناسًا قُتلوا، ولم يجدوا من يدفنهم أو يحفظهم ريثما يُدفنون.

أكتبُ شهادة صحافي بقي في مدينة حماة عدّة أيّام، كان متخفّيًا، التقينا في بيته السرّي:

(لحظة وصولي إلى المدينة رأيت عشرين ألف متظاهر كانوا يهتفون: «سلميّة سلميّة، لا سلفيّين ولا مندسّين نحنا سوريّين». ويهتفون

للحرّيّة: «نحنا إسلام نحنا علويّين نحنا مسيحيّين». رأيت سيّارة كبيرة تركب فيها نساء يمشين وراء مظاهرة، كانت صديقتي في المظاهرة معي، ورأينا المتظاهرات في كلّ مكان. في الشرفات في الطرقات، كانت كلّ ذرّة في الهواء تتظاهر في حماة. كان واضحًا أنّنا غرباء، جاء أحدهم وسألني إن كنت أتحدّث العربيّة. ظنّوا أنّي أجنبي. كنّا خائفين من الاعتقال فمشينا في الوسط حتى لا نُعتقل، في بداية كلّ تجمّع كانت هناك شاحنة صغيرة عليها مكبّرات صوت، صعدنا السوزوكي وبدأنا التصوير. كان الناس متعاونين ولطفاء، كنّا فعلاً خائفين من رجال الأمن، لم نكن نعرف حينها أنّ حماة مدينة محرّرة منهم، هذه أوّل مرّة في الحياة أعيش هذا الشعور، شعور الحرّيّة. صوّرنا حوالى نصف ساعة وأردنا الخروج، كنّا أنا وصديقتي فقط، عند خروجنا خفنا أكثر أن نُختطف. أمسكتُ يد صديقتي ومشينا في التجمّع وركبنا التاكسي، قلنا للسائق: خذنا إلى أيّ مكان، فأخذنا إلى منطقة الحاضر قرب جامع عمر بن الخطّاب. جاء أصدقاؤنا وأخذونا.

في اليوم التالي التقينا بالطبيبة، وأجرينا مقابلة تلفزيونيّة معها، حدّثتني كيف عاملوها عندما اعتقلوها ووضعوها مع العاهرات وشتموها وسبّوها، وحدّثتني كيف حمى الناس المشفى الذي تملكه، وشكّلوا درعًا بشريّة حول بناء المشفى، حتى لا تدخل قوّات الأمن إليه وتسرق الجرحى. ثم التقينا الأمّ التي قتلوا زوجها وابنها في سنة ١٩٨٢. لم تقبل أن نصوّر معها، فسجّلنا لها صوتها فقط. قالت الأمّ: «في سنة ١٩٨٢ كنت مع زوجي في البيت، لم أكن أعرف ما يدور داخل المدينة، كلّ الناس سجناء في بيوتهم، في ٢ شباط دخل رجال الأمن إلى بيتي، كان زوجي يحمل راديو، ويسمع الأخبار. كان يريد للعالم أن يعرف ما يحدث في حماة، رجال الأمن ظلّوا يضربون زوجي على رأسه بالراديو

حتى قتلوه أمامي. ابني كان في الثانية عشرة. الضابط قال: اقتلوه، وأنا رميت نفسي على رجلي الضابط ليترك ابني يعيش، وقرأتُ على جيب سترة الضابط مكتوب «فرقة الموت». قُتل ابني أمامي، فبقيت أنا واثنتين من بناتي الصغيرات في البيت وابني الصغير، وبقي رجال الأمن والضبّاط حوالى أسبوعين، كلّ ساعتين يقومون بمداهمة البيت عبر دوريّة جديدة، ليس بيتي فقط، بل كلّ البيوت. كانوا يضربون الناس في البيوت. كانت الكهرباء مقطوعة ولا يوجد ماء، وحينها ماتت الناس من الجوع. كانوا يأتون ليسألوا عن البنات، يخرجونهنّ من المنازل إمّا يغتصبونهنّ أو يقتلونهنّ، وأحيانًا كانت البنات تُغتصب ثم تُقتل، هناك بنات رشّشن على أجسادهنّ بنزينًا وكنّ ينتظرن في حال جاء الجنود والضبّاط، لاغتصابهنّ كي يحرقن أنفسهنّ. إحدى النساء الجميلات كانت حاملاً، الضبّاط اغتصبوها ثم أحرقوها، لم يكن هناك من رجال، قتلوا في أسبوع بين ٣٠ و٤٠ ألفًا في حماة. كنت أسكن في بيت مبني من الخشب وكانت الحارة كلّها مبنيّة من الخشب، أحرقوا الحارة كلّها، وكنّا نرمي أنفسنا من الشرفات. رميت بنفسي مع طفلي ذي الأشهر الخمسة من البناء، كنت في الطابق الثاني، بعض النساء كنّ يرمين بأثاث المنزل، كان الجيش والأمن قبل ذلك قد وضع الصورايخ على بناء ليدمّروا حيّ الكيلاني، وهذا الحيّ كان من أجمل أحياء الشرق».

يتابع الصديق الصحافي الحديث بعد وقفة تأثّر، كان يروي لي الحادثة على لسان الأمّ التي التقاها في حماة، وأنا كنت أشعر أنّي في قلب هذه الأمّ، أفكّر بالرعب الذي يستولي عليّ عندما أتذكّر تهديد الضابط باغتصاب ابنتي، لم يقلها بشكل واضح لكنّه لمّح بالأمر. أفكّر بالأمّ، حرقة مالحة عبرت عينيّ، وشعرت أنّي على وشك الانفجار، لكنّي طلبت منه أن يتابع الحديث. قال: أنا صعدت إلى البناء الذي

دلّتني عليه المرأة، ورأيت المظاهرة، ووقفت حيث نُصبت الصواريخ التي حدّثتني عنها وقصفت حيّ الكيلاني سنة ١٩٨٢. في حماة الآن، لا يوجد كهرباء أو ماء، وخصوصًا حيّ الكيلانيّة الذي كان يومًا مقبرة جماعيّة، حيث دُفن الناس في مجزرة حماة تحت بيوتهم، التي هدّمتها صواريخ حافظ الأسد ورفعت الأسد.

من يذهب إلى حماة يشعر أنّه ذاهب إلى جرح كبير، وكانت هذه المرّة الأولى التي أزور فيها المدينة، القدر يجعلني أزور مدينة لأبحث عن الفجائع، المدينة فجيعة كبيرة، لا يوجد إنسان في حماة إلّا وفقد شخصًا، الكلّ يتامى من جهة الأب أو الأمّ أو العمّ أو الخال. كلّ تفاصيل حماة لها علاقة بالموت والقتل. عشت في هذه الفجيعة أربعة أيّام، رأيت حماة تسير بالعكس، في كلّ هذه الأيّام كانت هناك تظاهرات ضدّ النظام، حتى الأطفال يخرجون يقولون: «الشعب يريد إسقاط النظام». هناك التقيت بقيادات الكتل والتنسيقيّات، كان الأهالي يقومون بحمايتنا. في يوم الخميس التقينا بقيادات كتلة أحرار حماة، واتّفقنا أن نبثّ مباشرة للتلفزيون من حماة، كانوا يخطّطون لكلّ شيء، ويعملون على إنجاز علم للبلاد طوله ٢٩٠٠ متر، وطبعوا على المظلّات كلمة: «ارحل» و«الشعب يريد إسقاط النظام»، وعلى القبّعات أيضًا، ونسّقوا من أجل جلب مياه للمتظاهرين، وكانوا شبابًا عاديّين بسطاء، ليس لديهم أيّ توجّهات دينيّة متشدّدة، ورأيت منهم علمانيّين. هذا ما رأيته بأمّ عيني. طلبنا أن نلتقي بالشيوخ فرفضوا، لم يقبلوا أن يتحدّث أيّ شيخ عن حماة، الشيوخ قالوا: «إنّهم لا يمثّلون حماة، الناس تمثّل حماة، حتى لا يستغلّ الإعلام الرسمي السوري هذا الأمر». كتلة أحرار حماة هي مجموعة ناس لها نفوذ كبير على الأرض تشبه التنسيقيّات ولكن لا علاقة تجمعها بالتنسيقيّات. عندما بدأت الانتفاضة في حماة

خرج للتظاهر ٣٠٠ شخص فقط وكانت مطالبهم شبيهة بمطالب كلّ المدن السوريّة، خرجوا ثلاث أو أربع مرّات واعتُقلوا وعُذّبوا، قبل جمعة أطفال الحرّيّة خرجوا بأعداد كبيرة، وفُرزت قيادات على الأرض ونشط الشباب. في جمعة أطفال الحرّيّة حدثت مذبحة وقُتل حسب ما أخبرني الشباب في حماة حوالى ١٢٠ شخصًا، قالوا في الإعلام حوالى الستّين أو السبعين فقط، والجيش والأمن هو من قتل الناس. صنعوا كمينًا، المتظاهرون اقتربوا من قوّات حفظ النظام الذين كانوا يحملون تروسًا ويضعونها أمام وجههم، وعندما اقترب المتظاهرون منهم، أزاحوا التروس وظهر فجأة مسلّحون وأطلقوا النار على المتظاهرين، وهذا الأمر تمّ في أكثر من موقع تظاهر. هناك امرأة أخبرتني أنّ أحد الضبّاط رفع طفلاً من شعره، وجعله على مستوى نظره، ثم أطلق النار عليه، ورماه على الأرض!

دخلوا الحارات في يوم جمعة أطفال الحرّيّة واقتحموا البيوت واعتقلوا الناس وضربوهم، بعد هذا اليوم صارت حماة تخرج كلّها للتظاهر، كان يخرج حوالى نصف مليون متظاهر، وكانوا قد أقالوا محمّد المفلح رئيس فرع الأمن العسكري، وعيّنوا محافظًا جديدًا، وبقيت حماة حتى ٢ تمّوز مدينة مستقلّة، وكان هناك خبر يقول إنّ هشام بختيار ذهب منذ ١٢ يومًا إلى حماة، وهذا يعني أنّ أهالي المدينة يعرفون أنّ أمرًا ما يُعدّ لهم، ويسمّيه النظام الحلّ الأمني، وكان أهالي حماة يعرفون معنى ذلك.

أُقيل محافظ حماة، الذي كان الناس يخرجون في عهده دون أن يقترب منهم الأمن، وأُعيد محمّد المفلح إلى منصبه في الأمن، وكان يوم «جمعة إرحل» آخر يوم للمحافظ. أخبرني أهالي حماة أنّه في يوم ٢٥ من الشهر السادس جاء وفد من الشيوخ العلويّين، وهذه المرّة تحت

إشراف هشام بختيار وهو أمر افتعلته السلطة، ليبدو أنّ ما يحدث في حماة هو فتنة طائفيّة. شيوخ العلويّين جاؤوا إلى الشيوخ السُّنّة في حماة وقالوا لهم: «نحن وأنتم إخوة، وما في داعي نذبح بعض» الوفد الآخر من حماة وكان من بينهم رجل مسيحي، قال لنا إنّ هذه المسألة مفتعلة، لأنّ وفدي المشايخ كانا مقرّبين من الأمن والمسيحيّين، وأضاف: «أنا انسحبت لأنّه كانت هناك محاولات لتكبير المسألة وطغيان القضيّة الطائفيّة عليها، على المستوى الشعبي تمّ تجاهل هذه الحركة»، واستمرّت التظاهرات.

أنا أعرف حركة رجال الأمن، بعد التظاهرات يقومون بقتل الناس من العلويّين والسُّنّة، ويأتون بالمشايخ العلويّين والسُّنّة ليوحوا إلى الرأي العامّ أن ما يحدث فتنة طائفيّة، لذلك لم أستغرب حديث صديقي الصحافي عن هذا الأمر. يتابع الصحافي قائلاً:

لقد رأيت بأمّ عيني رجلاً يتحدّث على الميكرفون بين جموع المتظاهرين: «أنا علوي وأنا ضدّ النظام، القضيّة ليست طائفيّة النظام سيقلبها فتنة»، والناس ردّدت وراءه: «واحد واحد واحد. الشعب السوري واحد». الناس في حماة كانت منظّمة، بالنسبة لي كانت الحياة جميلة ورائعة، من دون أمن ومن دون شرطة. كان الناس هم شرطة المرور، وهم من نظّف الساحات والشوارع وعندما انتهت المظاهرة النصف مليونيّة، كان الناس ينظّفون الساحة وكأنّها بيتهم، كانوا يحملون أعلام الاستقلال وعلم سورية الحالي، وكتبوا لافتة كبيرة كتبوا عليها: «شكرًا تركيا شكرًا فرنسا». أحد الرجال كان يتحدّث عن مجازر حماة في سنة ١٩٨٢ وكان يقول لنا: أخرج للتظاهر حتى لا يعيش أولادي في الذلّ واليتم اللذين نعيش فيهما، أنا قُتل والدي في ٨٢. كنّا في السيّارة نلفّ في شوارع حماة، وكان أحد الشباب الذين يحموننا هو من يتحدّث

إلينا، يتابع: حافظ الأسد قتل أبي وجدي وعمّي، وهناك حيّ في حماة اسمه حيّ الأرامل، سُمّي بذلك بعد ٨٢ لأنّهم قتلوا كلّ الرجال فيه. رأينا نساء من حيّ الأرامل وحدّثننا بالكثير من القصص، يقع الحيّ جنوب الملعب البلدي، عندما ذهبنا إلى المقبرة، رأينا الكثير من القبور المفتوحة، الحمويّون قالوا لنا إنّهم يحفرون قبورهم قبل أيّام الجمعة وينتظرون، صوّرنا المقابر وذهبت في الليل يوم «جمعة إرحل» إلى بيت عائلة شهيد، لم يقبلوا في البداية أن يتحدّثوا، كانوا خائفين على أولادهم الباقين، ذهبنا إلى عائلة ثانية هم ثلاثة إخوة، الأخ الأوّل مات في شباط ٨٢ والثاني مات في ٣/٦/٢٠١١ صوّرنا الأخ الوحيد الباقي على نهر العاصي، وكان يتظاهر في «جمعة إرحل» وهو يقول، إنّه لا مشكلة لديه بعد الآن مع الموت، فعلاً من يذهب إلى حماة فهو كمن يسير في جنازة. وجنازة تسير بالعكس، نحو المستقبل، وليس نحو المقبرة. أحدهم كان يبكي ويقول لنا: كلّ الأشخاص الذين التقينا بهم عاشوا مجزرتين، حماة مرّت في ثلاث مجازر ٦٤ و٨٢ و٢٠١١. يروي لنا: في ٨٢ كان عائدًا من حلب إلى حماة في سيّارته. أوقفه حاجز أمني على الطريق، قال رجال الأمن: كلّ حموي ينزل. السائق أعطى الحاجز هويّته بدلاً عن هويّتي، وكان من مدينة حمص، الحموي الذي يجلس في الخلف نزل. فورًا أطلقوا النار على رأسه ومات، فوقع فوق كتلة من الجثث، وأنا تمّ إنقاذي بهذه الطريقة. كان يبكي وهو يخبرنا بالحادثة. كانت زوجته تستمع إليه في الغرفة الأخرى خائفة، لأنّ عائلتها كلّها قُتلت أمامها، في ٨٢. كنت أشعر أنّي لأوّل مرّة أعيش سورية المستقبل، سورية الحرّة التي لا تعرف الخوف، الأيّام الأربعة التي عشتها في حماة وكانت تخرج فيها التظاهرات كلّ بضع دقائق رغم ذاكرة الموت الكبيرة التي عاشتها المدينة. أثناء جلوسنا فوق القلعة قلت لصديقتي: حماة

بتوجع، لم أكن أتخيّل أنّي سأعيش مدينة بهذه الطريقة. حزن كبير على شكل مدينة، لكنّ حماة مدّتني بالقوّة).

ينتهي حديث الصحافي الشابّ، وأحاول رصد أحداث هذه الجمعة، بعد أن انتهى النهار. ولكنّي بدلاً عن ذلك، أستمع لأغنية إبراهيم القاشوش الذي ذبحه رجال الأمن واقتلعوا حنجرته ورموه في العاصي، كنت أريد سماعها بعد أخبار حماة المحرّرة، كيف يمكن لوحشيّة أن تعبّر عن نفسها بأكثر من ذلك، شابّ يغنّي ضدّ بشّار الأسد وعائلته، فيذبحونه ويقتلعون حنجرته، تقول كلمات الأغنية:

يا بشّار مانك منّا، خود ماهر وارحل عنّا، وشرعيتك سقطت عنّا.. ويلّا إرحل يا بشّار يا بشّار ويا كذّاب، وتضرب إنت وهالخطاب، الحرّيّة صارت عالباب.. ويلّا إرحل يا بشّار يا ماهر ويا جبان، ويا عميل الأميركان، الشعب السوري ما بينهان.. ويلّا إرحل يا بشّار يا بشّار وطزّ فيك، وطزّ باللي بحيّيك، والله قرفان طلّع فيك.. ويلّا إرحل يا بشّار ويا بشّار حاجه تدور، ودمّك بحماة مهدور، وخطأك مانو مغفور.. ويلّا إرحل يا بشّار لسّع كلّ فترة حرامي، شاليش وماهر ورامي، سرقولي أخواتي وأعمامي.. يلّا إرحل يا بشّار.. يا بشّار ويا مندسّ، وتضرب إنت وحزب البعث، وروح صلّح حرف الإس.. ويلّا إرحل يا بشّار..

٢٠١١/٧/١

«جمعة إرحل»

أصوات سيّارات الإسعاف تزعق بين الفينة والأخرى تحت بيتي المطلّ على تقاطع شارع الحمراء والشعلان وحيّ الروضة. الشوارع خالية، وشمس حارقة. أتابع على الإنترنت والتلفزيون هذه الجمعة، ومثل كلّ جمعة، أجلس أنتظر الحزن. كيف ينتظر الإنسان الحزن، لا نعيشه هنا فقط، نحن ننتظر الحزن والموت والسجن، صار الحزن والموت والسجن جزءًا من يوميّاتنا، مثل الماء والهواء الذي نتنفّسه، وأنا أسمع أصوات سيّارات الإسعاف. كنت أحاول معرفة الجهات التي يتّجهون إليها. كانت الأخبار التي تأتي من برزة أنّ هناك جرحى وقتلى، وأنّ هناك أصوات إطلاق نار كثيف في حيّ الميدان الذي خرجت الناس فيه من ثلاثة جوامع، وفي كلّ زعيق سيّارة، تنقصف ركبتاي، أفكّر بدم يسيل في شوارع دمشق، .وبوجوه المتظاهرين تحت الشمس. أذكر في بداية حركة الاحتجاجات أنّي ذهبت إلى جبلة سرًّا دون معرفة أهلي،

لبست ثيابًا مختلفة: فستانًا طويلاً، ونظّارات سوداء ووضعت غطاء رأس. وبمعونة صديقة استطعت دخول الأحياء القديمة في جبلة التي أدخل إليها وأنا على حافّة الموت، الموت من كلّ الجهات، من كلّ النيران. لو أمسك بي غالبيّة العلويّين في حارات المتظاهرين، لربّما قتلوني، ولو عرف بي المتطرّفون من السُّنّة، لربّما فعلوا الشيء نفسه، ولو شمّ رجال الأمن والبعثيّون خبر وجودي لشنّوا حملة عسكريّة على الحيّ، ولقالوا إنّ عصابة مسلّحة كانت هناك! لكنّي دخلت كزائرة قريبة لإحدى العائلات وبهويّة مزوّرة، كان اسمي كفيلاً بمشكلة، بعد أن أُهدر دمي. الصديقة أدخلتني إلى بيت أحد الصيّادين، والرجل الفقير الذي لم يكن يكسو بيته سوى أريكة قديمة ومهترئة، ورائحة نظيفة تفوح من البيت المكوّن من غرفة واحدة، عدا الأريكة، كان هناك أغطية وفرش ووسائد مكدّسة تصل حتى باب الحديد الذي يصدر أزيزًا حادًّا عندما يفتح. أخبرني الرجل عمّا يفعله رجال الأمن وبعض البعثيّين في ميناء جبلة، وعن ممارسات الشبّيحة ضدّهم. كان حديثًا طويلاً يحتاج لصفحات كثيرة، سأفرد يومًا لها ملفًّا خاصًّا، لكنّي جلست معه ساعتين وخرجت وأنا أشعر بالغضب، كيف يجرؤ آدمي على مقاسمة هؤلاء الفقراء الذين بالكاد يقتاتون من البحر القليل، كيف يقاسمونهم ما يبقي بطونهم الخاوية على قيد الحياة؟ الرجل كان أربعينيًّا ولديه ثلاثة أولاد، يلعبون في الشوارع، زوجته محجّبة، وهو شبه أمّي، لكنّه يخرج للتظاهرات قال لي: «بدنا يخلّونا نعيش، ما بدنا أكتر من هيك».

هذه ثورة كرامة للناس، هذه انتفاضة شعب مقهور يريد التحرّر من ذلّه، هكذا بدأت حركة الانتفاضة في سورية. رأيت هذا بين الناس الذين التقيتهم في البداية قبل أن أمتنع عن الحركة بين المدن السوريّة وقبل أن تطلق الأجهزة الأمنيّة والشبّيحة والبعثيّون سعارهم ضدّي، الآن

أعود لتذكّر ذلك اليوم، أسمع عن مقتل اثنين في حمص، ها هي الدماء تبدأ ونحن هنا نجلس. في يوم الجمعة يتوقّف نشاطي، لا ألتقي بأحد، أفكّر أن ألبّي طلب الشباب والصبايا، فقد استُجوبوا بخصوصي من قبل رجال الأمن، وأيّ تحرّك لي معهم، يصير تحت الضوء. كان هذا إنذارًا أخيرًا بأنّ قضيّتي خرجت فعلاً من مكتب الضابط الكبير، الذي قال لي بأنّه سيحيل ملفّي إلى الأجهزة الأمنيّة، وسيترك للصغار من الرجال أن ينهشوني. هكذا قال حرفيًا، وبعد ذلك بدأت الأمور تختلف، يبدو أنّه فعلاً قد فعل ذلك، العديد من الأصدقاء صاروا يتّصلون بي ويسألونني الحذر. كنت مطمئنّة قليلاً لأنّ المرحلة التي ينوي النظام افتعالها تشي أنّه لا يريد توريط نفسه باعتقال المزيد من المثقّفين، لكنّي كنت قلقة من اعتقالي في المطار. كنت حريصة على إبعاد ابنتي عن هذا المكان، وعلى أمر آخر بدا لي جنونيًا أكثر من غيره، وهو الهرب من أمام الضابط الكبير الذي لن يكفّ عن التحرّش بي. كنت أريد أن أجد ملاذًا آمنًا في مكان هادئ بعيدةً عن كلّ ما يُحيط بي، لقد انشرخت حياتي وذهبت إلى غير رجعة، وهناك عند تلك النقطة المعتمة حيث وجدت نفسي أسبح في تيّار من اللاطمأنينة قرّرت السفر في أسرع وقت ممكن.

أعود إلى التلفزيون، تظاهرات تنطلق الآن من المدن السوريّة والبلدات ومناطق الريف، في مدينة حماة وحدها يخرج نصف مليون متظاهر، حتى الآن تسعة قتلى في هذا اليوم، تصير الأرقام لعبة، تتحوّل إلى متواليات هندسيّة، وكلمات متقاطعة. في هذه المدينة ثلاثة قتلى، في تلك المدينة، قتيلان، وفي مدينة أخرى قتيل واحد، وكأنّ تلك الأرقام لا تعني أرواحًا وأسماءً لبشر لهم أسماء. يوجعني قلبي، وتعود رغبتي بالتقيّؤ. كانت هذه الرغبة تأتي في أيّام الجمع التي يخرج فيها المتظاهرون ولكن مؤخّرًا وبعد القتل اليومي، أصبت بمرض في معدتي

التي تفرغ كلّ ما في جوفها، وكلّما تقيّأت، فتحت ثلّاجتي وأكلت المزيد، وأنا أتابع ما يحدث بعد أربعة أشهر على بدء الانتفاضة، أفكّر بما حدث وبما يحدث، وما سيحدث. الانتفاضة لن تتوقّف، وتنظيم لجان التنسيق واتّحاد التنسيقيّات يأخذ أبعادًا ذكيّة تدلّ على وعي عميق من شباب قادر على مواكبة حركة الانتفاضة والنهوض بها وضمان استمرارها.

٢٠٠/٧/٣

يجب التحضير للعودة إلى بيتي السابق، ما من ضرورة ملحّة لبقائي في بيت وسط العاصمة يحتاج نصف راتبي الشهري، وقد صار معروفًا للجميع! لا يحتاج الأمر منّي البقاء في الخفاء، فقد صار واضحًا لي أنّهم لن يقوموا باعتقالي، التخويف وتشويه السمعة والترويع، هذا ما فعلوه، وإلّا ما معنى تلك الرحلات التي كان عليّ القيام بها. الرحلات التي أسمّيها: «زيارات الجحيم»، ليست زيارات، ربّما إطلالات على الجحيم، لكنّها تكفي لزرع الجحيم في قلبي. المرّة الثانية التي جاؤوا فيها إلى بيتي، لم يكونوا ثلاثة رجال، كانا رجلين فقط، وكنت حينها قد توقّفت عن الكتابة، أحاول إعادة تدوير هذه اليوميّات، أحاول تذكّر التفاصيل، لكنّها تهرب منّي. الرجلان كانا في غاية التهذيب، واستغربت، حتى أنّهما لا يبدوان كرجال الأمن أو الشبّيحة الذين أخذوني في المرّة الأولى. طلبا منّي بأدب أن أرتدي ملابسي، وأنا رفضت وحاولت الاستفسار، لكنّ أحدهما أومأ برأسه وأشار إلى الخارج. الثاني، قال بثقة: «مدام نحنا عالباب حتى تلبسي تيابك».

أردت أن أضحك، قال «مدام» بلكنة مضحكة وأدار ظهره، وظهر مسدّس أسود على خاصرته، يضعه بين الحزام وقميصه الخمري اللون. كان ظهور المسدّس كافيًا لقول أشياء لم يكن بحاجة لقولها، لكنّ الآخر أضاف: «المعلّم ناطرك». وعرفت ما سيحدث، لكنّ فكرة العودة إلى السرداب المظلم ورؤية أجساد الشباب الممزّقة روّعتني، تمنّيت أن يعتقلوني، ويرموني بين السجناء، وأنتهي من هذا الكابوس، لكنّي كنت أعرف حينها أنّهم لن يفعلوا، كان من الصعب عليهم الإيحاء أنّ هناك معارضة لهم في السجن لشخصيّات معروفة من الطائفة العلويّة. حاولوا طمس هذه المسألة إضافة إلى ثأر شخصي صار واضحًا أنّ الضابط يكنّه لي. حقد أعمى، أفهم سببه، وأعرف من أيّ تعصّب يأتي. سمعت من قريب لحافظ الأسد أنّه عندما استلم الحكم بعد انقلابه العسكري سنة ١٩٧٠ جاء بضبّاط ألمان ليدرّب أجهزة أمنه على خبراتهم، وأعرف أنّ هذا الضابط الذي يستلذّ بتعذيبي هو واحد من الذين تربّوا على يدي ضابط كبير كان التلميذ النجيب لأحد الضبّاط الألمان حينها. فكّرت أنّ حافظ الأسد كان من الذكاء ليستخدم النظرة العصبيّة النازيّة نفسها في تحويل أبناء طائفته إلى مدافعين قتلة عنه، وعن عائلته بالطريقة التي اتّبعها هتلر وجهاز أمنه، لكن لم يخطر للرئيس الأب أنّ طائفته لن تقف كلّها معه، مع ذلك استطاع أن يخلق جندًا من القتلة بين صفوف أجهزته. الكثير من المعلومات التي أعرفها عن هذه العائلة وعوائل أخرى، أفكّر أنّها تصلح لروايات وقصص خياليّة، لغرابتها وفداحتها الموغلة في الظلم.

نزلت مع رجلَي الأمن، كنّا في شارع الروضة عندما وضع الرجل العصابة على عينيّ، وأنا كنت أحاول معرفة المكان الذي سنذهب إليه، دارت السيّارة عدّة مرّات، كانت تدور بشكل دائري وتعود إلى النقطة

نفسها، حينها قلت لنفسي لا بدّ أنّنا لا نزال في منطقة الجسر الأبيض، وهذا ما سمعته من بعضهم، حين أكّدوا لي أنّ مكتب الضابط الكبير في منطقة الجسر الأبيض، ولكن كيف يمكن لهذا السجن الكبير أن يكون في منطقة وسط دمشق ومكتظّة بالناس. قلت ربّما أكون مخطئة ونحن سنتّجه إلى منطقة دوّار كفر سوسة حيث تجتمع أفرع الأمن كلّها، لكنّي لم أستطع تحديد المكان. كانت العصبة مشدودة حول عينيّ، والرجل أمسك بيديّ ووضعهما خلف ظهري وقال بلهجة مهذّبة: «مدام ما تحرّكي إيدك».

مثل الرحلة الأولى، كنت في المكتب نفسه، ولكنّ الضابط الكبير لم يكن هو، كان هناك رجل آخر، يضع رتبة عسكريّة، لم أعرف أن أحدّد الرتبة لكنّي استطعت أن ألمح القسوة في عينيه، وهذا أمر لاحظته أثناء الاستدعاءات الأمنيّة في السنوات الماضية. كلّما ارتفعت رتبة الضابط كان أكثر تهذيبًا، وكلّما انخفضت رتبته كان أكثر توحّشًا. فكّرت أنّهم أرسلوا لي هذا الضابط الأقلّ رتبة ليعذّبني، وحقيقة كنت في نقطة اللامبالاة أمامه، أمارس لعبتي في تحويل التفاصيل إلى رواية، أراقبها لأكون أكثر شجاعة، لكنّ الرجل لم يفعل شيئًا. دخل ثلاثة رجال، كانوا ضخامًا، عيونهم تحدّق بالشرر من حولي، ورموا على الأرض شابًّا عاريًا إلّا من سروال داخلي ملطّخ بالدماء. كان يشبه أجساد الشباب الممزّقة التي رأيتها في المرّة السابقة، لكنّه كان يئنّ، قال لي الضابط: «هذا الشابّ بيقول إنّك بتنظّمي المظاهرات معه». نظرت إلى الشابّ، قلت بهدوء: «غير صحيح، المظاهرات ما بدها تنظيم.. الناس بتنزل من دون تنظيم». اقترب الضابط منّي، ووضع عينيه في عينيّ، وأنا لم أتحرّك، بقيت أحدّق فيه. عناد استولى عليّ، بأن لا يرفّ جفني، قال بما يشبه الفحيح: «والله لأسلخ جلدك عن عظمك يا كلبة»، وأشار

للرجال بيده، فاقترب الرجال الضخام منّي. كنت مثل لعبة صغيرة بين أيديهم، جرّدني أحدهم من سترتي وبقيت في قميص شفّاف بالكاد يغطّي عري صدري، نظر إليّ وقال: «شو مدام، شو رأيك نبلش بالشلح؟»، لم أردّ. وبقيت أحدّق فيه بتلك النظرة القاسية نفسها، الحقيقة أنّي كنت مذعورة، وبدأت أشعر أنّ الشلل يجتاحني من أخمص قدميّ صاعدًا حتى منطقة القلب. لم أحاول النظر إلى جسد الشابّ الذي يئنّ. قال لي الضابط: «عم بيقول كمان إنّو صاحبك!» وأنا بدأت أرتجف. لكنّي بقيت أحدّق فيه، بالطريقة نفسها وصارت عيناي تحرقانني. في واقع الأمر، كنت في حالة عصبيّة سيّئة، قبل مجيئي، كنت أمرّ بنوع غريب من الانفعالات. حالات بكاء تصيبني في الليل، صور الجثث المعروضة على التلفزيون تأتي إليّ في الحلم ضاحكة، صورة ابنتي مذبوحة من الوريد إلى الوريد، وألوان غريبة تطلع أمام عينيّ وأنا في صحوي. كان كلّ خبر عن قتل كفيلاً بهزّي من الأعماق. كانت رؤية دبّابة تجعل أعصابي تهتزّ، رؤية حاجز أمني، وتلك الهراوات والجماعات البشريّة التي تنقضّ على الناس بالضرب، لم أكن أحتمل كلّ هذا، لذلك عندما جعلني شبه عارية من الأعلى، بدأ جسدي يرتجف، أخمّن أنّ لون وجهي استحال إلى أزرق، وشعرت بأسناني تصطكّ، وبقيت أحدّق فيه. كان جسدي الخطّ الذي لا يمكن المهادنة معه، كنت على علاقة مباشرة وواضحة إلى درجة لم أكن أعرفها قبل هذه اللحظة، فأنا سيّدة نفسي ومالكة جسدي، جسدي المُقرّر للحبّ فقط، الحبّ فقط هو ما يجعله مطواعًا، وغير ذلك فهو حجر أبكم وأصمّ، واستباحته بهذه الطريقة، وأنا مربوطة برجلين يحكمان الشدّ على ظهري، جعلني أرتجف أيضًا. حدّق في عينيّ، انفصلت الآن عن لعبتي في التخيّل، صار من الصعب عليّ ممارستها، بدأت أسمع دقّات قلبي، وشعرت أنّ حبالاً ترتطم في

رأسي. اقترب منّي أكثر، وكنت أجهّز أسناني للعضّ في حال اقترب منّي. أشار للرجلين برأسه، وعندما اقترب أحدهما، صرخت، وشعرت أنّ سكّينًا حادّةً تفصل رأسي شقّين. كانت لحظات قليلة، لأنّ الرجلين ابتعدا، وأنا هويت ببساطة فوق جسد الشابّ الذي يئنّ، ارتطمت به، وأطلق صرخة عالية، لن أنسى وقعها ما حييت، كانت آخر ما سمعته قبل أن أفقد وعيي وأشعر أنّ رأسي شُقّ إلى نصفين.

عندما استيقظت وجدت الضابط الكبير نفسه، الضابط الذي استقبلني بداية اختفى، وكنت شبه ممدّدة على الأريكة بملابس كاملة، وأشمّ روائح دم، سأعرف لاحقًا أنّ دماء الشابّ بقيت على رقبتي حتى عدت إلى بيتي، ورأيتها واضحة في المرآة. الضابط الكبير قال: شفتي ما أقساهم على بنت رقيقة مثلك! ونظر إليّ بسخرية. أغمضت عينيّ. كان الصداع يقتلني، وما زلت أشعر بوجود سكّين تشقّ رأسي نصفين، قال: خلّي معجبينك يجوا يشوفوا البنت القبضاي! وأطلق ضحكة مجلجلة.

أنا كنت في حالة إغماء، لا أعرف ما يحدث، لكنّه فجأة أنهضني، كانت الأرض تلفّ بي، فسقطت مرّة أخرى، ثم سمعت صوته يصرخ بهم أن يعيدوني إلى بيتي. مرّ حذائه بالقرب من عينيّ وأنا على الأرض. لن أنسى تلك اللحظة، سأظلّ أذكرها محفورة في عقلي، كان حذاؤه لامعًا، وعصريًا، لكنّه مفلطح، رأيت أنّ قدمه مدوّرة، احتكّ حذاؤه بأرنبة أنفي وخرج، حينها أيضًا أغمضت عينيّ وبكيت.

أستعيد تلك الزيارة الجحيميّة وأنا أستعدّ للانتقال والعودة إلى البيت. ابنتي غاضبة، كنت أعي صعوبة حالتها، فالعودة إلى بيت جدّها مستحيلة، العلويّون الذين يتعاملون معي كخائنة لن يتركوها بحالها، وفي بانياس حيث يعيش أبوها، كان الوضع أكثر سوءًا، وكانت ستتعرّض

لمتاعب أكثر صعوبة، بعد فبركات الأمن السوري ومواقعه الإلكترونيّة التي حضّت على قتلي بتهمة تحريضي على قتل أحد القنّاصة، كنت أصمت عن غضبها، وأحاول تخفيف الأمر عنها، لكنّ جسدي صار منهكًا، لدرجة أنّي وعندما كنت أرتّب أغراضي للعودة إلى البيت، صرت أتعرّض لنوبات إغماء متكرّرة، ليس هذا بسهل عليّ، خاصّة أنّ أمّي مريضة ولا يمكنني زيارتها والاطمئنان عليها. لقد أغلقتُ هاتفي، واستعملت هاتفًا جديدًا، حتى لا يتمّ الوصول إليّ، قطعت كلّ ما حولي من صلات، لكنّ الأمر بالنسبة لابنتي كان مستحيلاً، كانت خطّتي أن أتخفّى وأعمل مع الشباب والصبايا، حتى يسقط النظام، كان هذا مستحيلاً بوجودها، لا مجال للتخفّي وهي تعيش معي، ولا مجال أمامي لتركها لمصير أسود، أنا في نقطة اللاعودة واقفة مثل حجر أصمّ، فكرة السفر هي الصورة المثلى لموتي، كانت الفكرة تلحّ وتصير أمرًا واقعًا، لكنّ مجرّد التفكير أنّي سأغادر دمشق كان يصيبني بالهلع.

أجلس اليوم أيضًا لأدوّن بعض المشاهدات التي سجّلتها من الأصدقاء، أحاول تأجيل تنفيذ القرار بالخروج من سورية.

حكايات اللاذقيّة (١)

في يوم المجزرة ٢٦ آذار في اللاذقيّة كنّا نعود أنا وأخي ليلاً من المحلّ الذي نشتغل به، وكان طريقنا إلى البيت يمرّ بحيّ الصليبة، رأينا حواجز للجيش والأمن، فطلبوا منّا العودة لأنّ أمامنا مظاهرة، لم نعرف إن كانوا من الجيش أو الأمن العسكري لأنّهم يرتدون تقريبًا اللباس نفسه. لم تكن المظاهرة بعيدة عنّا، وفي الليل تبدو عن بعد غير واضحة. غيّرنا الطريق لأنّ المرور ممنوع، لكنّ الفضول جعلنا أنا وأخي نقترب، ونأخذ إحدى الزوايا التي لا تبتعد عن المظاهرة. المتظاهرون

لم يكونوا يحملون أيّ سلاح وكانوا يهتفون «سلميّة»، ويهتفون للحرّيّة. طلب الجيش والأمن من المتظاهرين الرجوع، أبعدوهم ٥٠٠ متر. كان تواجد الجيش كثيفًا ويشكّل مع الأمن حاجزين متلاصقين، عندما ابتعد المتظاهرون قليلاً، انبطح فجأة الصفّ الأوّل من الجيش أرضًا، كانوا عشرين عسكريًّا، وبقي الصفّ الثاني واقفًا، فوجئنا بإطلاق نار كثيف على المتظاهرين بشكل مباشر وكأنّ الجنود في حقل رماية. أنا رأيت أكثر من ٥٠ متظاهرًا يسقطون بين جريح وقتيل، ولم أستطع التمييز بين القتلى والجرحى. أخذوا الجرحى بشاحنات وأخذوا القتلى إلى جهة غير معروفة، أنا وأخي لم نكن مرئيّين بالنسبة لهم، كنّا في العتمة وفي زاوية الشارع، لو رأونا لقتلونا. السيّارات التي أخذوا القتلى فيها كانت من نوع سوزوكي وانطلقت بسرعة، ثم جاءت سيّارات الإطفاء ورشّوا مكان القتل بخراطيم مياه، وأزالوا الدماء، وخلال ساعة عاد الشارع كما كان. الشيء الغريب أنّ إطلاق النار كان بشكل مباشر وعلى مسافة قريبة وفي الرأس وفي الصدر.

أنتهي من تدوين الحادثة وأفكّر بالغدر الذي تعرّض له المتظاهرون، الغدر الذي كان السمة الأساسيّة التي تعامل بها النظام السوري مع شعبه، لقد طلبوا منهم الابتعاد ٥٠٠ متر، وكان القتلة يحتمون بظهور الصفّ الأوّل من رجال الأمن، ثم أطلقوا النار، أيّ خسّة هذه! أيّ وضاعة أن يُقتل الناس العزّل المسالمون بهذه الطريقة الجبانة. عندما كنت أقوم بتدوين الحكايات، عن الانتفاضة، كنت أستمدّ قوّتي منها.

حكاية (٢)

في المظاهرات الأولى في اللاذقيّة خرج العلويّون مع السُّنّة. عند

جامع عمر بن الخطّاب في شارع أنطاكيا، كنّا بالمئات وكنّا مصرّين على سلميّة التظاهرات ورفضنا أن يحمل أيّ متظاهر حجرًا، وهتفنا «سلميّة سلميّة لا علويّة ولا سنّيّة»، بعض الشخصيّات من الطائفة العلويّة كانت في المقدّمة. وعند تمثال الشيخ الضاهر اعترضنا الشبّيحة، وبدأوا يشتمون وضربونا بالحجارة. وحتى تلك اللحظة لم يحدث أيّ احتكاك، أثناء ذلك كان هناك من أخبر جماعة حيّ الصليبة والسكنتوري بأنّ العلويّين يقتلون السُّنّة، وأظنّ أنّه أحد الشبّيحة، أو أعوانهم في الصليبة، فوصل من الصليبة والسكنتوري مجموعة من زعران هذه الحارات وكسّروا المحلّات وصار هناك إطلاق نار كثيف، وسقط ٤ قتلى. لم يقترب رجال الشرطة والأمن من الناس، وبقوا يهتفون «حرّيّة حرّيّة» حتى ظهر رجال ضخام الجثّة مفتولو العضلات جميعنا نعرف بأنّهم شبّيحة وهم من أطلق النار. وهذا كان قبل مقتل المتظاهرين الأربعة، حيث استلّ جماعة الصليبة والسكنتوري سكاكينهم، وبدأوا بضرب الشرطة بها، رأيتُ كيف كان اللحم يكشط بالسكاكين.

التوتّر الطائفي ظهر كثيرًا بين بانياس وجبلة واللاذقيّة، كان الشبّيحة يحرّضون عبر الذهاب إلى أحياء السُّنّة والمرور بينهم وتوجيه شتائم طائفيّة لهم، وكانوا يجدون آذانًا صاغية من بعض الناس، فيردّون بهتافات طائفيّة أيضًا. الذي حدث أنّ رجال السكنتوري والرمل الفلسطيني وحيّ الصليبة كانوا يضربون بسكاكينهم من يرون ولم يفرّقوا بين رجال الأمن أو المتظاهرين. أستطيع أن أؤكّد لك أنّ الأمر لم يكن طائفيًّا، لأنّي رأيت بأمّ عيني رجلاً من الطائفة العلويّة في بداية حركة الاحتجاج يقف ويخطب بين المتظاهرين ويقول: أنا علوي وسأشارك في التظاهرات، أنا ضدّ النظام. لقد شرّدني من بلدي لسنوات طويلة، نحن كلّنا أمّة واحدة.

تنتهي شهادة الرجل هنا، وأعرف في أعماقي ما تعنيه هذه الكلمات، فهذه الشهادة كانت من بين عشرات الشهادات، التي جمعتها حول مشاركة بعض الناس العاديّين، من العلويّين في بداية حركة الاحتجاجات، وكيف تمّ قمعهم بطريقة وحشيّة من قبل النظام ومؤيّديه.

حكاية (٢)

هذه الحادثة رواها جار لي، وهو متطوّع في الأمن، يقول: أثناء حصار مدينة جسر الشغور، كان القصف عنيفًا، واختلطت الأمور فيما بينها، ولم أعد أعرف ما الذي عليّ فعله، فجأة كنت وحيدًا وسط الخراب، وبقيت أركض وأنا أحاول إخفاء هويّتي، كان لديّ يقين بأنّ أهالي جسر الشغور إذا قبضوا عليّ سوف يقومون بقتلي. كنت مؤمنًا بوجود عصابات مسلّحة، وأنّهم يريدون ذبحنا وقتلنا. دخلتُ أحد الأزقّة وأنا أحاول النفاذ بين الطرق، رأيت رجلاً، وأخفيت عنه من أكون، لكنّ الرجل عرف أنّي غريب، كان ملتحيًا، ويعلوه الغبار، ويحمل كيسًا بيده، اكتشفت لاحقًا أنّه ينقل بعض الأطعمة لعائلته. وقفت أمامه، كنت مُصابًا في قدمي، ولا سلاح معي، وكنت أعرج، اقترب منّي وقال: أنت من رجال الأمن؟ فقلت نعم. وانتظرت أن أموت. قال بهدوء: إلحق بي. لحقت به. دخلت بيته، كانت هناك غرفة فارغة، مسح جرحي، ووضع بعض الأربطة، ونظر إليّ قائلاً: نحن لسنا وحوشًا. أعرف أنّك أيضًا لست قاتلاً. خرج وعاد بعد قليل، كان معه رجل، تناقشا فيما بينهما، قالا إذا بقيت هنا قد تتعرّض لانتقام الأهالي، وهذا أمر مستبعد لكنّك لن تكون هنا بأمان، ما رأيك أن تعبر الحدود على أساس أنّك ابن عمّي؟ وكنت مدهوشًا، حين ناولني هويّته وقال: بإمكانك أن تعبر بها حتى تؤمّن نفسك، ثم ترسلها لي لاحقًا. لم أكن

أعرف ماذا سأقول له، لكنّه أنقذني أوّلاً، وهو يريدني أن أنجو بنفسي وهو كان سيبقى في جسر الشغور. قال لي إنّه سيلحق بي بعد بضعة أيّام، وأعطاني رقم هاتف لأتّصل به. أنا لم أعبر الحدود، قاموا بإيصالي إلى مكان آمن، وعدتُ إلى اللاذقيّة، أعطيته هويّة ابن عمّه، وشكرته، وعندما عدت إلى بيتي وسألوني ما الذي حصل معي، قلت لهم ببساطة: فقدت وعيي ووجدت نفسي فجأة في مكان لا أعرفه.

الرجل الذي روى الحادثة، ترك بيته واختفى ولم يعد يراه الجيران، الجيران قالوا إنّه قُتل، لكنّي أعرف أنّه اختبأ خوفًا من أن يقوم رجال الأمن بقتله، لقد قال لي بالحرف: لن أشارك بعد الآن بما يحدث، هؤلاء الناس كانوا طيّبين معي وأنقذوني، رغم أنّ الرجل الذي أعطاني هويّة ابن عمّه كان من جماعة الإخوان المسلمين.

حكاية (٤)

رجل من الأمن العسكري في مدينة اللاذقيّة جاء وقال للعلويّين في حيّ الحمّام قرب بسنادا، إنّ السُّنّة هجموا على بناتكم في مدرسة «قنينص» فانتفض الأهالي وهجموا على المدرسة خائفين مذعورين، صارت هناك جلبة كبيرة واجتمعت عشرات السيّارات وأحاطت بالمدرسة، وحمل الأهالي العصيّ وهجموا بشكل وحشي واقتحموا المدرسة وصرخت البنات، وهرب جهاز التدريس، ولكنّ أحدًا من السّنّة لم يكن في المدرسة، بعد ساعات من الاحتقان والصراخ والتضارب بالعصيّ بين الأهالي وبعض المدرّسين، عاد الأهالي ببناتهم، فخرج أحد أهالي البنات بعد أن عاد بابنته إلى البيت وهو يغلي بالغضب، قال لرجل الأمن الذي كان يرابط مع مجموعة من الشبّيحة في مدخل الحارة: «هذا ليس صحيحًا، ولا داعي لتخويف الناس» فأحاط به رجال

الأمن والشبّيحة وصاح به الرجل صاحب الإشاعة: «ادخلوا بيوتكم أحسن ما أعتقلكن كلّكن».

حكاية (٥)

أحد المواطنين في اللاذقيّة كان عائدًا من بيت خطيبته، أوقفه حاجز عسكري، تنمّروا عليه، نزل من التاكسي، وحلف لهم بأعظم الأيمان أنّه لم يشارك في المظاهرة لكنّهم ضربوه بشكل عنيف وشتموه، فقالوا له: «أنت ما بتحبّ الرئيس يا كلب» فردّ عليهم غاضبًا: «أنا لا أحبّ الظلم، ولكنّي أقسم بالله أنّي ذاهب لبيت خطيبتي»، أوقعوه أرضًا ودعسوه، وضربوه في الشارع، ثم اعتقلوه، في السجن عذّبوه بشكل عنيف، فاعترف لهم بما يريدون تحت التعذيب، وهو ما يزال حتى الآن معتقلاً.

حكاية (٦)

في الحفّة، يُقتل عبد القادر السوسي، وهو سنّي، ويُرمى في ضيعة الزوبار العلويّة، وكان هذا الرجل معروفًا بانفتاحه واستقامته وعلاقته الطيّبة بالعديد من أبناء الطائفة العلويّة. بعد اكتشاف جثّته اجتمع مشايخ العلويّين ومشايخ السُّنّة وتبرّأوا من عمليّة القتل، ولم تحدث فتنة رغم الحادثة. أحد سكّان الحفّة أكّد أنّ الشبّيحة قتلوه ورموا جثّته في ضيعة العلويّين ليتقاتل الناس فيما بينهم. كان الشبّيحة يقتلون، والناس العاديّون يتعالون على الجراح، ومع ذلك حدثت بعض المشاكل الطائفيّة بعد اكتشاف مقتل السوسي، لذلك اجتمع أهل قرية الزوبار، وذهبوا إلى الحفّة، وقالوا لأهلها: «إنّنا بريئون من دم هذا الرجل وإذا كان لديكم أيّ دليل على قتلنا إيّاه حاسبونا». لكنّ الأمر انتهى هنا. هذا لا يعني أنّه

لم تكن تحدث حالات انتقام فرديّة، حيث كان يتمّ قتل بعض رجال الأمن أو بعض الناس العاديّين من الطائفتين.

حكاية (٧)

كان رجل يدخل إلى بعض الحارات ويقول: يوجد أحد المندسّين هنا، فيهرع الناس ويركضون وراءه، فيركض ذلك المندسّ المفترض، ويلحق به الناس، يقبضون عليه ويسلّمونه للأمن... في يوم آخر وحارة أخرى يظهر المندسّ نفسه ويُقبض عليه مرّة أخرى، فانتبه الناس نتيجة قُرب الحارات بعضها من بعض، خاصّة حارات العلويّين أنّهم يقبضون على الشخص نفسه. أحد الرجال قال لرئيس مفرزة أمن ساخرًا: «يا عمّي غيّروا المندسّ تبعكم حتى الناس تصدّقكم».

أتوقّف عن تدوين الحوادث التي كان يقوم بها رجال الأمن في اللاذقيّة لإشعال الفتنة الطائفيّة بين الناس، الصديق الذي يزوّدني بالمعلومات يقول إنّ لديه عشرات الحكايات عمّا فعلوه في المدينة. قال لي جملة أخيرة: كانوا يهدمون التعاطف بين البشر ويبنون جدرانًا من الكراهيّة، الأمن والشبّيحة معًا، عملوا بجهد على هذا.

ينتهي حديثه بهذه الجملة، وأنا أفكّر أنّ كلّ هذه الحوارات والشهادات التي أقوم بجمعها لن تكون بديلاً عن ضعف حركتي في الشارع. في لحظة تمنّيت لو أنّي لم أكتب في الصحافة عمّا رأيته، وتمنّيت لو استطعت أن أتحرّك بحرّيّة أكبر، وألّا أكون تحت الضوء المباشر. لكنّي من جانب آخر قلت: كان يجب كسر رواية النظام المجرم عن حقيقة هذه الثورة، هذه ثورة وليست حربًا طائفيّة، ويجب أن يكون صوتي ككاتبة وصحافيّة مع الانتفاضة، مهما كان الثمن.

٢٠١١/٧/٥

أسمع اليوم خبرًا آخر عن اعتقال أحد الشباب الناشطين في الانتفاضة، وهو الشابّ الذي كنت أنسّق معه وأراه بشكل مستمرّ. أشعر بألم لا حدود له، فقد عرفت شباب الانتفاضة، العديد منهم، ولمست أخلاقهم العالية وروحهم الإنسانيّة، وثباتهم وصبرهم على الظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها.

كان هذا الشابّ هو من أرسل لي تحذيرًا قبل أيّام بأنّ الأمن سأله عنّي، وهذا يعني أنّ تحذير الضابط الكبير بأنّه سيتركني للصغار من الأمن قد بدأ، ويقودني إلى الاستنتاج بأنّه يتصرّف بشكل شخصي، وهذا لم يعد مهمًّا، فالشابّ الذي ترك عمله ودراسته في الجامعة وتفرّغ للعمل في الانتفاضة وتنسيق التظاهرات، كان بحاجة لدعم ومساعدة دائمة، وكنت أشعر بالقلق عليه مؤخّرًا، أكثر من غيره. كان شابًّا نبيلاً. وجدت نفسي أبكي في الشارع، كنت أشعر بشعور أمومي تجاهه، وأخشى عليه كثيرًا، لكنّي ببساطة قلت: سيخرج بعد أيّام، بالتأكيد ليس لديهم شيء ضدّه. خاصّة أنّه لم يُعتقل أثناء المظاهرة.

أذهب لعزاء في حرستا، برفقة صديق، قال لي إنّ هناك العديد من الحواجز الأمنيّة، ولكن لا شيء مخيفًا، فالناس تخرج وتدخل، وأنا وضعت على رأسي غطاء ريثما أتجاوز الحواجز. في العزاء لم تكن هناك مظاهر حزن، الغريب في مجالس عزاء الشهداء الذين كانوا يتساقطون في المدن السوريّة، أنّها تتحوّل إلى مظاهرات. كانت الناس تجتمع في العزاء ، وتهتف بإسقاط النظام، أنا انزويت في ركن بعيد، واستمرّت حفلة البكاء. لم أكن أعرف إن كنت حزينة على شبابنا الذي يُقتلون ويتساقطون كالعصافير، أم كنت سعيدة وأنا أكتشف أنّي أنتمي لشعب قوي وحرّ وكريم. لم أتحرّك من مكاني، وهتف الناس. قبّلت النساء جميعهنّ، احتضنتهنّ. كنت أذهب إلى مجالس العزاء بالسّرّ، ولا أريد أن يعرف أحد بأمري. شابّان فقط ساعداني في هذا الأمر، وكان من المفترض أن أكتب حكايات أمّهات الشهداء، لكنّ الوقت لم يسعفني.

في نهاية المساء أعود إلى البيت. كانت عيناي تحرقانني، وقلبي يدقّ بسرعة، وعاودتني نوبات الصفير الحادّ التي تخرج من أسفل رأسي وتستقرّ في أذني. وأنا أصعد الدرج بدأ الدوار ثانية، وبدأ رأسي يتحوّل إلى أرجوحة، أظنّ أنّي أدخّن كمجنونة، كان لا بدّ من متابعة الڤيديوهات التي أرسلها لي أحد الشباب، والتي تظهر كيف تعود جثث الشهداء وهي مشقوقة البطون، ومخاطة بطريقة غريبة. أرسل لي الشابّ يقول لي: «إنّ ما يحدث هو أمر مرعب فعلاً، فقد كانت تتمّ عمليّات سرقة أعضاء حيّة للشباب قبل قتلهم، ربّما وهم تحت التعذيب، وهناك شهادات من أهاليهم». أرسلت له أنّه بالإمكان أن ألتقي بأهالي هؤلاء الشهداء، فطلب منّي التريّث بعض الوقت لأنّهم خائفون، لكنّي تابعت الڤيديوهات. فعلاً كان هناك أمر غريب.

كانت جثث الشهداء مخاطة بهذه الطريقة التي تثبت أنّهم تعرّضوا لعمليّة ما، لم أعرف ما إذا كان الأهالي قد تأكّدوا قبل الدفن إذا كانت أعضاء أبنائهم قد سُرقت أم لا. أرسلت الڤيديو لمجموعة من الأصدقاء في أوروبا والعالم العربي لمتابعة الأمر، لكنّي توقّفت عند هذه المسألة قبل أن أغفو على الأريكة. لا يكتفون بقتل الناس، بل يتاجرون بأجسادهم. يا إلٰهي كيف كنّا نعيش بين هؤلاء القتلة! كيف يسيرون بيننا! عاودتني نوبات الارتجاف، وأنا أفكّر بأجساد أصدقائي الشباب اليافعين وقد مزّقتهم مشارط الأمن المجرمة.

٢٠١١/٧/٧

أخبار القتل تزداد في كلّ يوم، حكايات كثيرة عن اختفاء الناس واختطافهم، عن تعذيب الأطفال، حكايات عن معتقلين، أجلس لأدوّن شهادات شباب صغار في السنّ، بالكاد بلغوا العشرين، أدوّنها كما هي، وفي لغتها العاميّة، فقد وجدتها أكثر طزاجة من الكتابة باللغة الفصحى، كانت إحدى الصحافيّات قد سجّلتها لي:

الشهادة الأولى:

أنا وصغير مرّة جابولي إضبارة قالولي اكتب اسمك ووقّع. سألتن شو هي؟ قالو لي هي لحزب البعث، ولمّا قلتلن شو يعني وليه بدّي وقّع؟ ضربوني. نحنا ربّينا إنّو ما فينا نقول شي ضدّ النظام. إنّو سبّ الربّ وما تسبّ النظام. ممنوع تروح تشتكي وما في شي مصرّحلك.

كبرنا ورحت عالجيش. بالجيش عرفت المهزلة الّي عايشينا أنا من الناس اللي زرعت ألغام على الجبهة. ولمّا صارت الأحداث بيوم العودة اتفاجأت وين اللغم اللي حطّيتو؟ كنت عم قول لرفقاتي ما تقرّبوا في ألغام. وهو ما كان في شي. طيّب كيف؟

خدمت جيش. الجيش كان كتير قذر. أوّل ما منفوت. بيطلع الضابط اللي مستلم مركز التجمّع وقال: الخنازير ع ميل والبني أدمين ع ميل. المعاملة كانت إنّو أنا ما عم بخدم وطن، أنا عم بخدم إنسان. الرشاوي بالهبل ولا تُغتفر. دائمًا اللي إلو واسطة بينزل إجازة. أنا سبعة أشهر لنزلت إجازة. في ناس ما كانت تداوم.

أنا من الناس اللي تعذّبوا بالسجون داخل الجيش. أوّل مرّة كان بدّوا يمرّقوا موكب من هونيك فكنّا عم نزيح العالم. كانت مارقة امرأة عجوز كنت عم قلّا يلّا خالتي امرقي فإجا رئيس الفرع بشوطها لهالمرأة إللي عمرا ٧٠. قلتلوا سيدي امرأة عجوز ليش عم تساوي هيك. قللي ما إلك علاقة خراس. قلتلوا لمّا يمرق سيادة الرئيس أنا ح خبروا وح وقّف الموكب. فسحبوني وأخدوني ع شي اسمو مكتب الأمن. ضربوني كتير. كنت مربوط عاكرسي واتنين قاعدين ع صدري والضرب شغّال. طول الوقت تعذيب وتحقيق يا محلا غوانتانامو.. يحطّوني بالأرض ويقولوا للشباب اللي بدّو سيجارة يروح يجمع أكتر شعر بجسموا.. وهجموا عليي وبلّشوا نتف. كان معي واحد كان سكران وسبّ الرئيس. قدّام عيني فوتولوا الكرباج بتمّوا ولمّا طلّعوه استفرغ لحم.. بطّل يقدر يمشي وكسروه له عظام جسمه. كنّا نحنا نفوّتو عالحمّام.

جرّبت الدولاب.. أكلت ٢٣٥ كرباج ع اجريي و٢٥٠ عصاي

لحتى انكسرت عليي. من بعدها ضليت شهر ما إقدر وقف ع إجريي. بطل فيني إمشي. أخدوني عالمشفى العسكري وبقيت شهر ما وقّف ع إجريي.

هيدا غير إنو بيتباروا عليك مين كفّوا أقوى أو مين بيضرب أقوى أو مين برجّعني لورا أكتر. اطلعت لإشكي عالسجّان لأنّو قانونًا فينا نشتكي. إجا من بعدها السجّان لعندي وقلّلي «أنا ضابط بالقصر الجمهوري. وأعلى ما بخيلك اركبوا».

الاعتقال التاني كمان بالجيش. وقت مات عماد مغنيّة. سألت الضابط إنّو ليه كلّ واحد طالبينوا الأميركان بموت عنّا ليش. خرّسني وبعتني عالسجن. هيدا السجن مش طبيعي. كلّ غرفة بتفوتي عليها في كرابيج عاليمين والشمال بقولولك نقّي. جرّبت هونيك الدولاب الخشبي كتير. انحبست هونيك ١٠ أيّام ممنوع النوم أبدًا. ممنوع الاستلقاء وممنوع حتى تحكي. وهونيك لازم كون عاري وبيجي السجّان اللي إسمو عيسى يللي ما ح إنساه طول حياتي بيقلي تعال انت وبصير يضربني، كان يفوت من باب السجن ويعيّط ولمّا نسمع صوتو لازم كلّنا نبرم راسنا عالحيط. هيدا السجّان كان ممنوع يشوف حدا لابس تياب أبدًا. بدّك أكتر من هيك لكون ضدّ النظام؟

إجت الثورات العربيّة اللي كنّا كلّنا نحلم فيها. أنا كنت قول أيمتى بدنا نشمّ ريحة واحد عم يحرق حالو لحتى نطلع. نسأل بعضنا «حدا شمّ ريحة حريق؟ منشان الله.

اعتقلت بـ ٦/٣٠ كانت مظاهرة كلّيّة الاقتصاد، كان آخر يوم امتحانات للطلّاب كنّا متفائلين إنّو اليوم الطلّاب ح يتحرّكوا.

تظاهرنا قدّام الكلّيّة كانت قمّة التحدّي إنّو الأمن شايفينوا بس بدّنا نتظاهر ونرفع اسم الحرّيّة غصب عنن. ما طوّلت كتير هجموا علينا فهربنا. أنا انكمشت قدّام كلّيّة الفنون لأنّي كنت عم عيّط ع رفقاتي ليهربوا. في ناس هربت قبل المظاهرة بشوي فكنت عم صرّخ عليهن يرجعوا. إنّو ليش هربتوا ما كنّا كتار ليكوا هلّق شو صار، قامت القيامة شافوني الأمن أو بالأحرى طلع من الاتّحاد الوطني تبع طلبة سورية. حتى الاتّحاد عامل لجان شعبيّة. أنا بعرف إنّو الاتّحاد لطلبة سوريّة. مو اتّحاد لطلبة بشّار.

أخدونا. أنا لهلّق بعدو راسي عم يوجعني من الهراوات.. الضرب والمسبّات. بهدلة. دايمًا يحطّولنا العرعور بالنصّ. انتو أتباع العرعور انتو كذا. دخلنا ع قسم «القنوات» كنّا خمسة شباب. القتل بما فيه الكفاية. رفيقي حطّوا عالأرض وبلّشوا فيه. بعدين جابونا خلّونا نشطف دمّاتوا بإيدينا. هو طالب طبّ. هو سافر ترك البلد هج ما عاد بدّوا. واحد تاني كتير ضربوه لأنّو من حماة.

حوّلونا للأمن الجنائي. شو بدّي خبّرك عن الرعب والوحوش والأبطال؟ إنّو شو البطولة؟ إنّو تكمش واحد مكلبش ومغمضينلوا عيونوا وتضربلوا راسوا بالحيط؟ شو البطولة إنّو تنزل بأمّي مسبّات. فوّتولنا واحد لوطي. تخيّلي لأيّ مستوى..

التعذيب كان بكلّ الأشكال.. وكان عندن شي للمزح «الكهرباء» عالرايح وعالجاي يلعبوا فيها ويحطّوها علينا. رفيقي حطّولوا ايّاها ع رقبتوا. انشلّ خمس دقايق. التحقيق كلّ شوي ع وجه الصبح، الصبح، ظهر، عشيّة، قبل وبعد الأكل. لحتى تعترف إنّو كنت بالمظاهرة.

ضلّيت ٦ أيّام بالأمن الجنائي من بعدها حوّلوني عالأمن السياسي، هونيك الوضع أخطر.

نزلوا رفقاتي لتحت وما بعرف كيف عبّوهون. بس كنّا نسمع صراخهون لفوق.. هو كان متل نوع ترهيب لإلنا. كرمال نعترف نحنا. دخّلونا عند محقّق بالدور.. وقبل ما تحكي أيّ شي بيستقبلك بكفّ. تعوّدنا عالكفوف صارت شغلة عاديّة..

صاروا يحقّقوا معي وطول الوقت ضرب وأنا قلن إنّو ما كنت بالمظاهرة أنا درزي من السويدا ونحنا كلّنا عنّا مظاهرات تأييد.

حوّلونا عالقصر العدلي. كان ع أساس نبيت ليلة بس هونيك حوّلونا قضاء ودغري إخلاء سبيل. وعنّا محكمة بـ ٢٠/٨.

شهادة ثانية:

مع بداية الأحداث، تفجّر الموضوع بدرعا، أثّرت الأحداث بنا. فكرة الثورة على هذا النظام موجودة من سبع سنين. كنّا نشتغل سياسة وعلى حقوق الإنسان بس ما في حيّز أو مكان فيه حرّيّة صحيحة تشتغلي فيها بهذا الوسط. دائمًا يوجد سبب مباشر وأسباب بعيدة. درعا كانت السبب المباشر. الأسباب البعيدة معروفة، الوضع القائم، وضع الاستبداد، الوضع المزري والفساد الموجود.

بلّشت الأحداث بلّشنا نشتغل ع شبكة العلاقات والاتّصال والتواصل مع الشباب اللي عم تشتغل. مستبعدين الشي اللي صار «النفس الإسلامي الموجود بهذه الثورة».. نحنا أساسًا عم نشتغل عالموضوع.. موجودين شباب نوعًا ما نوعيين بمجالاتن، مثقّفين. مهتمّين. عم يشتغلوا بالحراك عالفيسبوك، بالفنّ، بالكتابة. حاولنا

إنشاء علاقات بهيديك الفترة. طبعًا مع يوم الجمعة، يوم التفرّغ للمظاهرات. كانت مناطق الحراك. دمشق منطقة مستبعدة، محصورة. كان عنّا خيار الجامع الأموي بدمشق. أساسًا نحنا ما عنّا الفكر الإسلامي، أنا ما عندي قابليّة لحتى أطلع من جامع. الفكرة ليست متخمّرة بشكل صحيح أن أخرج من جامع. فصار في بحث عن مكان آخر. ولكن اضطررنا في النهاية أن نخرج من الجامع الذي هو المكان الوحيد المبرّر والمسموح فيه التجمّع فيه مع هذا الكمّ من الأشخاص.

كان في مجموعة أشخاص بدوما عم يشتغلوا صار في تنسيق معن، وصار في دعوة للتظاهر في دوما. طلعت أنا وبعض الأصدقاء وفتنا عالجامع.. كان واضح إنّو في أمن كتير، وجوه غريبة، واضح أنّها ليست من دوما. الصلاة انتهت سريعًا، وكأنّ إمام الجامع كان على علم لذلك أسرع في موضوع خطبة الجامع. طلعنا ع بلكون الجامع فكان في أكتر من ٢٠٠٠ جندي، مش جندي تبع حفظ النظام.. سلاح كامل، روسيّات، مسدّسات، وفي رتلين ع مدار الباحة الموجود فيها الجامع.

صفوف الخلفيّة كانت كلّها شبّيحة، بالإضافة للشبّيحة اللي موجودين جوّا الجامع. كان لحظة قرار.. يا بتطلعي وما بتخيبى آمال الناس اللي ناطرتك تهتفي ..أو بتفضّيها وبتهربي لأنّه كان المنظر مرعب من الأمن الموجود والسلاح المرعب.. عندك خيارين.. يا تهتفي وتحرّكي الناس وتعملي الشي اللي إنتي طالعة منشانو أو تروحي.. اجتمعنا وكمشنا إيدين بعض وبلّشنا بالهتاف أوّل هتاف، تاني هتاف «الله سوريّة حرّيّة وبسّ»، «الشعب السوري ما بينذل» فقط.. بلّش الضرب من ورا لأنّ الشبّيحة مجمعين حالن

جوّا الجامع. وهجموا علينا من الدرج.. كنّا ٧٠ برّا وفي ناس بعد ما طلعت، وفي ناس ناطريتنا برّا.. لأنّهم كانوا عاملين متل إطار برّا حتى ما حدا يفوت عالجامع.. هوّي الجامع الكبير بدوما وحواليه في جوامع صغيرة.. الناس جايين منها ليلتقوا بالساحة تبع الجامع الكبير تيطلعوا مظاهرة...

بلّشوا ضرب بعصي الكهرباء والأنواع المستخدمة، جنازير، عصي خشب، هروات، بلّش ضرب فينا من الجهتين، ورا وقدّام. ما كان في إلّا مهرب. ننطّ عن الدرج مسافة منيحة.. بتذكر كان في مكان جرّبت إهرب منه وما قدرت فضربني واحد على راسي وقعت.. وصار في عشرة أشخاص فوقي، واحد كمشلي راسي وصار يضربني.. شي ٥ عصايات إجو على بؤبؤ العين وكسرلي سناني.. الضرب بطريقة همجيّة... شحطوني عالشارع، وكلّ ما جرّب ارفع ضهري، يلبطني واحد بإجروا على صدري. يمسحني عالأرض. ازحل عالأرض.. طبعًا عشر أشخاص، في بعضن من بعيد يقروصوني.. في لؤم وحقد، ما بعرف منبعه.. أخدوني الشبّيحة للأمن وحفظ النظام اللي كانوا واقفين ع جنب، حطّونا حدّ الباصات تبع الاعتقالات وبلّشوا فينا ضرب قبل ما يطلعونا.. طبعًا الباص كان عبارة عن عبوة حمرا من الداخل... حمرا من الدم، الناس مدمايين، الناس صعب تتعرّفي عليهن، كلّن دم.. أنا شلت الموبايل، وشلت الـ sim وعطيتن موبايلي. وضعي الصحّي كان سيّئ، ما قادر اتنفّس، موجوع.. الباص يسع ٢١ كنّا في شي تلاتين.. نحنا دخلنا ع فرع الأمن ٧٣ واحد.. في ناس ما إلن علاقة، أخدوهم من جوّات محلّاتهم، الاعتقال كان عشوائي على هذا المعيار، وكان في تصوير ع باب الجامع، اللي عم بفوت عم بصورروه. وينطروا لحتى يضهر..

الباص كلّو أحمر، الشبابيك حمر «دماء» طلعنا فوق بعض، سكّروا البرادي تبع الباص، وأخدونا ع فرع الأمن. فرع الخطيب.. في شي إسمو الاستقبال بكون واقفين عالجهتين «يمين، وشمال» أوّل ما تفوتي بصيروا يضربوك من الجهتين.. كان وضعي كتير سيّئ أوّل ما نزلت من الباص، لبطني واحد ع صدري، وأنا كنت آكل كتير ضربات ع صدري.. ف بطّلت قادر إتحرّك ووقعت. اجوا تلاتة صاروا يضربوني بس أنا كنت بطّلت قادر إمشي، ما مشي الحال، شالوني حملوني وعدّوا «١،٢» وكبّوني بقوّة عالدرج، جيت عالباب وعالمدخل. بلّشوا لبط فيي لوصلت لجوّا عالغرفة، غرفة الاعتقال كانت كبيرة «سبعة بخمسة» السطح كان صفيح، مش باطون، مش غرفة كان جديد، وكان واضح إنّو مدهون جديد، أنا لأنّو بشتغل بالدهان، بيدهنوه كلّ يومين بسبب الدم اللي عم بصير عليه. أوّل ما فتنا كانت الحيطان بيض، بعد أربع ساعات صار كلّه دم. ريحة الدهان كانت جديدة، بلّشوا ياخدو الأسماء مع الضرب بالكلابيش الكبيرة الملفوفة، الاسم الثلاثي، ومين وين.. طبعًا أنا أكلت ضرب زيادة لأنّو من مصياف. هيدا حكي تاني أنا ابن مصياف، بدون ما يسألوني شو طايفتي.. بتاكليها زيادة. شي ساعة ونصف، اجو الإسعاف، طبعًا الإسعاف هنّي ضبّاط أمن بس دكاترة أو ممرّضين. سلوك عنيف للممرّضين والممرّضات ما في أيّ رحمة، أسوأ شي كان إنّو طرق المعالجة ما فيها مراعاة لأيّ ظرف صحّي.. بخيّطوا الجرح بأبر خياطة العاديّة، بخيط وما بعقّم حتى.. ما بيعطوك حبّ التهاب غير إذا مجروح كتير. الجرح العادي ما بيعطوك شي. ولا حتى مسكّن.. كان في حدا معو انهيار عصبي تركوه ع جنب كان طول الوقت عم يرجف هيدا غير

الجروحات الموجودة ع جسمه وصار يستفرغ دم كتير، في حدا مصاوب برصاصة.. تركوه تلات ساعات ورجعوا أخدوا عالمشفى، أنا عيني كانت كتير سيّئة وعم ينزل منها دم.. بعدين إجو صاروا يختاروا مين بدن ياخدوا عالمشفى.. اللي حواليه أشّروا عليّي إنّو أنا لازملي مستشفى.. كان عندي مشكلة بالتنفّس قد ما انضربت ع صدري.. كان تنفّسي إلو صوت قوي. اللي حواليّي خافو قالوا أكيد ح موت كان كتير سيّئ.. هالحكي ضلّ سبع ساعات لأخدونا عالمستشفى.. كان في صديقي مسيحي وضعه سيّئ كان لازم كمان يروح معنا عالمشفى.. إجا ليطلع عالباص رجّعوه لأنّ اسمو مش موجود علمًا إنّو أنا شفت اسمو وقلتلو للضابط.. اسمو موجود.. قللي «مو شغلتك» وضربني.. بعدين عرفت إنّو لأنّو مسيحي ما أخدوه..

نزّلونا بساحة مشفى المجتهد، فضّوا الساحة مطرح ما بتنزل السيّارات مدخل الإسعاف وصفّ الأمن. نزل أوّل واحد وأخدوه.. التاني.. التالت.

إجا دوري، جابولي الكرسي المتحرّك، قعّدوني، أخدوني ٥ أمن مسلّحين، واحد أوّل شي عم ببعّد العالم، اتنين عم بجرّوني واتنين قدّامي، وعم يحكوا للناس بصوت جهوري وعالي إنّو أنا مسلّح، قتلت ٥ أمن وقنّاص.. حتى صار في مزح بين رفقاتنا إنّو «هاد القنّاص اللي قاتل ٥ أمن» صاروا يدوّروني بالمشفى قدّام الناس والناس تصير تبصق عليي الله يلعنكن وكفّار. هيدا المندسّ وهيدا السلفي. أنا منّي قادر إرفع إيدي حتى كذّبهون. خلصت المسرحيّة تبعن، ساعتها استنتجت أنا ليش صديقي المسيحي ما أخدوه. يمكن حدا يكون بيعرفو «إنّو السلفي المسيحي» متل ما عم بصير دايمًا.

فتنا على غرف الأسرى المفصولة بيناتن البرادي «سواتر قماش» قعدت بالسرير واستمرّ الضرب عالخفيف، «ويلّا ولا» إجا الممرّض ياخود «إضبارتي» الأسامي، أخدوا اسم الأب واسم الأمّ.. إجا الضابط ومزّقلوا الورقة وقلّوا سجلوا المجهول تلاتة، سمّونا أرقام. أنا هون كان عندي ردّة فعل. إنّو أنا منّي مجهول هيدي هويّتي شوفا أنا عربي سوري ومواطن متلي متلك ما بسمح لإلك ولا لغيرك تقلّي مجهول. أكلت كفّ «إنّو هيدا الحكي بتحكي برّا».

ما في أيّ رحمة كانوا إذا بدّن يساعدوني إنهض من السرير.. عبارة عن عقوبة، إنو يخلعلي كتفي أو يضربني. أخدوني عالتصوير الإيكو، وتصوير المحوري. وطبيب العيون وشافني طبيب العيون، وقلّي إنّو عيني مضروبي راحت ما عاد تشوف فيها «الأطبّاء منظومة أمنيّة، ما في ولا أيّ رحمة جوّاتن، بيتعاملوا معي كأنّي فعلاً قنّاص أو مجرم» ما كنت عم شوف بعيني وما بعرف شو غايته إنّو يكذب ويقلّي إنّو ما بقى ح شوف فيها. وصفولي دوا. وبعد ما طلعنا بالباص. أخدولي إيّاها ومزّقوها.. «بدك دوا يا...» أنا حيوان ما بستاهل دوا.

رجّعونا ع فرع الأمن كان في صار ناس جداد بالمنظر نفسه اللي نحنا كنّا فيه، وأسوأ مننا «كان في من دوما، من الحميديّة، من التلّ، من دار الأموي» فتنا عالغرفة طلبني ضابط الأمن الكبير.. لمّا تطلعي من غرفة المعتقل بغطّولك وجّك ما فيك تشوفي حدا لا المحقّق ولا الجلّاد ولا الطريق.. أنا ومغمّض عيوني. سألني شو اسمك؟ اسم أبوك؟

قلّي أبوك إخوان مسلمين، وأنت تنظيم جند الشام المسلّح. أنا بهيدي اللحظة إجتني الضحكة.. إنّو نحنا ما إلنا علاقة بالدين

كلّو.. قلتلّو عفوًا إذا هيدا الحكي تهمة بردّ عليه، عندي ردّ بسّ إذا عم تخبّرني شي فأنا لا حول ولا قوّة.. ما عندك أيّ تصرّف.. قلتلّو كاسة العرق تبع أبوي وأنا غير مؤمن.. هون هوي حسّ بالمهانة.. قلّي رجاع، طبعًا إنت وماشي ع طول الطريق في ضرب. رجعنا عالغرفة، حقّقوا معي شي خمس مرّات، كلّ مرّة كان في جلد وفلق طبعًا وبعنف شديد. كان أسوأ شي.. أنا قاعد ومسطّح ع ضهري عم يسألني أسئلة، اختفى ما عاد سألني، إجا ضربني ع إجري، ضربة كسر ليكسرلي إجري.. بعصا حديد.. الجروح بعدها موجودة اللي اختفى بسّ الرضوض. العين زرقا بعدها، الأسنان مكسورة، الصدر بعدو بيوجعني.

بعد خمس جلسات تحقيق أقرّيت إنّو كنت بالمظاهرة، قلّي ليه ما قلت من الأوّل؟ قلتلو «ما تركتلي مجال من وقت ما جبتني وأنت نازل ضرب بربّي، أنت ما عم تسألني وعم تضربني، كيف لمّا قلّك أنا طالع مظاهرة ما تركتلي مجال نازل فيّي ضرب طول الوقت؟».

بعدين تركونا هيك لتاني يوم طبعًا كان شكل الأكل سيّئ جدًّا، أساسًا كنّا مضربين عن الطعام.

تاني يوم بلّشت المحاضرات الفكريّة. أنا بسمّيه «التشبيح الفكري» المحاضرات القوميّة اللي اعتدنا عليها من صفّ الأوّل إبتدائي.. «سيادة الرئيس والوطن وإنتو المستقبل» تغيّر النفس.. أوّل ما فتنا كنّا نحنا الخونة، نحنا الكلاب ولاد... ولاد...» بشكل معكوس إنتو ولاد هالوطن، ولادو البارّين، إنتو الأوادم الحبّابين.. في بيناتكن كم واحد كلب، نحنا عرفناهن.. وما رح يطلعوا اليوم.. سيادة الرئيس الله يخلّيلنا إيّاه طلّع عفو عنكن ولأنّو هو

إنسان كبير رح يفرج عنكن.. يللا بالروح بالدم نفديك يا بشّار.. طبعًا الكلّ انجبرو اللي ما عم يهتف كان عم ينضرب.. أنا كان عندي ظرف ما كنت قادر إهتف من هيك ما تعرّضولي... بلّشوا يحكوا: يا شباب نحنا متل إخواتكن، نحنا إذا ضربناكم كرمال إنتو تتعلّموا.. من بعدا بلّشت المحاضرة الفكريّة «الإنجازات، الديموقراطيّة اللي عم بتصير، الانفتاح الاقتصادي، والتضحيات» وإنتو صبروا علينا وشوفوا شو عم نشتغل.. ما عم يقدروا يناموا الليل «متل كأنّوا نحنا من ورا ومظاهراتنا ما عم نخلّيهن يناموا».. ولمّا يحكي، بيوصل عكلمة بشّار الأسد يعلّي صوتوا لنصفق.. ما حدا يصفق، فيأشّر هو بإيدو إنّو.. زقفوا.. زقفوا ولاه.

لمّا عرف أنا من مصياف في عتب، حسّيتوا زعلان منّي.. «بسخرية»... كيف بيتعاملوا معك ع أساس طائفي، أنت من مصياف، يعني علوي، شو جايبك يا حمار. مو شايفينا كأشخاص شايفينا كطوائف.

في رفيقي المسيحي (آسف لأنّو عم سمّي المسيحي هو إلو اسم بعيطلو فيه).. سألوا إنت كيف عرفت بالمظاهرة، جاوب «من جريدة الأخبار» قللو لمين هيدي؟» «لحزب الله»، «يلعن ربّك مسيحي بدوما نازل مع السنّة ومن جماعة الشيعة، شو دين ربّك»؟

بعد المحاضرة، جابونا تنطلع، وقّعونا على ورقتين بيض مع بصمة «هيدي ما الكلّ بوقعوها، حسب» وفي تعهّد الكلّ بوقعوه «تبتعد عن كلّ نشاط ، والاشتراك بالمظاهرات» انجبرنا نوقّع.. لمّا سألتو شو الورقة البيضا، ضربني «شغلتك توقّع».. وقّعنا وطلعنا بالباصات وجبرونا نهتف.. بدوما كانوا متجمّعين وناطرينا.. بعدين عرفنا إنّو شكّلوا وفد وطلعوا عند الرئيس وكانوا مصعّدين بالحكي

معه، يوم ما اعتقلونا صار في مجزرة راح فيها ١٥ شهيد.. كان في قنّاصين، ضرب رصاص.. تاني يوم لمّا طلعنا كان في تشييع، كان في حزن، مدينة سودا، إضراب ٣ أيّام.. لمّا وصلنا عالساحة، نزّلونا بـ ٣ باصات ت ما يعملوا ضجّة بالبلد، ينّزلونا ويهربوا فورًا، فنحنا كنّا ننزل نوقف ننطر الباص اللي بعدنا.. تجمّعنا وطلعنا مظاهرة نحنا ومعطوبين «بالروح بالدم نفديك يا شهيد»، «الله، سورية، حرّيّة وبس» ردًّا على اللي كانوا عم يجبرونا نردّده عندن.. ما كان في أمن كانت فاضية تمامًا.. تاني يوم كمان كان في تشييع..

تاني يوم إجا رفيقي عم يبكي، فكّرتو عم يبكي لأنّو فكّرني طائفي إنّو العلويّة ضربوني، صرت قول انشالله ما يحكيني هيك.. مش العلويّة اللي ضربوني، السلطة ضربتني.. بعدين توضّحلي إنّو عم يبكي لأنّو ولاد عمّو هم اللي ضربوني.

انتهت الشهادات التي حرصتُ على نقلها بالعاميّة، شعرت أنّها أكثر حقيقيّة من تحويلها إلى فصحى. الشهادة الأخيرة التي اختصرتها عوضًا عن عشرات الشهادات المشابهة، كتبتها باللغة الفصحى، كانت تتمّ عن طريق المراسلة.

هذه الروح الغريبة التي انتشرت بين السوريّين، واحد يبكي لأنّ أقرباءه ضربوا صديقًا، والروح المضادّة التي خلقت كلّ هذا العنف بين السوريّين أيضًا.

شهادة المعتقل الأخيرة

أثناء تظاهرة في ساحة عرنوس ٢٠١١/٥/١٩ اعتُقلت وبقيت ٦

أيّام في السجن، كنّا نحمل اللافتات في التظاهرة ونهتف لفكّ الحصار عن درعا، و«لا للطائفيّة» و«الدم السوري حرام»، وردّدنا النشيد الوطني، أمسكوا بي وأنا أقول: «نفوس أباة وماض مجيد».

أوّل من أمسكوا بنا كانوا يلبسون لباسًا مدنيًّا، الباعة في السوق هم من رجال الأمن. (ملاحظة: الباعة الجوّالون وليسوا من أصحاب المحلّات في السوق) أمسكوا بنا، ضربونا بالأيادي ورفسونا، وأدخلونا إلى أحد المحالّ التجاريّة، شتمونا.

التجّار شعروا بالرعب والأمن. كانوا يصرخون «حراميّة حراميّة»، صاحب المحلّ ساعدنا وخبّأ إحدى البنات وأدخلها في إحدى غرف القياس، ضربونا بعنف وشدّة. ووصلت مفرزة أمن مع الضابط الذي بدأ بشتمنا، ثم أدخلونا الحافلة وطول الوقت كانوا يضربوننا بعصيّ كهربائيّة، وجنازير حديديّة. وصلنا إلى فرع الأمن في الميسات، أيضًا أشبعونا ضربًا، كنّا معصوبي الأعين، ووقعنا على الأرض وكانوا يضربوننا أكثر ويدوسوننا حتى وصلنا إلى غرفة التحقيق. في التحقيق كانت هناك أسئلة بسيطة عن مدى معرفتنا ببعض الأشخاص، ثم رفعوا أرجلنا وضربونا بعنف على أقدامنا «فلقة» وطوال الوقت يخوّفوننا ويشتموننا. كنّا معصوبي الأعين أيضًا، وأنا كنت معصوب العينين ومقيّد اليدين، أنزلونا القبو، كنت أمشي في العتمة وورائي أحد ما، مشيت فاصطدمت بجدار ووقعت أرضًا، وكانوا يضحكون منذ البداية لأنّهم يعرفون أنّني سأصطدم به، علت قهقهاتهم ودهسوني بأرجلهم. خرجت من التحقيق، وأثناء الخروج كان السيناريو نفسه؛ ضرب وركل وعصا كهربائيّة. أيضًا كنّا معصوبي الأعين من فرع أمن إلى فرع آخر، كان الفرع الجديد في شارع بغداد وسط دمشق، وهو ما عرفته لاحقًا، والآليّة نفسها في الدخول إلى التحقيق، ضرب وركل وشتم. كان هناك شابّ شعره طويل، قالوا له: «أنت بتنتاك؟»، وضحكوا عليه وسخروا

منه، وصاروا يضايقونه كثيرًا بحركاتهم. كنّا مادّة سخرية لهم. وكان من بيننا أطبّاء وكتّاب ومثقّفون، مع ذلك لم تتوقّف الإهانات ولا الضرب والركل. قاموا بتعريتنا داخل الفرع بشكل كامل، ثم ألبسونا ثيابنا، ونقلونا إلى مهجع كان فيه مهرّبو مخدّرات وأسلحة، لكنّهم كانوا طيّبين معنا، وبدأ التحقيق. كان معنا ناشطون سياسيّون ومعتقلون سابقون. كانت حربًا نفسيّة، يقولون لنا إنّنا لن نخرج، وعندما كنّا نقول كلمة إصلاح، كانوا يضربوننا أكثر وبشدّة. حقّق معي ضابط وأنا معصوب العينين، قلت لهم إنّي طالب بكالوريا، وكنت صدفة في التظاهرة، ورأيتهم يردّدون النشيد الوطني فنزلت معهم، ضربوني أكثر، لأنّهم عرفوا أنّي لا أقول الحقيقة. كانوا يريدون معرفة من دعاني للتظاهر، وأنا أنكرت، جعلوني أنبطح على الأرض مقيّد اليدين وراء ظهري، رجلاي مرفوعتان زاوية قائمة، وضربوني فلقة على رجليّ، وضعوني في الدولاب، فتظاهرت بالغباء، سألني المحقّق عن الأحزاب في سورية، وتظاهرت بعدم المعرفة. سألني عن الفيسبوك، وأنكرت معرفتي به. عدت إلى المهجع، بعد أن تعرّضت لعلميّة تعذيب، يقول الضابط للسجّان، خذه هناك وظننت أنّهم سيعذّبونني بالكهرباء. لعبوا على وتر أنّنا يساريّون وعلمانيّون، ظنّوا أنّ من يخرج للتظاهر هم سلفيّون.

التحقيق الثاني كان في الممرّ، وأنا في وضعيّة الجاثي ومغمض العينين، هذا المحقّق كان أقلّ ذكاء وصدّق روايتي، كانت هناك أصوات لصراخ معذّبين من الغرف المجاورة، وكان معنا ثلاثة رجال عجائز من دوما، والرجل العجوز يريد تسليم ابنه لأنّه يشارك في التشييع، وكان الأهالي قد صدّقوا أنّه يجب تسليم أبنائهم لحمايتهم. وعندما قام الوالد بتسليم ابنه، اعتقلوه أمام ابنه، كانوا يضربون رأس الابن بالجدران، وهو يرى أباه يعود من التعذيب العنيف، بكلّ وحشيّة. لم يكن المحقّقون كلّهم من العلويّين ولكنّهم

عندما يصرخون علينا، كانوا يتحدّثون معنا باللهجة العلويّة. كان الخطاب طائفيًا في فرع الأمن، ويتمّ التطرّق إلى أنّه لا يجب علينا الخروج من أجل أن ندعم السلفيّين المتشدّدين. كانوا منزعجين جدًّا من التظاهرة التي قمنا بها في ساحة عرنوس وسط دمشق، والتي جمعت كلّ الطوائف، وكانت من شخصيّات علمانيّة. كانوا يجعلوننا نبصم على أقوالنا، وحتى تلك اللحظة لم أكن قد بصمت. أعطونا أجهزة الخلوي وعصبوا أعيننا، وخرجنا، ونحن نخرج نتعرّض لحفلة الضرب والركل والإهانة نفسها. في الحافلة كنّا معصوبي الأعين ومقيّدي الأيدي أيضًا، ورؤوسنا في الأرض ونتعرّض للضرب نفسه، صاروا يلعبون بأعصابنا في الحافلة، يستديرون بسرعة فنقع على الأرض ويضحكون، نقع ونقوم ويعاودن الكرّة ويضحكون. وقفت الحافلة، ولقّم أحدهم بندقيّته الروسيّة الكلاشينكوف، وقال بصوت عالٍ: «سيدي هل نقتلهم كلّهم دفعة واحدة؟» ارتعبنا، فضحكوا وقالوا: «انزلوا يا منايك»، وهناك نزلنا ليضربونا بعنف وشدّة أيضًا، وبقسوة لا مثيل لها. في فرع كفر سوسة كان هناك جلّاد يضربنا بشكل سادي، يضربنا بوحشيّة ثم يضحك، يضرب ويطلق قهقهات ويدور في مكانه، ثم يعود ويضربنا ويضحك بصوت أعلى، ويجلدنا بكرباج مثل رأس الأفعى.

٢٠١١/٧/٨

«جمعة لا للحوار»

السفير الفرنسي يدخل مدينة حماة ويزور مشفًى فيها ليتأكّد أنّ الجرحى يتلقّون العلاج.

السفير الأميركي يزورها أيضًا، والخارجيّة السوريّة تصدر بيانًا تعلن فيه عدم رضاها عن الزيارة، وتقول إنّ ما فعله السفير مخالف للأعراف الدبلوماسيّة. والتلفزيون السوري يقول إنّ السفير التقى المخرّبين في مدينة حماة وحضّهم على العنف. ومسؤول أميركي يقول إنّ السلطات السوريّة على علم بزيارة السفير إلى مدينة حماة، والأميركيّون يقولون إنّهم يؤيّدون الشعب السوري في تحوّله نحو الديموقراطيّة. ويبدو أنّ النظام فشل في الحلّ الأمني والحلّ السياسي وفشل في كسب رضا الدول الكبرى.

اليوم ١٦ قتيلاً وعشرات الجرحى بعضهم في دمشق، وواشنطن

تستهجن ردّ فعل السلطات السوريّة على زيارة السفير، وخروج مئات الآلاف من السوريّين في ساحات المدن، وجمعة «اللا حوار» تؤكّد أنّ المتظاهرين لا يريدون الحوار. ويتجوّل روبرت فورد بين المحتجّين في سيّارته، واتّفقت المعارضة في الداخل والخارج على عدم الحوار، وحماة هي مركز الاحتجاج.

أجلس هكذا ببساطة وأنا أعدّ ما أودّ حمله من أشياء في حقائبي.

صور السوريّين التي تظهر على الشاشات والأخرى التي أتابعها في اليوتيوب، كيف يتحرّكون كالسيل الجارف، كيف يصرخون بحناجرهم، ويهدرون بصوت واحد: «الشعب يريد إسقاط النظام». أجلس لأكتب تسجيلاً حصلت عليه من إحدى صديقاتي الصحافيّات اللواتي كنّ على الحدود بين سوريّة وتركيا، وهي مراسلة لراديو مونت كارلو وفرانس ٢٤. هدى إبراهيم، أذكر اسمها دون خوف، بخلاف كلّ شهودي الذين يتوارون في العتمة، أخذت منها شهادة عن وجودها في المخيّم، ومن أحد شباب الانتفاضة في جسر الشغور، سأبدأ به «م» تحدّثت معه في الهاتف، وهو يتواجد على الحدود السوريّة التركيّة ليستفيد من شبكة الإنترنت التركيّة.

قصة جسر الشغور

يقول «م»: «كنّا نخرج في مظاهرات ضخمة في جسر الشغور، حوالى ١٠ آلاف متظاهر، وكانت عناصر الأمن ٣٠٠، تركونا نتظاهر لأنّهم عرفوا أنّه إذا سقط شهداء ستتأجّج المظاهرات أكثر، ولن يستطيعوا السيطرة على المنطقة. تظاهرنا بجانب فرع أمن الدولة في ساحة الحرّيّة ومبنى البريد أيضًا، سقط شهيد اسمه باسم المصري،

وأثناء تشييعه أطلق الأمن النار على الأهالي في ساحة الحرّيّة. الأهالي كانوا يهتفون فقط، فطلب الأمن دعم الجيش، جاء الدعم إليهم من إدلب بعناصر إضافيّة من الأمن والجيش. عندما وصل الجيش إلى جسر الشغور كان يعتقد أنّ هناك عناصر مسلّحة، واكتشفوا كذب ذلك، كنّا حينها ١٥ ألف متظاهر من دون سلاح، وأعطى الأمن الأمر بإطلاق النار، كانوا وراء الجيش، ففرّ عدد من الجنود في الحقول، وعدد آخر منهم أطلق النار على الأمن، فصار اشتباك بين الأمن والجيش. استمرّت الاشتباكات بين الجيش والأمن، وفرّ الأمن في الحقول أيضًا خوفًا من الجيش، وانضمّ أغلب الجيش إلى الانشقاق: حوالى ٣٠٠ أو ٣٥٠ جندي. الجيش كان أقوى من الأمن وسيطر على المنطقة بعد أن فرّ الأمن إلى إدلب، وكانت هناك اشتباكات طول الوقت. الأهالي رحّبوا بالجيش وانضمّ الجيش إليهم. كان هناك مع المجنّدين ثلاثة ضبّاط منشقّين، واشتبكوا مع عناصر الأمن التي كانت ما تزال في مبنى البريد، وعددهم ٨ عناصر، سقط من المنشقّين خمسة أو ستّة شهداء، ومات كلّ عناصر الأمن. ثم اقتحم الجيش المنشقّ المبنى، بعد ذلك جاءت قوّة دعم أمني، ودعم من الجيش، وصار هناك ضرب رصاص. المنشقّون أطلقوا النار على مفرزة أمن الدولة، فقال عناصر الأمن في المفرزة: لا تطلقوا النار لنسلّم أنفسنا، سلّموا أسلحتهم، ولم يُقتل أحد منهم. ثم ذهب المنشقّون إلى فرع الأمن العسكري، وطلبوا من عناصر الأمن تسليم أسلحتهم، لكنّهم رفضوا، فوقع اشتباك وإطلاق نار بين الأمن العسكري والمنشقّين، وهذا حصل في اليوم التالي، كان هناك ١٧٠ منشقًّا، وفي الأمن العسكري لم نعرف العدد لكنّهم كانوا كثرًا، وانضمّ بعض الجنود المنشقّين والهاربين من حماة واللاذقيّة وحمص إلى الجيش المنشقّ، ومن بينهم المقدّم حسين هرموش، وصار عددهم

كبيرًا، بين ٧٠٠ و٨٠٠ منشقّ، هجموا على فرع الأمن العسكري وسيطروا عليه وقتلوا من فيه، وكانت هناك مفاوضات معهم قبل ذلك، قال لهم المنشقّون: عودوا للشعب واتركوا النظام، لكنّهم رفضوا تسليم السلاح، وقالوا بأنّهم سيهدمون جسر الشغور كلّها على رؤوس أهلها، فقال لهم المقدّم حسين هرموش: إمّا أن تسلّموا أسلحتكم أو نقتحم المفرزة، وكان حينها رئيس المفرزة واسمه «أبو يعرب» قد قتل ١٥ عنصرًا من عناصر الأمن لأنّهم كانوا ضدّ ما يحدث من قتل، وكانت جثثهم داخل المفرزة.

اقتحم المنشقّون مفرزة الأمن، وبعد يومين من الاشتباكات جاءت قوّة أمنيّة من إدلب، ووقع اشتباك بينها وبين الجيش المنشقّ، في منطقة اسمها «الفريكة» وهي قبل جسر الشغور بـ ٧ كم وكان هناك كمين لهذه القوّة الأمنيّة من قبل الجيش المنشقّ، فسقط ١٢٠ رجلاً من الأمن. لقد عرفوا أنّ القوّة المنشقّة من الجيش كبيرة في جسر الشغور، فأرسلوا ١٥ ألف عسكري و٣٠٠ دبّابة اقتحمت جسر الشغور من ثلاثة محاور: محور حماة طريق الغاب، محور الغربي ـ اشتبرق، محور الشرقي ـ الفريكة طريق حلب. هنا تخوّف الجيش المنشقّ من قصف مدينة جسر الشغور، وسقوط عدد كبير من المدنيّين، فقام المنشقّون بنقل الأهالي إلى الحدود التركيّة وأمّنوا لهم طريق الخروج، وكان أحد أسباب عدم مواجهة الجيش القادم إلى جسر الشغور، أنّ المنشقّين يعرفون أنّ ما يقوله النظام عن عصابات مسلّحة، سيجد سبيلاً إلى تصديقه إذا ما قاتل المنشقّون الجيش، ففضّلوا الانسحاب إلى خارج جسر الشغور، في منطقة جبليّة تقع قبل الحدود التركيّة في الغرب».

تنتهي شهادة «م» عن جسر الشغور، التي كنّا نسمع أخبارها المشوّشة، عن القتل وإطلاق النار دون أن نعرف السبب، وبقيت أمامي

الشهادة الأخيرة من هدى إبراهيم كي أدوّنها. هدى التي قضت الأسبوعين الأخيرين من شهر حزيران، بين الحدود التركيّة والسوريّة ودخلت سورية ثم عادت إلى أنطاكيّة. تقول هدى:

«دخلت إلى قلب الأراضي السوريّة وكنت أعود إلى تركيا، عند قرية عين البيضا ومخيّم خربة الجوز. كان هناك تسعة مخيّمات كلّها من جسر الشغور التي يسكنها ٦٠ ألف إنسان، كُثر منهم تمّ تهجيرهم إلى حلب ومناطق أخرى، ليس على الحدود فقط. وفي مخيّم خربة الجوز كان هناك قسمان: قسم عائلات وقسم رجال، الأغلب رجال. العائلات تمّ تهريبها إلى تركيا. جسر الشغور تبعد ٧ كم عن خربة الجوز، وكان الشباب قد شكّلوا مركزًا إعلاميًّا لن أستطيع البوح بمكانه الآن، وإلى هناك كانت تأتي الأخبار والصور والفيديوهات من كلّ أنحاء سورية، يحملها الشباب عبر USB ويخاطرون بحياتهم من حلب وحمص وحماة وكلّ المناطق الممكنة. وكانوا يستخدمون الإنترنت التركي على بعد ١ كم من الحدود. قال لي شباب الانتفاضة إنّه عندما حصل انشقاق قاموا بتضخيم الخبر عن عدد المنشقّين، ليفكّوا الحصار عن حمص وحماة لإرباك النظام، ولكسب أكبر وقت ممكن لإخراج الأهالي من جسر الشغور، وهو ما دفع النظام إلى إرسال ١٥ ألف جندي إلى جسر الشغور، وقالوا لي إنّه كان عملاً خاطئًا، لأنّ الأمر انعكس سلبًا على الأهالي. وحسب الشهادات التي سمعتها من أهالي جسر الشغور، فإنّ من بقي من الأهالي في المدينة اعتُقل، ومنهم من قُتل، ورووا لي حادثة: أنّ ١١ شخصًا كانوا على درّاجات ناريّة، وهم عمّال عائدون من العمل في بيروت أُطلقت النار عليهم، فقُتل ثلاثة منهم واعتُقل الباقون، واحد من الذين اعُتقلوا أجريت معه حوارًا وذكر أنّهم كانوا معتقلين في معمل السكّر، وقد عُذّبوا فيه تعذيبًا شديدًا، والكلّ

كان يتحدّث عن معمل السكّر هذا الذي يتحوّل إلى معتقل كبير يضمّ رجالاً وأطفالاً ومسنّين».

أتوقّف هنا قليلاً، تنتابني رجفة، النظام السوري حوّل ملاعب الرياضة إلى معتقلات، كما حدث في بانياس، حيث حوّل الملعب البلدي إلى معتقل كبير، وحوّل المعامل إلى معتقلات، أيّ نظام وحشي هذا! أحد الذين خرجوا من الملعب البلدي في بانياس كتب نصًّا ونشره على الفيسبوك، تحدّث فيه عن المعاملة الوحشيّة التي تلقّاها، هو وأهالي بانياس في الملعب، وكيف كانوا يمشون عليهم، ويجعلونهم يمشون فوق أجساد بعضهم البعض، ويدوسونهم ويلكمونهم.

تتابع هدى، بعيدًا عن ارتجاف أصابعي:

«أحد الذين بقوا في جسر الشغور للأيّام الأخيرة ذكر أنّ أصوات الصراخ والتعذيب كانت في الليل يصل صداها إلى مسافة خمسة كيلو متر، وقد سمعت العديد من قصص التعذيب من الأهالي الذين نجوا من معمل السكّر ولم يُقتلوا هناك، منهم هذا العامل الذي تمّ قتل اثنين من رفاقه أمامه، قال لي إنّ رجال الأمن اختلفوا فيما بينهم على قَتلِهِ، وتركوه أخيرًا بعد أن قتلوا ثلاثة من رفاقه.

قرابة ١٥ حزيران انتشرت شائعة أنّ الأمور هدأت في جسر الشغور، فاتّصل البعض بالذين هربوا إلى تركيا، وعاد بعضهم إلى المدينة، بعد أن دخل الجيش القرى، تحدّث الأهالي عن أنّ عائلة بأكملها (آل قصقوص) صدّقت الأمر وعادت وقُتلت بأجمعها، نساءً ورجالاً وأطفالاً. هناك رواية أخرى تقول إنّ رجال هذه العائلة ونساءها قُتلوا والأطفال اعتُقلوا، في الواقع عندما دخلت إلى سورية رأيت الكثير من الناس الذين لا يعرفون أين عائلاتهم، ورأيت رجالاً تشرّدوا دون

عائلاتهم، ولا يعرفون ما الذي حلّ بها، ورأيت أطفالاً ونساء لا يعرفون ما الذي حلّ برجالهم، كان شيئًا فظيعًا يشبه ضياع عالم كامل!».

في مخيّمات اللاجئين كان السوريّون يعيشون في سجن، تقول هدى وأنا أكتب:

«الاتّصال بأحد ممنوع عليهم، ورأيت كيف أنّ الهروب من الموت يجعل الإنسان يتحمّل أسوأ الحلول، رغم أنّ بعض الهاربين التجأوا إلى أقاربهم في منطقة لواء إسكندرون، وهؤلاء كان وضعهم أفضل من وضع الناس في المخيّمات، في العموم كانت الحدود السوريّة التركيّة طويلة، واختلفت أوضاع اللاجئين من مكان إلى آخر عبر هذه الحدود. هناك الكثير من القصص المحزنة والموجعة، رأيت سائق شاحنة، كانت عينه مصابة من الضرب وأحرقوا شاحنته وهدّدوه بألّا يعود إلى مدينة اللاذقيّة. كان يعمل بين اللاذقيّة وجسر الشغور ولواء إسكندرون، سألته: «من هدّدك؟» قال «الشبّيحة، لا أعرف أسماءهم، فتوقّفت عن الذهاب». السائق واسمه أبو أحمد، استقرّ في قرية الريحانيّة يبيع القهوة على الحدود عند نقطة عبور.

نحن، الصحافيّين، لم يسمحوا لنا بالدخول، إلّا عندما كان الأتراك يعقدون مؤتمراتهم الصحافيّة هناك، دخلنا ثلاث مرّات.

أكثر ما أثّر بي هو تلك الطريق الصعبة التي اجتزناها وتبلغ بين ٥ و٧ كم لندخل خربة الجوز وعين البيضا، الطريق في الأصل كيلومتران فقط، وكنّا التففنا حولها لتجاوز حواجز الجيش. كانت الحرارة مرتفعة وكانت الطريق صعبة وشاقّة، ولكنّ طبيعة المنطقة تجعل الإنسان يحزن لتداخل كلّ هذا الجمال مع الموت.

في يوم ١٩ حزيران وبعد دخول الجيش إلى هذه القرى، رأيت الأطفال والنساء والحوامل، يجتازون هذه الطريق الجبليّة الوعرة نفسها، وهو ما أثّر بي كثيرًا، كي يقطع هؤلاء طريقًا مميتة كهذه، كان يعني أمرًا واحدًا: هو هروبهم من الموت إلى احتمالات أقلّها الموت نفسه.

كنّا نراقب الجيش عبر كاميراتنا في قرية قوتشي، كنّا نلمحهم وهم يتعاركون ويختلفون. بدا واضحًا أنّ قسمًا منهم على خلاف مستمرّ مع الباقين. أحد الشباب السوريّين حكى لي عن حادثة فظيعة، عندما التجأ سبعة جنود منشقّين في الجيش إلى قرية عين البيضا، ولجأوا إلى رجل عجوز، وسألوه أن يدلّهم الطريق إلى تركيا، فطلب العجوز منهم إمهاله دقائق، وعاد برجال الأمن الذين قاموا بقتل بعضهم واعتقال بعضهم الآخر.

ما لفت انتباهي كان العدد الكبير من الأطفال والنساء، الأطفال كانوا يفترشون الأرض، كيفما تحرّكت كنت أرى الأطفال، وهؤلاء الأطفال عندما كانوا يرونني كانوا يركضون نحوي ويقولون إنّهم لا يريدون بشّار الأسد، ويريدون إسقاط النظام ثم يغنّون ما يقولونه. أخبرني الأهالي أنّهم في جسر الشغور قبضوا على شبّيحة، ولم يقتلوهم بل أطلقوا سراحهم. أحد الهاربين من جسر الشغور وصل وفي يديه قيود حديديّة، حكى لي أشياء مرعبة عن الاعتقال والتعذيب. وفي المخيّمات وعندما كانوا يوزّعون الأكل، كان اللاجئون يتحوّلون إلى عائلة واحدة. كنت أرى في هذا التضامن نوعًا من صدّ الموت. كانت المياه تنقطع والحرّ يشتدّ، ولم تكن ثمّة مياه، فشرب الأطفال في المخيّم من مياه البرك المحيطة بهم، ومات الكثير منهم جرّاء ذلك. أذكر أنّي عندما وصلت، وفي أيّامي الأولى، كان هناك مخيّم يُبنى اسمه الريحانيّة، وكان ممنوع دخولنا إليه، بعد عشرة

أيّام عدت إلى المخيّم، وكان قد اكتمل البناء وامتلأ باللاجئين، وكانت تركيا تقوم ببناء ثلاثة مخيّمات أخرى، وأثناء وجودنا في قرية قوتشي، كنّا نسمع إطلاق النار الكثيف، بعد أن نرى الدبّابات تدخل القرى، كانوا يقومون بتمشيط القرى بالرصاص. وفي قرى أخرى قرب جسر الشغور مثل الزعينيّة، الشاتوري، السرمينيّة، كان الجيش يدخل مع رجال الأمن والقنّاصة، وحدث فيها ما حدث في جسر الشغور تمامًا.

قال لي الأهالي إنّه تمّ إعدام الكثيرين في مدرسة جسر الشغور، بعد أن تحوّلت هذه المدرسة إلى معتقل أيضًا، وكانوا إذا لم يعثروا على الشخص المطلوب لديهم، يعتقلون أقرب أفراد أسرته. أحد الرجال صرخ أمامي بصوت متهدّج: إنّ ما فعله آل الأسد في جسر الشغور يجعل الإنسان يشعر أنّ لهم ثأرًا شخصيًّا مع هذه المدينة. وأحد الشباب في مخيّم خربة الجوز قال إنّ هناك فتاتين بقيتا في جسر الشغور، تمّت تعريتهما وقد مشتا عاريتين في الشارع، وأنّه قد تمّ هدم بيوت في خربة الجوز وعين البيضا، وأنّ المواشي أُعدمت. قالوا لي إنّه وفي قرية السرمينيّة أخذوا طفلاً وربطوا يديه خلف ظهره ونزلوا به إلى الوادي ولم يره أحد بعد ذلك. قالوا لي إنّ هناك صمتًا عربيًّا ودوليًّا على جرائم آل الأسد، وإنّ فكرة الحوار مع النظام مرفوضة.

اللاجئون يريدون إسقاط النظام. لقد رأيت قرب قرية قوتشي ٤ عائلات ومعهم ١٩ طفلاً، والأطفال في مخيّم حجّي باشا كانوا يسترقون النظر عبر سواتر المخيّم إلى الخارج. وطفل آخر من الجهة المقبلة، كان يحاول التواصل مع الأطفال في الداخل فتمّ منعه من قبل الأتراك، كان كلّ السوريّين في المخيّمات يختبئون تحت

حجاب، ولكنّهم يتعطّشون لمعرفة ما يدور خارج المخيّمات التي تحوّلت إلى سجون كبيرة».

تنتهي شهادة هدى. وأغرق في حزن ليس طارئًا. بشّار الأسد وعائلته حوّلوا شعبي إلى شهداء ومعتقلين وهاربين ولاجئين، وسجناء داخل مخيّمات في البلدان الأخرى، ما الذي يمكن أن يفعله مجرم بأكثر من هذا في شعبه؟

٢٠١١/٧/٩

أيّام وأسافر..

كنت واثقة ألّا شيء سوف يحدث معي في المطار، رغم هواتف الأصدقاء المتتالية، لكنّي كنت قلقة فعلاً من فكرة الخروج من سورية، وكنت أؤكّد لنفسي أنّ هذه فترة وتمرّ، سأعود. سأنقذ ابنتي الآن. سأقوم بإجراء الحوارات وألتقي ممثّلي هيئات إنسانيّة، سأنقل للعالم ما يحدث هنا. يجب أن يعرفوا أنّ المتظاهرين الذين يخرجون للاحتجاج هم أناس عزّل من السلاح، مسالمون، مطالبهم هي الحرّيّة والكرامة والعدل. أفكار كثيرة تراودني، لكنّ الأكيد أنّي كنت في أشدّ لحظات حياتي تعاسة.

كانت هذه المرّة الأولى التي أفكّر فيها بابنتي، كنت أريد إيجاد طريقة توافقيّة للنفاذ من هذا الشقاق المحيط بي. سأترك قلبي في هذا المكان وأطير مثل بالون فارغ، ربّما أعود في وقت قريب وربّما لا! هذا الخروج الآن يذكّرني بانفصال رضيع عن أمّه، ويجب أن أقوى عليه

وأهدأ. لقد تحوّلت إلى عاصفة متحرّكة، وعليّ الآن كتابة آخر الشهادات التي جمعتها من ضابط متوار خائف، لأنّي لا أريد عبور الحدود في المطار، وهي بحوزتي كشريط مسجّل.

ذكر لي الضابط اسم المنطقة التي داهموها، ولكنّه جعلني أحلف بحياة ابنتي، وهو يرتجف، أن لا آتي على ذكر الأمر، كنت أفهم خوفه، فهو متزوّج ولديه ابنتان، وقد قام بإطلاق النار على نفسه في إحدى البلدات القريبة من حمص، تقريبًا قرب الصحراء، وأصاب منطقة في جسده لم يسمح لي التصريح عنها أيضًا، قال لي إنّه فعل ذلك، حتى يعود إلى البيت، دون أن يشكّل ذلك عبئًا عليه، وعندما سألته عن حقيقة القصص التي نسمعها عن قتل الجيش. قال: «إنتي بدّك تسمعي قصّتي ولا قصّة غيري؟»، قلت: «بدّي إسمع قصّتك».

كان شابًّا وسيمًا، من إحدى مدن الساحل، وينتمي للطائفة العلويّة وهذا هو سبب خوفه، فهمت قلقه. في الواقع كنت أكثر من يفهم هذا. لن يسامحوه أبدًا إذا عرفوا، سوف يقومون بإعدامه فورًا. قال: جاءتنا الأوامر أن نتّجه إلى المنطقة «ا» وكانت الأوامر تقول إنّ هناك عصابة مسلّحة سوف نقوم بمهاجمتها. كانت الأوامر مباشرة تأتينا، وكان معنا عناصر من فرع المخابرات الجوّيّة. ذهبت أنا وعشرون عنصرًا، بالكاد دخلنا المنطقة المذكورة، حتى انهالت علينا ضربات الرصاص. كانت هناك غرفة صغيرة على الجانب الأيسر، ورغم أنّنا كنّا نتسلّل في الظلام، إلّا أنّهم استطاعوا مهاجمتنا بسرعة، شعرت أنّ في الأمر شيئًا مريبًا. هذه المرّة الثالثة التي كانوا يأتون بها لمداهمة العصابات المسلّحة، وفجأة نتعرّض لكمين، وكان هذا الأمر يتمّ دائمًا قبل يوم الجمعة، ما حدث كان في مساء الخميس، وكان علينا العودة إلى حمص منذ الصباح من أجل المتظاهرين. حصلت معركة حقيقيّة. معركة حياة أو

موت. مات كلّ أفراد العصابة المسلّحة عدا واحدًا منهم! وقُتل ثلاثة من رفاقي، كانت الإصابات مباشرة في الرأس أو الصدر، حتى لحظتها كان الأمر بالنسبة لي هو في القضاء على عصابات مسلّحة سلفيّة تطمح إلى تصفية العلويّين، ولكن كانت هناك عدّة أمور تحصل أمامنا. كنت أشعر أنّنا كنّا طعمًا سهلاً لهذه العصابات التي تظهر دائمًا في المكان الذي نكون فيه، وتقوم بإطلاق النار علينا. الأهمّ من هذا، يضيف وقد بدأت أوردته تنفر من رقبته: في كلّ مرّة نأسر أحد أفراد هذه العصابة كانت المخابرات الجويّة تقوم بأخذه مباشرة، ولكن في المرّة الأخيرة، كان هناك أحد الأسرى أمامي، وكان من المفترض أنّه رجل عصابة، ولكنّه عندما وقع في قبضة أحد العناصر ووجّه له فوهة رشّاشه صار يبكي ويصرخ، وبدأ بالتمتمة. تبول في ثيابه، وعندها ظهر الضابط الكبير من المخابرات الجويّة، الذي لن أبوح باسمه، أخذه مباشرة. وكان هناك عنصر أمن يرافق الضابط، أطلق النار على رأس الأسير بشكل مباشر، حينها تيقّنت من أمر واحد؛ كنّا مجرّد طعم! أمّا كيف يتمّ ذلك، لم أفهم! شعرت أنّنا نتعرّض لخديعة، وأنّنا في اليوم التالي نكون أكثر هياجًا مع المتظاهرين بعد أن نرى رفاقنا يُقتلون قبل يوم واحد على يدي عصابات مسلّحة. شعرت أنّ الأمر في غاية الغرابة، وأنّ ما يقولونه لنا كذب. أنا لا أعرف طبيعة الناس التي تخرج للمظاهرات، ونحن في الجيش معزولون عن العالم الخارجي، ولكن عرفت أنّ قتل الضابط للأسير هو خوفه ممّا سيقول. كلّ الأسباب السابقة جعلتني أقوم بإطلاق النار على نفسي في الأربعاء الذي تلا ذلك الخميس. كنت أنتظر أن تنهمر علينا زخّات الرصاص ونحن نتقدّم فعلاً، وهذا ما حصل، في اللحظات التي يكون الموت والحياة على درجة واحدة، ينشغل الجميع، أطلقت النار! وأنا الآن منذ شهر ونصف في بيتي، وأتمنّى أن ينتهي هذا

الكابوس قبل أن أضطرّ للعودة إلى ذلك الجحيم.

عندما قال الجحيم، شيء ما في داخلي توثّب، إذًا هناك من يردّد الكلمة التي أردّدها يوميًّا: الجحيم.. الجحيم.

أنهي شهادته، وأعود لترتيب السفر.

الآن سأترك ورائي الكثير من الموضوعات الصغيرة.

أترك غضبي من المثقّفين الصامتين عن القتل، عن جبنهم وخوفهم.

أترك البوّابة المفتوحة على الموت في قلبي، وأفتح لابنتي بوّابة الحياة، هذا ما كنت عليه، أسير نحو الموت بخطًى واضحة. الخروج من سورية كان يعني الموت، ولا شيء سواه، كان يعني التحوّل عن جلدي، الانسلاخ عن قلبي، عن كلّ ما أردت صنعه، كنت أوضّب حقائبي وذهني مشوّش، وأنا أطوي ثيابي أفكّر ألف مرّة، أن أرمي كلّ شيء ورائي، وأن أترك ابنتي تمضي في طريقها، وأن أختبئ تحت الليل وأكون ما أحبّ أن أكونه.

لكن هذه هي المرّة الأولى التي يجب أن أكون ما لا أريده.

أن أكون ما أريده، جملة بسيطة، لكنّها تختصر حياة إنسان، من منّا هو ما يريده؟

أكتب هذه الكلمات الأخيرة، وأقرّر أن لا أعود إلى هذه الأوراق، حتى أفتحها لتحويلها إلى كتاب، أبدًا لن أفعل قبل مغادرتي سورية. لو فعلت، لبقيت! سأرتّب حقائبي، وأغلقها ومعها أغلق الكثير من الأسرار الفظيعة التي رأيتها وحصلت معي وأخشى فضحها. أخشى على عائلتي وابنتي. أعرف أنّي كنت مذعورة، هذا وصف حقيقي لما حصل، طوال الأشهر الماضية كنت كذلك، وكنت وحدي، أعرف أكثر أنّي كنت وحدي، وكان البعض يحتاجون للعبور على جثّتي كي يتمكّنوا من تجميل ذواتهم.

لا أحبّ الحديث عن البطولات. البطولة وهم، نعم كنت مذعورة، ولكنّي تعلّمت مع هذا الذعر كيف يمكن لي أن أترك منطقة معتمة في القلب، منطقة لا يصل إليها أحد. تبقى ثابتة، لا يخدشها الموت ذاته. وكنت عرفت أيضًا أنّ كلّ ما مررت به من تجارب وآلام ظننت سهوًا أنّها كافية لتجعل منّي امرأة قويّة، لم تكن على قدر كافٍ من الوجع لتحوّلني إلى امرأة تتمتّع بالهدوء اللازم لمواصلة العيش وسط الوضاعات المتراكمة للبشر. وتأكّدت، كما فعلت في كلّ مفاصل حياتي، أنّي رغم هذا الذعر، لو عاد الزمن إلى الوراء لفعلتُ كما فعلتُ، وربّما لتجنّبت

أخطاء كثيرة منذ بداية الانتفاضة. أخطاء جعلتني مرئيّة لكثيرين فيما أقوم بفعله.

الآن أستطيع أن أقول كما يقول الكثيرون:

النار تطهّر. النار تجلو. النار إمّا أن تحوّلك إلى رماد، أو تصقلك. وأنا في انتظار الأيّام القادمة كي أعيش الرماد، أو أرى مرآتي الجديدة.

هنا بدأ شيء ما يخرج من أمعائي بسرعة شديدة، وكأنّي أردتُ أن أخرج من جلدي. في الحياة أقول لصديقاتي: إنّ لمسة رجلٍ لا تجعلك تبدّلين جلدك كأفعى. ليست لمسة حبّ. الآن أستطيع القول إنّ هناك أشياء أخرى تبدّل جلودنا: الانسلاخ نحو الموت، والطيران نحو الهاوية! تلك اللحظة كانت الطيران نحو الهاوية، وعوضًا عن التحليق، تقيّأت. كنتُ واقفة، وسقطتُ على ركبتي. غضبوا بشدّة، وقام من مكانه ينظر مذهولاً إلى الأثاث الذي تلوّث، وبقيت أتقيأ. عيناي تشرّان أيضًا بالماء. لم تكن دموعًا، أنا واثقة، الدمع يتساقط كقطرات، وما خرج من عيني لم يكن كذلك. عادت تلك الفكرة: كلّ من يخرج للتظاهرات في الشوارع، هنا، إمّا أنّه يُقتل بالرصاص، أو يعيش هاربًا متخفّيًا؛ أو يُعتقل، ويَعذّب كهؤلاء. أيّ شجاعة نبتتْ فجأةً من هذا الصوّان؟

خرج صوتي ضعيفًا، لكنّي استطعت أن أسمعه: "إنت اللي خاين!". عرفت أنّه سمعها، لأنّه انحنى وصفعني بقوّة، فسقطتُ نهائيًّا على الأرض، ثم بدأت الأشياءُ تتهاوى. كان فمي مفتوحًا على الأرض، ودمٌ ساخنٌ ينزّ منه، وعرفتُ ماذا يعني قولهم بالعاميّة: "والله لبزّقك الدمّ".

ISBN: 978-9953-89-236-8

9 789953 892368

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت